باسكال بونيفاس

من يجرؤ على نقد إسرائيل؟!

تقديم وترجمة : أحمد الشيخ



بيروت



القاهرة



من يجرؤ على نقد إسرائيل؟!

الكتاب : من يجرؤ على نقد إسرائيل؟
الكاتب : باسكال بونيفاس
المترجم : أحمد الشيخ
الطبعة الأولى مايو ٢٠٠٤

الناشـــر : - المركز العربى للدراسات الغربية - أحمـد الشيـخ
- والفـــــــارابى- بيـــروت - جوزيف بوعقل
العنــوان : القاهرة - الألف مسكن ممر ٤فيلا ١٣٧ (ب)
ت وفاكس: ٢٤١٦٤٧٦٩ - ٤٩٣٣٤٧٦
E-mail:elsheikhahmed 11 @ Hotmail.com

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٩٠٦٨
الترقيم الدولى . I.S.B.N 977-6000-20-9

هذه ترجمة لكتاب :
Est-il Permis de Critiquer Israël?
تاليف :
Pascal Boniface
الناشر :
Robert Laffont
تاريخ النشر :
Mai 2003

تقديم

كانت المرة الأولى، منذ عشرين عاماً، مع المحامى الأمريكى بول فندلى، عندما أصدر كتابه الشهير : من يجرؤ على الكلام؟ والذى كشف علانية ما كان يفكر فيه الكثيرون سراً، عن طريقة عمل اللوبى الصهيونى فى أمريكا، وكيف كان يسيطر هذا اللوبى ويؤثر على كافة الأجهزة الفعالة فى المجتمع الأمريكى، بدءاً من الكونجرس إلى الإدارات المختلفة وحتى وسائل الإعلام، وما أعقب ذلك من حملة شرسة شنتها الدوائر الصهيونية ضد المؤلف الذى لم يستطع بعدها مزاولة مهنته مرة أخرى.

كان هذا منذ عشرين عاماً، وما كان غريبا آنذاك يكاد يصبح اليوم من المسلمات أو البديهيات التى لا تستثير الدهشة والعجب، "ولو عاد بول فندلى[1] لتأليف كتابه من جديد أو إصدار طبعة ثانية منقحة ومعدلة سيجد العجب العجاب، وسيكتشف أن ما أزاح النقاب عنه قبل عشرين سنة لم يكن سوى غيض من فيض، ونقطة من بحر ما هو قائم الآن من هيمنة تامة على مفاصل الدولة والإدارات والمؤسسات، و"وقاحة" علنية غير مسبوقة، حيث صار كل شيئ "على المكشوف" بعد أن كانت الهيمنة سرية وغير معترف بها، ويخجل من الاعتراف بوجودها أطراف التحالف فى واشنطن وتل آبيب ودوائر اللوبى الصهيونى المنتشرة فى كل مكان"

---

١) عرفان نظام الدين، من يجرؤ على الكلام؟ جريدة الحياة اللندنية، ٩ فبراير (٢٠٠٤).

بالطبع لم يكتب فندلى كتابا جديداً، ولم يطبع كتابه السابق طبعة جديدة، لكن فعلها الكاتب والباحث الاستراتيجى الفرنسى باسكال بونيفاس، الذى أصدر فى الصيف الماضى، كتابا يطرح علانية، ومن جديد، التساؤل ذاته الذى طرحه بول فندلى: ."من يجرؤ على الكلام؟"، لكن تساؤل بونيفاس صار: "من يجرؤ على نقد إسرائيل؟"، أو "هل من المسموح به نقد إسرائيل"؟، إذا التزمنا الترجمة الحرفية، والعنوان كما هو واضح يلخص بصورة بليغة فكرة الكتاب وقضيته الرئيسية، أى صعوبة ومخاطر ممارسة الحق فى نقد إسرائيل وسياساتها.

يعرف المؤلف جيداً أن من حقه نقد إسرائيل، لكنه يعرف أيضا، وبصورة ملموسة، ما يترتب على هذا النقد من مصاعب وأخطار، وكتابه الذى تجرأ ومارس هذا الحق يحكى قصة هذا "الردع الاستباقى" الذي يمارسه اللوبى الصهيونى فى المجتمعات الغربية لإفشال أي نقد يوجه لإسرائيل، لاسيما فى فرنسا. ويقدم لنا بونيفاس توثيقا هاماً يعكس تطور الوعى السياسى الفرنسى والأوروبى تجاه إسرائيل مع ازدياد قمعها للفلسطينيين فى الأراضى المحتلة، وردود أفعال غلاة الموالين لإسرائيل على هذا التغير فى مواقف شرائح كبيرة داخل الرأى العام الفرنسى والأوروبى لغير صالح إسرائيل.

يرصد بونيفاس فى كتابه الوقائع والأحداث والتصريحات، وبعضها يتعلق بما عايشه شخصيا، وبعضها الآخر ينتمى إلى مجال التحليل السياسى والاستراتيجى لأزمة الشرق الاوسط وتداعياتها. ويروى قصة

صراعه مع غلاة الموالين لإسرائيل، وكيف بدأ الصراع بمذكرته السياسية التى أرسلها إلى قادة الحزب الإشتراكى الفرنسى قبل انتخابات الرئاسة الفرنسية الماضية (٢٠٠٢)، والتى حذر فيها قادة الحزب من أن دعمهم المطلق لإسرائيل، عن حق وعن باطل، سيؤثر على نجاحهم الانتخابى، وأن أبناء الطائفة العربية والمسلمة، من المقيمين على الأراضى الفرنسية، والذين يملكون حق التصويت، ينظمون أنفسهم الآن، وينبغى أن يؤخذوا فى الاعتبار، وأن الساحة الفرنسية، لاسيما لدى الشباب، تشهد تراجعاً وانحساراً للتعاطف مع إسرائيل بالقياس إلى ما كان عليه الأمر فى الماضى.

وقامت القيامة ولم تقعد كما يقولون. وانطلقت الحملة مع سفير إسرائيل السابق فى باريس ايلى بارنافى، الذى وصف بونيفاس، فى جريدة لوموند، بأنه يقف على حدود العداء للسامية. ثم تطورت الحملة فى الصحف والمجلات والاذاعات والقنوات التليفزيونية، وصار بونيفاس، منذ هذا الوقت، هدفا دائما لغلاة الموالين لإسرائيل، وتعرض لحملة تشويه وتشهير، وتلقى تهديدات بالقتل، ومورست ضغوط كبيرة لإقصائه من عمله كمدير لمعهد العلاقات الدولية والاستراتيجية، كما مورست ضغوط على أقرانه ورؤسائه للتخلى والابتعاد عنه، كما وجهت طلبات لبعض الهيئات الممولة لمشاريع بحثية حتى تلغى عقودها مع المعهد الذى يديره بونيفاس.

يصف بونيفاس، فى كتابه، آليات الضغوط التى تعرض لها، والتى تعرض لها غيره، بدءاً من تجاهل القضايا المطروحة والحديث عن أمور أخرى، مروراً بالاتهامات ومحاولات القتل المعنوى والتدمير الشخصى،

وصولاً إلى حجب الآراء وعدم النشر، ورفع دعاوى قضائية لإسكات الأصوات الناقدة، وممارسة الضغوط المهنية، وتصعيد مشاعر الخوف، وتحويل بعض المؤسسات عن الدور المناط بها إلى أدوار أخرى بعيدة عن منطق عملها، وتهديد الناقدين، بشتى أنواع التهديدات، حتى يختاروا طريق الصمت.

يحلل بونيفاس، فى أكثر من موقع، أحد أشهر آليات الضغط وهى الاتهام بالعداء للسامية. ويناقش الكتب الجديدة التى تناولت معاداة السامية فى الوقت الحاضر، ويناقش كذلك الإحصاءات التى أعدها المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا. ويتبنى بونيفاس، فى هذا الشأن، إستراتيجية تكشف أولاً عن مبالغات غلاة الموالين لإسرائيل بشأن ما يحدث من اعتداءات على يهود فرنسا، ويفسر ثانيا ما يحدث من اعتداءات على أبناء وممتلكات الطائفة اليهودية بأنه عائد إلى نزاع الشرق الأوسط، وانعكاساته على أبناء المهاجرين العرب والأفارقة الذين يضعون على عاتق اليهود الفرنسيين مسئولية ما يفعله الجيش الإسرائيلى ضد أبناء الشعب الفلسطينى فى الأراضى المحتلة.

ويؤكد بونيفاس أن التركيز على فزاعة العداء للسامية يخدم أغراضا أخرى قد لا تكون لها علاقة مباشرة بقضية معاداة السامية. فإسرائيل أمام التحدى الديموغرافى الذى يواجهها، والذى يسير فى غير صالحها، تقوم ، كما يرى المؤلف، بتصعيد الشعور بالخطر لدى يهود فرنسا حتى يهاجروا إلى إسرائيل، كما يسمح لها الحديث عن اللاسامية فى فرنسا بالتهرب من الحوار مع الفلسطينيين الذى تؤيده وتدعمه السياسة الفرنسية. ويدخل

المؤلف فى سجال مع غـلاة الموالين لإسرائيل، ويقدم وجهـات نظر مغايرة بشأن الحـديث عن كراهية اليهـود وعن الأشكال الجديدة لمعاداة السـامية، وينتقد بشدة الذين يصورون فرنسا وكأنها بلد مـعاد للسامية، ويتعرض فيه اليـهـود إلى شـتى أصناف الإضطهـاد والعـذاب، أمـثـال: تاجـيـيف، أرنوكلارسيفلد، آن سنكلير، فكتـور الجربى، بيير لولوش، جاك تارنيرو، الكسندر أرلر وكوكيرمان. . وغيرهم.

يقدم الكتاب، أيضا، صوراً غير مـعروفة عن الإعلام الفرنسى الذى عادة مـا ينظر له، فى واقـعنا العـربى، على أنه مـوال لإسـرائيل بينمـا الوقـائع والأحداث التى يشير إليها بونيفاس تقدم صورة مغايرة إلى حد ما، حيث نجد دعاوى قضائيـة ضد بعض الإعلاميين وضد أجهـزة الإعلام التى لا تسير فى فلك الرؤى والمواقف الإسرائيلية (مـحاكمة الصحفى ميـرميه، مظاهرات أمام وكالة الصحافة الفرنسية، تهديدات بمقاطعة الصحف والمجلات التى تدعو إلى السـلام فى الشـرق الأوسط، تحـمـيل الإعـلام الذى ينـشـر مظاهر القـمع الإسرائيـلى للفلسطينيين مسـئوليـة الأحداث المعـادية للسامـية فى فـرنسا).

يرفض بونيفاس، أيضا، محـاولات تصدير صراع الشرق الأوسط إلى الساحة الفرنسـية وينتقد الذين ينتهجون هذا الطريق، لاسـيما غلاة الموالين لإسرائيل الذين يرفضون عمليـات الخلط بين يهود فرنسا والإسرائيلين، فى الوقت الذى يعملون فيه على تحويل المؤسسات اليهودية الدينية والاجتماعية فى فرنسـا إلى ملحقات لسفـارة إسرائيل فى باريس، كما ينتـقد، فى هذا الشأن، بعض قادة إسرائيل الذين يخاطبون يهـود فرنسا أحيانا كما لو أنهم من المجندين تحت إمرتهم وعليهم أن يتصـرفوا ويتضامنوا مع دولة إسرائيل

بدون قيـد أو شرط، وهو ما دفع المؤلف إلى الحـديث - وهذه هى إحدى النقاط الرئيسية فى الكتاب - عن مخاطر تأثير الطوائف المقيمة بفرنسا على القرار والسـياسات الفرنسـية، ومحذراً من خطر أن تتـحول سياسـة فرنسا الداخلية والخارجية إلى رهينة لمصالح وأغراض هذه الطوائف.

واذا كانت هذه هى بعض الخطوط الرئيـسية للكتاب، فـإن من حقنا أن نتسـاءل لماذا إذن كل هذه الضجـة حول الكتـاب ومؤلفه؟ وتـزداد الدهشة عندما نعلم أن المؤلف يصـر على أنه ينتقد سـياسة شارون فـقط. وأنه يقر أولاً بحق إسرائيل فى الوجود والأمن، ولا يعتبر إسرائيل دولة عنصرية ولا يرى الصهيـونية شكلاً من أشكال العنصرية، ولم يتحـدث أبداً عن اليهود ككتلة واحـدة، ولم يتحـدث عن لوبى يهـودى وإنما لوبى موال لإسـرائيل يضم يهوداً وغير يهود، وكان يتحدث دائما عن صراع إسرائيلى - فلسطينى وليس صراع إسرائيلى - عربى، ولم يقل بالانحيـاز لصالح الطائفة العربية والمسلمة فى فرنسا وإنما بوضعهـا فى الاعتبار، ولم ينحز إلى مواقف بعض الدول العربيـة، وإنما طالب فقط بتطبـيق المعاييـر ذاتها على صـراع الشرق الأوسط مثلمـا هو الحال فى بعض الصراعـات الأخرى، ناهيك عن بعض كتاباته ومواقفه الأخرى التى تبنى فـيها وجهات نظر أقرب إلى وجهة النظر الإسرائيلية، كـما فى انتقاداته لمؤتمر دوربان ضد العنصـرية .. وغيرها من المواقف، ومع ذلك لم يـشفـع له كل ذلك ولم يخـفف من حـدة الحـملة الموجهـة ضده منذ أن كـتب مذكرته الشـهيـرة فى (٢٠٠١) ثم مع صدور كتابه: من يجرؤ على نقد إسرائيل؟ (٢٠٠٣).

وإذا كان الأمـر على هذا النحو، واذا كان هذا سـجالا سياسـيا داخل فرنسا وإذا كان مـا يطرحه بونيفاس يدركه عالمنا العربى جيـداً، فما الجديد إذن فى هذه القضية؟ ولماذا فكرنا فى نقل الكتـاب إلى اللغة العربية؟ وهل نحن فى حـاجة لمن يؤكـد لنا مـدى سطوة اللوبى الصـهيـونى فى أوروبا وأمريكا؟ وهل ما تزال هناك أسرار لم يكشف النقاب عنها فى هذا الشأن؟ وهل نحن فى حاجة إلى من يجرؤ على نقـد إسرائيل؟ ونحن نعيش عمليا - وليس نظريا - ما يفرز أفـعالا تتجاوز التنديد بسطوة اللوبى الصـهيونى هنا أو هناك.

فى الحقيقة كان دافـعى وراء نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية، هو أننا فى العالم العـربى لم نعد نعـيش فقط آثار التدمـير والتـخريب المادى فى المجتـمعات العـربية، على أكثـر من صعـيد، من جراء القـوة الصهيـونية المتشعبة، بل أصبحنا نعـيش ظاهرة جديدة، ظاهرة الخوف والخشية من آثار اللوبى الصـهيونى فى بلادنا - وهـذه هى الطامة الكبرى - والـذى يحتل مواقع هامـة فى أروقة الأجهزة الفـعالة فى المجتـمعات العربيـة ليس أقلها أهمية أجهزة الإعلام العربية الرسمية وغير الرسمية . .

وإذا كان بول فندلى قد كشف منذ عشرين عاما آليات عمل هذا اللوبى الصهـيونى فى الولايات المتـحدة، وإذا كـان باسكال بونيفـاس قام بدوره بكشف آليات عمل هذا اللوبى في فـرنسا، فإنه ربما جاء دورنا فى الكشف عن آليات عمل هذا اللوبى داخل المجتمعات العربية . . وهذه قصة كبيرة، تحتاج وقفة تأمل لا يتـسع المجال هنا سوى للإعلان عنها، فى انتظار لحظة جديدة للكشف عن تفاصيلها.

فى هذا الإطار وجـدنا أنه من المناسب نقل محـاولة باسكال بونيـفاس

الأخيرة إلى العربية لما تكشفه، وما تساعد على إضاءته فيما يحدث داخر مجتمعاتنا وداخل المجتمع الفرنسى ذاته. فالكتاب يقدم معرفة دقيقة وموثقة لما يحدث داخل المجتمع السياسى الفرنسى من صراعات وضغوط تهدف إلى تهريب النقد بعيداً عن إسرائيل، ومنع أى مساءلة لها رغم توافر الأدلة والبراهين السياسية لذلك. وأهمية الكتاب تكمن فى انه يضئ بالمعرفة الموثقة حقائق ووقائع ليس كما نتصورها نحن فى مجتمعاتنا وإنما كما هى فى الواقع فعلاً.

فى الحقيقة يندرج كتاب بونيفاس: من يجرؤ على نقد إسرائيل؟ ضمن الكتب المعاشة، أى تلك الكتب التى تتناول قضايا جارية أمام أبصار الناس يتابعون تفاصيلها لحظة بلحظة، ولا يقف بونيفاس عند حدود رسم خرائط تفصيلية لقضايا الصراع التى يتناولها وإنما يمارس تحليلاً عقلانيا للأحداث والتصريحات السياسية، ويبحث داخلها عن صحة الدليل أو البرهان السياسى ويفتش عن مدى اتساقه أو تناقضه. وهو فى كتابه يكشف عن براعة حقيقية فى اصطياد التناقضات، فلا توجد صفحة من صفحات كتابه إلا ونجد أمامنا الحدث السياسى وقد نزعت عنه الأقنعة التى كان يتلبسها من قبل تبريراً وتزويراً . . .

نحن هنا أمام عقلانية سياسية تحاول أن تحلل وتحكم على أحداث وتصريحات تتسم أحيانا بغباوة سياسية شديدة وعنجهية عسكرية تعود إلى ما قبل التاريخ الحديث للبشر. . والكشف الذى يقدمه هذا المنهج فى التحليل العقلى للحدث السياسى يشكل فى نظرنا إضافة جديدة ينبغى أن تتبعها إضافات أخرى.

غير أن الذهاب بعيداً فى منطق التحليل العقلى للسياسة، قد يغيب أحيانا الموقع والتكوين والانتماء الحضارى والدينى والسياسى لمن يمارس مثل هذا التحليل. لا شك أن بونيفاس باحث وطنى، وليس فى هذا ما يعيب، وهو يدافع عن مواقف وسياسات بلاده، وليس فى هذا ما يعيب أيضاً. لكنه عندما يفعل ذلك نجده ينطق باسم مبادئ عالمية وعامة قد تخفى تحت طياتها بعض التناقضات أحيانا، وهو أمر يجعلنا نختلف مع المؤلف فى بعض القضايا.

يتحدث بونيفاس لغة واحدة، ويخشى اللغة المزدوجة، وهو محق فى ذلك، لكن الازدواجية والتناقضات قد تنبع، فى المقام الاول، من أن العالم ليس موحداً ولا متناغما ولا يقبل أحيانا اللغة الواحدة المتسقة. وخير نموذج لذلك هو عنوان كتابه الذى قد يكون مقبولاً بالفرنسية، أما فى الحياة السياسية العربية، فإن نقد إسرائيل يعتبر من المسلمات التى تحظى بإجماع شامل. وإذا ذهبنا أبعد من العنوان، سنجد أن النقد الذى مارسه بونيفاس ضد السياسة الإسرائيلية قد يكون من الأمور المألوفة فى العالم العربى، وربما يستغرب القارئ العربى من هذه الضجة المثارة ضد بونيفاس، بل ربما أزعم أن كتاب بونيفاس رغم ما فيه من نقد شديد لسياسة شارون الإ أنه قد يُغْضب بعض الدوائر والاتجاهات فى العالم العربى، لأنه لم يذهب مسافة أبعد فى النقد الذى مارسه، وأنه يقبل بأشياء مازالت بعيدة عن منطق البرهان السياسى فى العالم العربى والإسلامى.

فى الحقيقة فإن ما يحاسب عليه بونيفاس ليس ما أدلى به من آراء ومواقف وإنما لاختراقه سياسة "الردع الاستباقى" التى يمارسها غلاة الموالين

لإسرائيل. فمنذ سنوات عديدة واللوبى الموالى لإسرائيل ينجح فى خلق مناخ سياسى عام لا يسمح إلا بتاييد إسرائيل عن حق وعن باطل، ولا يسمح بأى نقد جاد وعقلانى لسياسات هذه الدولة، لذلك عندما نشر بونيفاس مذكرته ثم كتابه - رغم اعتدال وتواضع النقد الموجه لإسرائيل وأنصارها - بدا بحكم ما هو سائد فى الساحة السياسية الفرنسية وكأنه يحدث انقلابا فى الرؤية والمواقف لم تتعود عليها الأوساط السياسية السائدة. وعوقب السيد بونيفاس ليس على ما قاله وإنما للأثر الذى تتركه أقواله على ساحة ظن البعض أنها ثابتة ولا يمكن تغييرها. وهنا تكمن المفارقة : فالنقد الذى عبر عنه بونيفاس يبدو متواضعا، من وجهه النظر العربية، ومتطرفاً من وجهة النظر الفرنسية السائدة. والذين يتابعون عن كثب ما يحدث فى العاصمة الفرنسية يعرفون جيداً بحكم موازين القوى السائدة أن ما قاله بونيفاس يعتبر بالفعل تجاوزاً بارزاً للقناعات السياسية المهيمنة فى فرنسا فيما يتعلق بإسرائيل والعداء للسامية وما شابه هذه الأمور . . .

وربما يكمن سر هذه المفارقة فى أن بونيفاس لا يتعرض مباشرة إلى الصراع فى الشرق الأوسط وإنما إلى انعكاساته على الأوضاع الفرنسية الداخلية. وكذلك الأمر ذاته عندما يتعرض لظاهرة العداء للسامية، فهو لا يبحث فى جذور المشكلة وأبعادها التاريخية وإنما يلتقط إنعكاسات الصراع فى منطقة الشرق الأوسط أيضاً على بعض أبناء المهاجرين العرب والمسلمين. وربما يفسر هذا عدم اكتمال التفسير، أو توازنه، لدى المؤلف، فى مثل هذه القضايا. فتركيز المؤلف انصب على مسئولية سياسة إسرائيل فى الشرق الأوسط وما تعكسه من ردود فعل لدى بعض أبناء الطائفة العربية والمسلمة الذين يندفعون فى اعتداءات لاسامية، وهو قول قد لا

يمكن دحضه لكنه فى الوقت ذاته لا يفسر هذه الظاهرة تفسيراً شاملاً. ويلاحظ أن المؤلف لم يناقش أبعاداً أخرى كثيرة. فالبعض يرى أن "معاداة السامية تعد نتاجا للثقافة الأوروبية التى تبلورت وتطورت كجزء من الديانة المسيحية، وتبلور القوميات الأوربية منذ ألف وخمسمائه عام. وهذا هو السبب فى أن معاداة السامية والتى تتوطن فى أساس الدين والمجتمع الإورويى سوف تستمر فى الازدهار دون عائق.."

كذلك غاب عن المؤلف ظاهرة العداء الإسرائيلى للسامية، وهى الوجه الآخر لهذه الظاهرة، التى يتم تناولها فى العادة على أساس أنها موجهة فقط ضد اليهود، ويتم التغاضى عن واقع العرب كساميين، وهو ما يعترف به بعض الإسرائيلين أنفسهم، فنجد على الموقع الالكترونى لصحيفة معاريف بتاريخ ٩ نوفمبر (٢٠٠٣)، مقالاً كتبه شموئيل جوردون بعنوان معاداة إسرائيلية للسامية حيث يقول: "وضعت دائرة المعارف العبرية معاداة السامية بأنها كل مظاهر الكراهية والعنصرية الموجهة ضد الساميين .. ومن هنا فإن معاداه السامية تشمل أيضا كل مظاهر الكراهية والعنصرية الموجهة ضد العرب .. لقد تطورت معاداة العرب فى إسرائيل وتكونت من الاحتقار لمظاهر التخلف والاستهانة بالطبيعة البشرية .. وبرزت شحنات عميقة من العنصرية .. حيث تسمع أقوالا عنصرية من قبيل : قتلة .. عديموا الاخلاق .. حذار من الثقة بهم .. الورقة التى يوقعون عليها لا تساوى ثمنها .. الموت للعرب .. العربى الجيد هو العربى الميت..". وربما يكون للمنهج الذى سار عليه بونيفاس فى تأليف كتابه أثر واضح فى عدم اكتمال تفسير بعض الظواهر الهامة التى تطرق إليها. فهو يجمع فى كتابه بين التحليل االسياسى والسيرة السياسية الذاتية ، يتحدث بلغة الدراسة الأكاديمية وتارة أخرى يتحدث لغة المعايشة الشخصية للأحداث والقضايا.

وبرغم الملاحظات السابقة إلا أنه يظل للكتاب قيمة كبرى. وكان مؤلفه من أوائل الذين رصدوا ظاهرة انحسار التعاطف مع اليهود فى فرنسا، وقبل أن تظهر النتائج المدوية لاستطلاع الرأى فى دول الاتحاد الأوروبى، والذى أكد ما أشار إليه بونيفاس قبل ذلك بعامين. كما أنه قدم نقداً عقلانيا للسياسة الإسرائيلية وغلاة المتعاطفين معها.

والكتاب، فى النهاية، يقدم توثيقا هاماً ومعاشا، وليس تحليلاً نظريا مجرداً، لآليات عمل اللوبى الصهيونى فى فرنسا، وكان لمؤلفه جرأة التصدى لتيار سياسى غالب فى الحياة السياسية الفرنسية، ولم يتراجع أمام قوة الضغط المتشعبة فى ميادين مختلفة وظل وفيا لقناعاته الخاصة.. لذا ينبغى علينا أن نهتم بهذه المحاولة الجادة من باحث فرنسى فى مجال العلاقات الدولية والاستراتيجية، وعلينا أن نتأمل بعمق هذا المنطق السياسى فى نقد إسرائيل، وهو نقد من المفيد التعرف إليه وبناء جسور مع صاحبه، ومع الذين يسيرون فى الاتجاه ذاته، وهم يشكلون تياراً جديداً صاعداً فى الحياة السياسية الفرنسية، وأن نمضى معهم فى الطريق إلى الحدود المسموح بها ! وأن لا ننتظر من الآخرين ما ننتظره من أنفسنا..

أحمد الشيخ
باريس - القاهرة
مارس ٢٠٠٤

لا يفوتنى، فى هذا المقام، توجيه الشكر للزملاء والأصدقاء الذين ساعدوا، بملاحظاتهم القيمة، على صدور الترجمة، وأخص بالذكر منهم: عمر المزى ومصطفى الذوادى وحلمى شلبى، .وماجد يوسف، ومصطفى زين، ومحمود نسيم، ومنى طلبة، وأنور مغيث.. إلى كل هؤلاء أتوجه بمشاعر التقدير والعرفان ...

الفصل الأول

نقد إسرائيل

حق نظرى لكن ممارسته عملية شائكة

هل نملك الحق فى نقد إسرائيل؟ نعم، بالتأكيد! إلى درجة أن سفير إسرائيل فى باريس[1] وأصدقاء هذا البلد من الفرنسيين، يدعونك إلى ممارسة هذا النقد. إسرائيل دولة ديمقراطية، وهى بهذه الصفة، تقر الحق فى ممارسة النقد .

هذا على الصعيد النظرى، أما فى الممارسة العملية، فإن الأمر أكثر تعقيداً وأكثر مخاطرة. فى داخل هذا البلد (إسرائيل) نجد رجال السياسة والصحف والناشطين فى الجمعيات الأهلية لا يترددون فى نقد الحكومة بشدة. ونجد المعارضة التى هى دائما فى موقع الأقلية، وهو أمر طبيعى فى أى نظام ديمقراطى، تمارس نقداً عنيفا. لكن خارج هذا البلد ينبغى على المرء، ولاسيما فى فرنسا، أن يتوخى الحذر فيما يقوله بشأن إسرائيل.

يستطيع المرء أن يمارس النقد ضد الحكومة الفرنسية، وضد دستور فرنسا، وأن يتهم رئيس الجمهورية، أو رئيس الوزراء، وينعتهما بأفظع

١- صحيفة ليبراسيون، عدد ٣٠ اغسطس ٢٠٠١.

النعوت دون أن يتعرض لأى أذى. يستطيع المرء المطالبة بتغيير النظام القائم، لأنه يبدو غير قادر على النهوض بالأعباء المنوطة به، دون أن يؤاخذك أحد على ذلك، فأنت تساهم فى صراع الأفكار.

ويستطيع المرء أيضاً أن يحكم بصورة سلبية على حكومات دول أخرى، وأن ينتقد الطابع الانفرادى لأمريكا فى العلاقات الدولية وسياستها العسكرية، وأن يدين جمهورية الصين الشعبية بمناسبة قمعها للمظاهرات فى ساحة تيانن منن ، أو لسياستها فى التبت، وأن ينتقد روسيا لقصور العدالة، أو بسبب ممارستها فى منطقة الشيشان، أو أن ينتقد صربيا بسبب كوسوفو، أو المملكة العربية السعودية لغياب الديمقراطية ولغياب الشفافية، أو كوريا الشمالية لسياستها فى السير نحو تصنيع الصواريخ أكثر من سيرها فى طريق إطعام شعبها، أو أن ينتقد الأنظمة الأفريقية لفسادها، أو أن ينتقد انجلترا وألمانيا لرغبتهما فى الهيمنة على أوروبا (بدلا من فرنسا). . الخ.

باختصار، يمكن للمرء أن ينتقد مائة وتسعة وثمانين دولة هى دول أعضاء فى الأمم المتحدة، بدون أن يواجه صعوبات، وبدون أن يتعرض للخطر. وسيواجه هذا النقد بمواقف مضادة، وبردود رافضة، الأمر الذى يفضى إلى وجود حوار فعلى. لكن أبداً لن يتهمك أحد بالعنصرية المعادية لأمريكا إذا أنت انتقدت جورج بوش، أو بالعنصرية المعادية لروسيا إذا كنت عنيفا فى نقدك لبوتين، أو بالعنصرية المعادية للصين إذا سخرت من زيانج زيمين، أو بالعنصرية المعادية لكوبا إذا سخرت من كاسترو، أو بالعنصرية المعادية للسود إذا قلت إن رئيس دولة إفريقية ما يدير شئون بلاده بطريقة كارثية، الخ . من حقك الحديث عن أخطاء عرفات، وانتقاد لغته المزدوجة، ودعمه المستتر للإرهاب ورغبته فى البقاء فى السلطة على حساب

مصلحة شعبه، أو نظراً للفساد الذى يحيط بالسلطة الفلسطينية. ولن يستنتج أحد من هذا النقد أنك معاد للعرب، وسيؤخذ هذا النقد على أنه من طبيعة الحوار النقدى والتفكير السياسى. والذين ينطقون بهذه الأحكام السلبية لن توجه إليهم تهمة أنهم ينظرون إلى العرب نظرة عنصرية تصفهم بالخداع والتوحش وانعدام النزاهة.

لكن هناك دولة - ودولة واحدة فقط - هى دولة إسرائيل، يؤخذ النقد الموجه إلى حكومتها مباشرة على أنه عنصرية مقنعة، أو عنصرية لا تعلن عن نفسها صراحة.

وإذا سمحت لنفسك بالتشكيك فى سياسة آرييل شارون، ستتهم على الفور بالعداء للسامية من قبل بعض أنصاره. كما ستوجه إليك تهمة الجهل بالوقائع التاريخية والسياسية والثقافية بالمنطقة. ويستخدم غلاة الموالين لإسرائيل أحكاما متكررة تنزع إلى التشكيك فى مصداقية من لا يشاركونهم الرأى. وهنا أيضا نجد الصراع الاسرائيلى الفلسطينى متميزاً عن بقية الصراعات الأخرى.

بالتأكيد يستخدم بعض أنصار القضية الفلسطينية أحيانا براهين غير جيدة، لكن منذ متى يطلب من أحد إعداد رسالة دكتوراه فى الدراسات البلقانية حتى يحق له أن ينتقد ميلوسوفيش! ومنذ متى كان ضروريا أن يمكث الإنسان عشر سنوات فى التبت حتى يحق له الحديث عن هذه المنطقة. فى الحقيقة لا يوجد صراع ينتج انفعالات أكثر مما هو عليه الحال مع الصراع الإسرائيلى- الفلسطينى. وهو ليس، مع الأسف، الصراع الوحيد فى العالم.(١)

بيد أن المرء استطاع، ويستطيع، أن يناقش، بدون أن يواجه مشاكل كثيرة، صراعات كثيرة مثل حرب الخليج والصراعات الممتدة فى يوغسلافيا

١- لابد من الإقرار بأنه ليس الصراع الأكثر دموية، هناك صراعات أخرى فى العالم خلفت ضحايا أكثر دون أن تشغل حيزاً كبيراً فى أجهزة الاعلام وفى ساحة الحوار العام.

السابقـة، والإبادات التى حدثت فى رواندا، والحادى عشـر من سبتمـبر، وحرب أفـغانسـتان، وحـرب العراق.. بمسـاءلة البراهين المطـروحة، ولا يتحسب لشئ سوى مقارعة الحجة بالحجة.

ليس هناك شـيئ من هـذا كله فـيـمـا يتـعلق بالصـراع الإسـرائيلى-الفلسطينى. إذ سرعـان ما تنطلق الإهانات وتوجه الإجراءات التـأديبية فى المجال المهنى، ثم تأتى التهديدات المباشـرة بعد ذلك، وقد تصل أحيانا إلى حد التهديد بالموت.

العداء للسامية موجود بالفعل. وأفضى، فى الماضى، إلى أسوأ ما يمكن أن يقوم به الإنسـان عندما يفـقد إنسـانيته أى الإبادة المبـرمجـة لشعب.. وإسرائيل التى ولـدت بعد الحرب العـالمية الثانيـة، نُظِر لها على أنهـا ملاذ ممكن لكل يهـود العالم إذا تعـرضوا لخطر جـديد فى البلاد التى يحـملون جنسيتهـا. ويمكن للمرء إذن أن يفهم بدون مشقة مـدى ارتباط يهود العالم بإسرائيل. وكما لاحظ روبير بادنتـير عن حق: "إسرائيل ولدت من شعور بقلق الموت لم يعرفه شعب آخر منذ بداياته". [(١)]

وكتب ريمون آرون أثناء حرب الأيام الستة فى عام (١٩٦٧): لم أكن يوماً صهيـونياً، أولاً وقبل أى شئ آخر، لأننى لم أعش كـيهودى... ومع ذلك أشعر بصـورة أكثر وضوحـاً اليوم أكثر من ذى قبل أن مـجرد احتمـال تدمير إسرائيل يجرحنى حتى أعماق روحى. وبهذا المعنى أعترف بأن أى يهودى لن يصل أبداً إلى الموضوعية الكاملة عندما يتعلق الأمر بأسرائيل". [(٢)]

وبعد أن تعرض اليـهود لعمليات اضطهاد مـخيفة عبـر القرون، وحتى مجئ هتلر، وتنفيذ الحل النهائى ضدهم، أى الإنهاء المبرمج لشعب بأسره،

١- "القلق والسلام" صحيفة لوموند عدد ٢٠ أغسطس ٢٠٠١

٢- استشهاد مذكور بمجلة الاكسبريس عدد ١ فبراير ٢٠٠١

كيف لا يمكن فهم ارتباط يهود العالم كله بإسرائيل؟

وهذه الدولة التي ولدت في ظروف مؤلمة[1] ، والمعرضة لنزاعات مسلحة من جيرانها الأكثر عدداً من الناحية السكانية، تمثل الملاذ الممكن لشعب يخشى من عودة ما هو أسوأ.

لكن منذ عام (١٩٦٧) تغير الوضع بصورة واضحة. أولاً لأنه منذ هذا التاريخ أصبح التفوق العسكرى لإسرائيل واضحاً للعيان. وقد تحقق لها ذلك بفضل تفوق الجيش الإسرائيلى على كل جيرانه العرب، حتى لوتمكن هؤلاء من تشكيل تحالف متماسك وهو أمر غير محتمل، فسيبقى هذا التفوق لإسرائيل بالنظر إلى الدعم الامريكى ووجود سلاح نووى إسرائيلى[2].

لقد حصلت إسرائيل أثناء حرب (١٩٦٧) على مكاسب، وأخذت أراضى من مصر (أعادتها فى إطار إتفاقيات كامب ديفيد ١٩٧٨) ومن سوريا والأردن. ويرى بعض الإسرائيليين، أن هذه الأراضى هى بمثابة

١- لكنها كانت أيضاً ظروفا مؤلمة بالنسبة للفلسطينين. انظر كتاب الخطيئة الأصلية لإسرائيل لدومنيك فيدال. دار الأتيلية سنة ٢٠٠٢، صفحة ٢٢٢.

٢- وبطريقة منذرة بشكل خاص كتب ريمون آرون وكأنه يستشرف المستقبل فى ١٩٧٦ فى كتابه المخصص لكلا وزفيتس "فى غياب طرف ثالث صاحب مصلحة، هل فى امكان العرب والإسرائيليين وحدهم بلوغ السلام بقوة البعض وخضوع البعض الأخر؟ لا اعتقد ذلك. سيستمر البعض فى امتلاك العدد والزمن والمحيط بينما يمتلك الآخرون الجيش الأكثر فعالية. وقد ينتصر الجيش في معركة، وربما فى أكثر، لكن هذا الجيش لا يمكنه وحده أن يصل إلى أى هدف بعينه. وفى هذه الحاله تصبح إدارة الحرب متوقفة على الحكام وتتطلب عند هذه النقطة استعمال وسائل غير عنيفة. غير أن إسرائيل منذ ١٩٤٨ إلى يومنا هذا توجه أمورها بحسب عقيدة الأمن ذات الفعالية العسكرية الجزئية والمؤكدة، وهى بهذا المعنى، ستسير فى اتجاه مناقض للغاية السياسية.

Penser la guerre, clausewitz L.II. l'age planetaire, Gallimard 1976. P196

ضمانات أرضية من الممكن أن تعاد مقابل اتفاق حقيقى للسلام، بينما يرى البعض الآخر من الإسرائيليين أنها تمثل الأرض التوراتية لإسرائيل وأنه ينبغى الحفاظ عليها أيا كان الأمر.

لقد اتجه الفلسطينيون، تحت ضغط البلاد العربية، إلى رفض الحق فى إنشاء دولة فى عام (١٩٤٨)، أثناء تقسيم الأراضى فى ظل الانتداب البريطانى، وغزت الدول العربية ما كان يمكن أن يكون دولة فلسطينية عربية إلى جانب دولة إسرائيل وفقا لخطط الأمم المتحدة. والمفارقة أن ظهور القومية الفلسطينية قد جاء بصورة كبيرة "كنتيجة مترتبة"، وكرد فعل على احتلال إسرائيل للضفة وقطاع غزة[١] .

وفى ظل هذا الاحتلال الإسرائيلى سينمو ويتطور الشعور القومى الفلسطينى الذى لم يكن موجوداً من قبل ، أو كان موجوداً فى نطاق محدود (حتى لو كانت منظمة التحرير الفلسطينية قد تشكلت فى عام ١٩٦٤ وفتح فى ١٩٥٩). وقد ساهمت بعض الأحداث بقوة فى ظهور الشعور القومى الفلسطينى : كالمذابح التى حدثت فى ١٩٧٠ (سبتمبر الأسود) والتى قتلت المملكة الأردنية الهاشمية خلالها آلافا من الفلسطينيين المقيمين فى أراضيها فى حالة من عدم مبالاة من العالم العربى . لقد أرادت منظمة التحرير استخدام القوة والإرهاب فى البداية لإجبار الإسرائيليين على

١- ظهرت القومية الفلسطينية فى نهاية القرن التاسع عشر فى سياق حركة النهضة العربية، وتجذرت على مدار الحرب العالمية الأولى وأثناء الانتداب البريطانى. انظر هنرى لورانس فى "قضية فلسطين؛ الجزء الأول (١٧٩٩-١٩٢٢) الصادر عن فايار (١٩٩٩) وانظر كذلك الآن جريش ودومنيك فيدال فى "فلسطين ١٩٤٧ التقسيم المجهض" عن دار كومبلكس بروكسيل (١٩٨٧).

الرحيل ، لكن مع الوقت بدأت تدرك أن اللجوء إلى الإرهاب وعدم الاعتراف بإسرائيل يفضى إلى طريق مسدود.

إن المسيرة الطويلة للشعب اليهودى والمسيرة القصيرة لدولة إسرائيل تشكلان تاريخاً مليئا بالمخاطر . ويمكن للمرء أن يتفهم هذا الإرتباط الوثيق لليهود بإسرائيل . لكن بدءاً من (١٩٦٧) ، ولنقل بوضوح أكثر بدءاً من ثمانينيات القرن العشرين ، حدث تحول فى مواقف شرائح كثيرة ، على رأسها كثير من اليهود أنفسهم، الذين أدركوا أنه لا يمكن إنكار حقوق الفلسطينيين باسم الدفاع عن إسرائيل. وأن احترام القانون الدولى يفرض القبول بإعادة الأراضى المحتلة والسماح بإنشاء دولة فلسطينية فوقها. وأن الاحتلال العسكرى المتواصل وتزايد المستوطنات اليهودية فى الأراضى الفلسطينية يفضيان إلى ما يفضى إليه أى احتلال عسكرى، أى إذلال وقمع وحقد. .الخ. وبالنسبة لكثير من اليهود فإن دعم إسرائيل يمكن أن يكون له حدود معينة، وأن العدالة والمصلحة، بما فيها مصلحة إسرائيل، تكمنان فى قبول السلام مقابل الأرض. وهناك آخرون يرون، على النقيض من ذلك، أن من يعيشون خارج إسرائيل لا يمكنهم أن يعارضوا من هم "فى الجبهة"، وأن التضامن مع إسرائيل هو تضامن غير مشروط.

هناك معادون للسامية يعارضون إسرائيل، وهم أناس يعارضون إسرائيل بشكل دائم لأنها دولة يهودية، ولهذا السبب فقط يعارضونها.

لا ينبغى إنكار وجود عداء للسامية. ينبغى مكافحته دائما وأبداً لأنه لم يختف، لكن لا ينبغى أيضا أن يستغل هذا الكفاح سياسياً لخدمة أغراض أخرى، وهو ما تقوم به الحكومة الإسرائيلية عندما تجد نفسها فى مأزق

أمام المجتمع الدولى فلا تنظر للانتقادات التى توجه إليها على أنها انتقادات عادية، وإنما تنظر إليها كأنها موجهة إلى طابعها اليهودى.

يتميز هذا التكتيك بمزيتين وفقا لوجـهة نظر الحكومة الإسرائيلية الحالية. فهو يجرم سياسياً نقد إسرائيل. والذين يجاهرون بعدائهم للسامية سيظل عددهم محدوداً، والتلميح إلى أن مجرد انتقاد إسرائيل هو فعلا عداء للسامية سيسفر عن تجميد البعض لحريتهم فى نقد إسرائيل.

والمزية الثانية تكمن في أن المواطنين الإسرائيليين سيشعرون أمام انبعاث العداء للسامية بأن عليهم أن يتضامنوا بقدر أكبر مع حكومتهم، كما سيصل يهود الدياسبورا (الشتات) إلى تبنى الموقف ذاته، وإذا كانت هذه الطريقة مفيدة لإسرائيل على المدى القصير، إلا أنها خطرة على المدى البعيد، فمن أضرار هذه الطريقة أنها ستجعل من العداء للسامية أمراً شائعاً. فإذا كان كل العالم معاديا للسامية، إذن لا يوجد أحد معاد بشكل خاص. وهى طريقة خطرة أيضاً لأنها تؤيد فكرة قديمة فى معاداة السامية وهى وجود لوبى يهودى. فإذا كان كل يهود العالم وإسرائيل يرون - بصورة موحدة - الأمور ذاتها ،ويفكرون بطريقة مختلفة عن الأغلبية ممن هم ليسوا إسرائيليين ولا يهودا، فإن هذا الأمر يشكل دليلاً كبيراً على وجود لوبى يهودى بالنسبة للمعادين للسامية.

وتتساءل إستير بنباسا Esther Benbaassa بصدد الفظائع التى يتعرض لها أبناء الشعب الفلسطينى، الأمر الذى يجعلها تشعر بأقصى درجات العار فيما يحدث- "كيف نظل كيهود وكأننا لا نرى ولا نسمع عن كل هذا

الذى يحدث؟[١]. ووقع عدد كبير من المثقفين والعلماء الفرنسيين نداءً ينتقد سياسة شارون حتى باسم يهوديتهم[٢]. كما نشرت صحيفة لوموند فى ١٨ سبتمبر (٢٠٠٢) خطابا مفتوحاً إلى المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا ينتقد "الدعوة المتعسفة للذين يرفضون سلاماً عادلاً فى الشرق الأوسط" وقعه عدد كبير من المثقفين والعلماء اليهود وبعضهم من الذين عاصروا فترات النفى الإجبارى. كما نجد العديد من مسئولى جمعيات التضامن مع الفلسطينيين من اليهود. ومنذ سبتمبر (٢٠٠١) نجد تيوكلاين، الرئيس السابق للمجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية بفرنسا والذى يملك جنسية مزدوجة - فرنسية وإسرائيلية - ينتقد ويدين عبر العديد من المقالات أو المقابلات والإصدارات، المأزق الذى يقود إليه شارون دولة إسرائيل. وإذا كانت غالبية الطائفة اليهودية الأمريكية يصطفون كتلة واحدة خلف شارون، فإن الوضع ليس كذلك فى أماكن أخرى. ففى بريطانيا نجد عدداً من الشخصيات اليهودية، عبر نص منشور بصحيفة الجارديان فى ٨ أغسطس (٢٠٠٢)، وقد تخلوا عن حقهم فى المواطنة الإسرائيلية احتجاجاً على سياسة شارون فى الأراضى المحتلة.

وصرح جوناثان ساكس Jonathan Sacks الحاخام الأكبر فى بريطانيا، أن الصراع مع الفلسطينيين "يفسد" الثقافة الإسرائيلية[٣]. وتوضح هذه النماذج شيئين، على نقيض ما يريد أن نعتقد به غلاة الموالين لإسرائيل

١- "بين العار والعاصفة". صحيفة ليبراسيون عدد ١٠/٤/(٢٠٠٢). كما أصدرت إستير بينباسا مع جان كريستوفر أتياس كتاباً بعنوان: هل لا يزال لليهود مستقبل؟ عن دارجان كلود لاتيس ٢٠٠١.

٢- "بوصفى يهوديا" صحيفة لوموند ١٨/ ١٠/(٢٠٠٠).

٣- الحاخام الأكبر فى بريطانيا ينتقد إسرائيل. ليبراسيون فى ٢٨ أغسطس (٢٠٠٢).

والمعادين للسامية فى آن واحد. الشيئ الأول هو انه يمكن انتقاد حكومة إسرائيل بدون أن نكون معادين للسامية، والثانى هو أن الطائفة اليهودية ليس لديها مواقف موحدة فى هذا الشأن.

وفى مقالة بالهيرالدتريبيون الدولى، فى ديسمبر (٢٠٠١) [١]- لم يتم الإشارة إليها فى فرنسا على الرغم من أن أجهزة إعلامها تتهم بانتظام بأنها معادية لإسرائيل - تشير إلى أن رونى كازريكس (Ronnie Kasrics) وماكس أوزنسكى (Max Osinsky) وهما اثنان من يهود جنوب أفريقيا ومن أبطال الكفاح ضد التمييز العنصرى، قد أثارا جدلاً كبيراً بنشرهما فى صحافة بلدهما مقالاً شارك فى التوقيع عليه ٢٢٠ يهودياً من جنوب أفريقيا عنوانه "ليس باسمى"، مؤكدين على حق إسرائيل فى الأمن، لكنهما يحملان فى الوقت ذاته الدولة العبرية، فى هذا الإعلان، مسئولية تفاقم العنف فى الشرق الأوسط، وقارنوا بين المعاملة التى يلقاها الفلسطينيون بتلك التى تعرض لها السود فى جنوب أفريقيا أثناء فترة التمييز العنصرى.

ومن المعروف أن التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا تشكل فى عام ١٩٤٨ ، وهو العام نفسه الذى تأسست فيه دولة إسرائيل. وكان الحزب القومى (فى جنوب أفريقيا) قد صنف اليهود بوصفهم "من البيض" الأمر الذى أبعدهم عن قسوة التمييز العنصرى. وبعد ذلك قامت إسرائيل وجنوب أفريقيا بتطوير العلاقات بينهما، وظلت هذه العلاقات قائمة حتى بعد أن قرر المجتمع الدولى فرض عقوبات ضد النظام العنصرى بجنوب أفريقيا، غير أن هناك من يهود جنوب أفريقيا من تخلى عن أمانه وامتيازاته لكى ينضم إلى المؤتمر القومى الأفريقى ANC.

بالطبع المقارنة بين إسرائيل وجنوب أفريقيا لها حدود. فأسرائيل ليست

١- «إعلان ضد أتباع إسرائيل من يهود جنوب إفريقيا» هيرالدتريبيون الدولى، ٢١ ديسمبر ٢٠٠١.

فى حاجة إلى الفلسطينيين كى تعيش، بينما كان السود ضروريين لجنوب أفريقيا العنصرية. ومن الناحية القانونية نجد أن المواطنين فى إسرائيل يتمتعون بالمساواة، وهو ما لم يكن قائماً فى جنوب أفريقيا العنصرية. وشاء القدر أن يكون مصير الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة، خاصة إذا ما قارناه بمصير المستوطنين، هو مصير مواطنين من الدرجة الثانية، وهو ما تنتقده المنظمات الإسرائيلية لحقوق الإنسان.

لا توجد إذن علاقة مباشرة بين انتقاد إسرائيل والعداء للسامية. فالمرء لا ينتقد إسرائيل فى وجودها، وإنما لما تقوم به.

والحال أنه منذ عامين ونصف لا يحظى ما تقوم به إسرائيل بترحيب متزايد. بالتأكيد يمكن نقد النقد والقول بأن أولئك المعادين لسياسة شارون لا يضعون فى الحسبان كل الاعتبارات، أو ينسون هذا الدليل أو ذاك. غير أن الموقف المتمثل فى إلصاق تهمة العداء للسامية لأى نقد إنما يهدف فى الحقيقة إلى منع أى حوار حول هذه القضايا.

هل يمكن أن نميز بين معاداة السامية (العداء لليهود) ومعاداة الصهيونية (رفض وجود دولة إسرائيل)؟ الإجابة بالنفى كما يقول غلاة الموالين لإسرائيل لأن العداء للصهيونية، كما يرون، هو شكل ناتج عن العداء للسامية.

يمكن أن نرصد تصريحات عديدة سائرة فى الاتجاه ذاته ومؤدية إلى غموض مزدوج: فمن جهة نقد حكومة إسرائيل هو عداء للصهيونية، وأن تكون معادياً للصهيونية يعنى أن تكون معادياً فى الواقع للسامية.

ويرى بيير أندريا تاجييف، وهو أحد المؤلفين الأكثر إسهاباً فى التطرق لهذا الموضوع، أن هناك مواقف دعائية تعتمد على جدالات مغلوطة فى

تسلسها "يهود = صهاينة (إسرائيليين)، صهيونية = كولونيالية وعنصرية، شارون= هتلر، إسرائيليين= نازيين"(١)

بالفعل هناك متطرفون مناصرون للقضية الفلسطينية يقومون بهذا الخلط بين الإسرئيليين والنازيين، أو بين شارون وهتلر، لكن هذا الخلط لا معنى له وينزع الصدقية عن القضية التى يدّعون خدمتها. لكن من الخطأ أيضا التأكيد على أن كل من ينتقدون إسرائيل يمارسون هذا الخلط... فهو قائم، وهو مدان، وهو نتيجة عمل أقلية صغيرة.

فى كتابه المخصص لظاهرة "العداء لليهود"، يقول تاجييف: إن استخدام كلمة "معاد للصهيونية" يتضمن التفافاً وإحلالاً لهذا التعبير بدلاً من آخر هو العداء للسامية، وهو تعبير صريح ومباشر وقد ينزع الصدقية. ففى الساحة العامة للمجتمعات الديمقراطية التعددية منذ (١٩٤٥) لا أحد يقول: معاد للسامية أو معاد لليهود. لكن عدداً متزايداً من الأفراد يصرحون بأنهم "معادون للصهاينة"(٢)

وتاجييف، الذى يستعير مصطلح "كراهية اليهود" من المستشرق الفرنسى مكسيم رودنسون، وهو يهودى أيضا، لا يتبع هذا الأخير فى تمييزه بين العداء للسامية والعداء للصهيونية، والذى أكد على الطابع العبثى للخلط بينهما(٣).

١- "الأشكال الجديدة للعداء للسامية". صحيفة الفيجارو عدد ٨ أكتوبر ٢٠٠٢.

٢- الكراهية الجديدة لليهود دار ألف ليلة وليلة ٢٠٠٢. ص٤٢.

٣- مكسيم رودنسون: شعب يهودى أم مشكلة يهودية. دار ماسبيرو (١٩٨١)، ص ٣١٥ "وهكذا فإن معارضة مشروع سياسى معين، ونقد نتائجه يتم تحويلهما إلى عداء جوهرى تجاه كل الجماعة الأثنية الدينية التى نما فيها". والكتاب تم إعادة نشره فى (١٩٩٧) عن دار لاديكوفرت.

ويمكن فى الواقع قلب المنطق السياسى لتاجييف. من منظور أن العداء للسامية صار هامشياً ومداناً بشدة فى العالم، ولا أحد يصرح بذلك بالفعل بدون أن يتعرض للخزى أو للإدانة الجنائية كما هو الحال فى فرنسا. وفى الوقت ذاته فإن سياسة اسرائيل التى صارت منتقدة أكثر فأكثر فى العالم، ومن أجل تمكين هذه الدولة من الإفلات من النقد، كان من الضرورى إذن مماثلة أى نقد يوجه لسياسة إسرائيل بالعداء للسامية.

ونجد باتريك كلوجمان، وهو رئيس اتحاد الطلاب اليهود بفرنسا، والذى عبرت مواقفه عن اعتدال وانفتاح نحو الحوار، يؤكد مع ذلك على أن "العداء للصهيونية هو الذى يقود فى نهاية المطاف إلى حرق المعابد اليهودية كما حدث منذ عام. ولا يمكن للمرء أن يكون معادياً للصهيونية وأن يكون خاليا تماما من عداء للسامية بشكل ما. على الصعيد النظرى يمكن الفصل بين العداء للسامية والعداء للصهيونية . وأضف إلى ذلك أن إسرائيل تشكل واقعاً ملموساً وقائما. وإنكار حق اليهود فى أن يكون لهم دولة هو فى واقع الأمر إنكار لحقيقة أنهم شعب وأن لهم بالتالى الحق فى استكمال كل مكونات الشعب، بما فى ذلك دولة هذا الشعب. من الصعوبة بمكان إدراك أن العداء للصهيونية منفصل عن العداء للسامية. وأولئك الذين يقفون خلف هذا التخيل ينبغى أن يعرفوا أن الستار فى طريقه للسقوط". (١)

بعض الأشخاص يصرحون علنا بموقفهم المعادى للصهيونية، فضلا عن ذلك، ينتمون إلى الطائفة اليهودية فى فرنسا. ويرون أن اليهود عليهم أن

١- جان بيير اللالى "الأشكال الجديدة للعداء للسامية: تشريح قلق" عن دار Desclee de Brouwer مارس (٢٠٠٢).

يندمجوا، بصـورة فردية، داخل الدول التى يعيشون بهـا، وأنهم ليسوا فى حاجـة إلى دولة خاصة قد تكون بالـضرورة مؤسسـة على العرق والدين. وهؤلاء ينتمـون إلى يسار المشهد السـياسى مثل رونى برومـان، لكن أيضاً نجدهم فى اليمين الليبرالى مثل جى سورمان[1]

فى العالم العربى، هناك من يرفضون ولا يقتصر الأمر فقط على الافراد دائمـا وأبداً وجود دولة إسـرائيل، لأنهـا دولة اليهـود، ويخلطون إذن بين العداء للسامية والعداء للصهيونية. نحن هنا أمام حالة غموض شاملة. فإذا كانت مسلمة "نقد شارون= العداء للصهيونية= العداء للسامية "يتم تكرارها بدون كلل، فإنها لم تبـرهن أبداً على صحتهـا. وإذا كتبت أن بوش أخطأ فى تصعيـد الأحادية القطبية الأمـريكية، وأنها على المدى البعـيد لا تخدم مصـالح الولايات المتحـدة، ولا تخدم المصلحة العـامة فى المدى المبـاشر، وحتى إذا كنت أعرف أن هذه السيـاسة يدعمها غالبـية الشعب الأمريكى، فـإن هذا لا يعنى أننى أتمنى بذلـك، نهاية الـولايات المتـحدة الأمـريكيـة كدولة. وإذا كتبت أن السلطات الروسية أخطأت فى تغليبها الحل العسكرى على أى حل سياسى فى الشـيشان، حتى إذا كان غالبيـة الروس يشجعون هذه السياسة، فأنا لا أعارض الدولة الروسـية بوصفها دولة. واذا كتبت أن القادة الفرنسيين أخطأوا فى توجههم نحو حل المشكلة الجزائرية بالقوة، وأن استقـلال الجزائر كان المخرج الوحيـد الممكن، مهما كـانت الانتقادات التى يمكن أن نوجهها إلى جبهـة التحرير الوطنى الجزائرى، فأنا لا أرغب بذلك فى اختفاء الجـمهورية الفرنسيـة. بل يمكن القول، على النقيض من ذلك، إن فرنسا أصبح لها هامش من المناورة أكـثر على الصعيد الدولى، وحازت

١- أبناء رفـاعــة، دار فـايار، (٢٠٠٣)، فـصـــــل "نهـاية الشـعـب اليـهـودى" ص١٩٧-٣١٨.

مزيدا من الاحترام فى العالـم حين حلت المشكلة الجزائرية. بالنسبة لى أنا مقـتنع بأن دولة إسرائيل هى واقع سيـاسى وتاريخى واجتمـاعى لا جدال فيه. ولها الحق فى الحـياة فى سلام عبر حدود آمنة ومعتـرف بها. وأعتقد أيضا أنه لا يمكن اعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية.

لكن الاعتراف بحق إسرائيل فى الوجود لا يعنى الإعـتراف بحقها بأى شيئ، بل على العكس، من منظور أننى أعتبر أن إسرائيل دولة مثل الدول الأخرى، فإن لهـا الحقوق نفسها لكن أيـضا عليها الواجبات نفـسها. وأن الاعتـراف بالواقع القومـى الإسرائيلى لا يمكن أن يقـوم على قاعـدة عدم الاعتراف بالواقع القومـى الفلسطينى.

ولم تكن إزالة التمييز العنصرى فى جـنوب إفريقيا تعنى البتة إزالة دولة جنوب إفريقـيا، وإنما على العكس سـمح لها ذلك بالاندماج فى المجـتمع الدولى ومنحـها مكـانة لا تضاهى. فـإذا وضعـت إسرائيل اليـوم بمحض إرادتهـا، وهى فى مركـز قـوة ورغم تهديد الإرهاب، نهـاية لاحـتلالهـا للأراضى والاعتراف باستقلال الدولة الفلسطـينية، فإن هذا لا يعنى نهايتها كدولة، بل على العكس تتحقق لها شعبية متميزة على الصعيد الدولى تقوم بتدعيم أمنها أيضا.

بشكل عام: المعادون للسامية هم معادون للصهاينة. بالطبع يمكن للمرء أن يكون معاديـا للسامية ومعـاديا للصهاينة فى الوقت ذاته، لاسـيما لدى اليمين المتطرف بالساحة السياسيـة. وهذا يتمثل فى تفضيل رؤية اليهود فى إسرائيل وليس فى بلد آخـر. لكن هناك معادين للصـهاينة ليسوا مـعادين للسامية بما أنهم أنفسهم من اليـهود، غير أن أغلب الذين ينتقدون إسرائيل ليسوا من هؤلاء ولا أولئك.

هناك عديد من اليهود، ممن لايشك أحد فى إرتباطهم بإسرائيل يؤكدون ذلك. وتبرهن مواقفهم الشجاعة على أن رأى يهود فرنسا ليس موحداً فى هذا الشأن كما يحاول البعض الإيحاء بعكس ذلك سواء من قبل ممثلى مؤسسات الطائفة اليهودية أو من المعادين للسامية أيضا.

وليس من السهل رؤية الإسرائيليين الذين يؤكدون أن شارون قد أخطأ برفضه تسوية مع الفلسطينيين،وهم متهمون بأن ما يحركهم هو العداء للسامية.

وتيوكلاين هو بالتأكيد الوجه الرمزى لهذا التيار. وكما يشدد هو ذاته:

"ليس لأننا علـى إختلاف مع هذا الموقف أو ذاك ليهودى أو للدولة اليهودية نكون معادين للسامية! للمرء الحق فى نقد إسرائيل. ويصدمنى هذا الانغلاق على الهوية الذى يجسده هذا الخوف من العداء للسامية". (١)

١-الفيجارو عدد ٣ ديسمبر (٢٠٠١). وقد عاد الرئيس السابق للمجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية بفرنسا مرات عديدة إلى هذه القضية: اعتبر أن (المعادى للصهيونية) هو كل شخص يرفض فكرة دولة يهودية على تلك الأرض التى كانت تسمى أثناء الوجود البريطانى فلسطين، أرض إسرائيل. ويبدو لى هذا الأمر معارضة ايدولوجية. وبالقدر نفسه الذى يمكن للمرء أن يكون لا ماركسيا يمكن له أن يكون لا صهيونيا".

" واعتبر أن اللاسامى هو شخص يرفض من حيث المبدأ إعطاء اليهود الحقوق ذاتها والاحترام ذاته الذى يمنح للآخرين، أو هو شخص يعتبر أن اليهودى لا يمكن أن يكون، على سبيل المثال، هو المواطن الحقيقى لدولة كفرنسا، أو على الأقل لا يمكنه ممارسة كافة الحقوق التى تمنحها له وضعيته كمواطن. حكومة فيشى كانت لاسامية. ولاساميتها ترجمت بشكل واضح فى إقرارها وضعية خاصة باليهود وليس لى أن اعتبر شخصا لا يشاركنى وجهات نظرى لاساميا بشرط أن يعبر عن وجهات نظره بصورة لائقة. فحوار الأفكار هو حوار مفتوح. لكن على العكس إذا انتقد شخص ما أقوم به وما اعتقد به لأسباب مرتبطة بما أكونه، بوجودى كيهودى، آنذاك هناك فى معارضته شيئ ما يمكن أن نعتبره لاسامية". المجلة الدولية والاستراتيجية عدد ٤٧ خريف (٢٠٠٢). ويسير فى الاتجاه ذاته قائد الاوركستراالشهير دانيل بارين باوم: "كثير من الناس يعتقدون أن انتقاد شارون يعنى اللاسامية. هذا الكلام لاصلة له بالحقيقة" "أنا لا أفهم شارون". الفيجارو عدد ٩ أبريل (٢٠٠٢).

لا أعتقد بوجود لوبى يهودى. هذا التعبير يشكل أحد المحرمات لسبب بسيط هو أنه قد استخدم من قبل المعادين للسامية بدون روية. فهو يتضمن فكرة جماعة منظمة تتحكم فى الإعلام والمال والسلطة لخدمة مصالحها الطائفية فقط. وهذه الفكرة ليست فقط شائنة بل زائفة أيضاً.

لا يوجد لوبى يهودى، لأن الطائفة اليهودية الفرنسية متنوعة سياسيا واجتماعيا وثقافياً واقتصاديا، الخ. وحتى بالنسبة للصراع الإسرائيلى الفلسطينى فإن مواقفها على درجة كبيرة من التنوع والاختلاف.

وهناك يهود غير صهيونيين ، سواء لأنهم متدينون جداً أو لأنهم علمانيون جداً. بالنسبة للمجموعة الأولى تبدو لهم دولة إسرائيل مناقضة لمملكة الله. وبالنسبة للمجموعة الثانية فإن الدولة اليهودية كما هى تمثل نوعاً من الضلال. وهناك صهاينة يرون أن العدالة ومصلحة إسرائيل تلتقيان على الأمد البعيد، ولا يتعارضان مع الاعتراف بإنشاء دولة فلسطينية. غير أن طرق الوصول إليها ليست واحدة بالنسبة للجميع. البعض يرى أن حلاً عسكرياً ينبغى أن يفضى إلى حل سياسى. وآخرون يرون أن اللجوء إلى الوسائل العسكرية يحول دون ظهور حل سياسى. وبين هذين الرأيين هناك كافة التنويعات الممكنة. وآخرون يرون، فى النهاية، أن الفلسطينيين لديهم دولة فعلاً هى الأردن. ويرى البعض أن طرد الفلسطينيين نحو هذه الدولة سيحل المشكلة. بينما يرى البعض الآخر أن الفلسطينيين، ببساطة، ليس لهم أى حق.

تبدو الطائفة اليهودية فى فرنسا مثل كل الطوائف موحدة وكتلة واحدة إذا نظرنا إليها من بعيد، وإذا لم نعرفها جيداً، أو عرفناها قليلاً. وكلما اقتربنا منها أكثر ظهرت الاختلافات على سطحها، لكن أليس الامر ذاته

لدى الكاثوليك، والمسلمين، والماسونيين، والمعلمين، والزراعيين، والعسكريين، والشواذ جنسيا الخ.؟

إذن لا يوجد لوبى يهودى، حتى إذا كان علينا أن نستخدم هذا التعبير دون أن يثير مشكلة أكبر من تلك التى تحدث عندما نتحدث عن لوبى زراعى، كاثوليكى، ماسونى، بروتستانتى، تعليمى، عربى، عسكرى، الخ. فسهولة استخدام التعبير تجعله ينتشر على حساب الواقع الأكثر تعقيداً، وبالفعل يستخدم مصطلح لوبى، فى العادة ، بصورة سلبية من قبل خصوم طائفة ما. بينما نجد مفهوم اللوبى فى الولايات المتحدة من الأمور الشائعة بل وأكثر من ذلك من الأمور المطالب بها. وليس هذا هو السائد فى فرنسا. وإذا لم يكن هناك لوبى يهودى فهناك بالمقابل "لوبى" موال لإسرائيل. ويشمل بالطبع يهوداً لكن يشمل أيضا غيرهم.

وهكذا نجد، فى هذا الإطار، اقتراحاً من ثمانين برلمانيا لإنشاء لجنة تحقيق حول استخدام القروض الممنوحة من فرنسا بموجب التعاون الدولى الأوروبى إلى السلطة الفلسطينية[1]. وفقاً لهؤلاء فإن المساعدة يتم تحويلها لصالح النساء والإرهاب والتعليم الذى يزرع الحقد. وطالب خمسة عشر من البرلمانيين، فى مقال نشرته جريدة الفيجارو[2]، بـ إطلاق تحرك عام لدى الجهات القضائية ضد الأشخاص والجمعيات التى تنادى بمقاطعة البضائع الإسرائيلية. لقد تضامنوا بصورة تامة مع حكومة شارون.

هناك فى هذا اللوبى الأكثر موالاة لإسرائيل فرنسيون من غير اليهود يؤكدون على تضامنهم مع إسرائيل لأسباب متعددة، يقومون بذلك كرد

١- مضبطة رئاسة البرلمان الفرنسى فى ٢ أكتوبر (٢٠٠٢)، المادة ٢٤٠ للسيد كلود جواسجون

٢- "مقاطعة فاضحة". الفيجارو ١ نوفمبر (٢٠٠٢).

فعل على الإبادة النازية، وكإعجاب ببلد صغير بدأ من لا شئ، كان لروح الريادة أثر كبير فى نجاحه، أو لأنهم معجبون بالديمقراطية الإسرائيلية وبنمط الحياة الإسرائيلية حيث أقاموا هناك فترة من الزمن، أو لأنهم مع دولة صغيرة ديمقراطية فى مواجهة أنظمة عربية تسلطية، الخ.

يؤكدون أيضا على هذا التضامن مع إسرائيل لأنهم ارتبطوا بعلاقات عائلية، لاسيما الزواج من يهود، وبعض هؤلاء لديهم، إضافة إلى ذلك، ميل للدفاع عن إسرائيل بأى ثمن. وآخرون يتضامنون لأسباب أقل نبلاً، لأنهم لا يحبون العرب، وتبدو لهم إسرائيل بوصفها الدولة الوحيدة التى لا تتردد فى النيل من العرب. والبعض الآخر يتضامن مع إسرائيل من قبيل الحذر، لأنهم يرون أن نقد إسرائيل سيدفع بإناس حازمين للوقوف ضدهم. كما نجد فى أقصى المشهد بعض الفرنسيين من غير اليهود ينتمون إلى اللوبى الأكثر ولاءً لإسرائيل وهم فى الوقت ذاته من المعادين للسامية، جامعين بذلك بين النذالة والعار (والحال أن الصفتين تسيران فى العادة معا) فهم يعتقدون أن اليهود على درجة كبيرة من القوة (ويشكلون لوبى موحداً) وبالتالى فمن الأفضل الوقوف إلى جانبهم.

من الذى يمكن أن يندهش أو يصطدم بواقع أن يهود فرنسا لديهم علاقة خاصة بإسرائيل؟ فضلا عن أن الفرنسيين ليسوا وحدهم الذين يملكون شعوراً ذا طابع خاص إزاء هذا البلد. لكن المشكلة هى أن البعض القليل منهم يسبق تضامنه مع إسرائيل أى اعتبارات أخرى مهما كانت الظروف. لأنهم يعتقدون أن إسرائيل فى نهاية المطاف تظل الملاذ الوحيد لليهود فى العالم كله فى حالة تجدد العداء للسامية. ولأنهم يعتبرون أن إسرائيل معزولة ومهددة وتستحق إذن التضامن معها تضامنا لا يقبل النقاش، لأنهم ليسوا فى المكان ذاته على الجبهة الشرق الأوسطية. فبعضهم يشعر بذنب

لأنهم لا يعيشون فى إسرائيل، فيحولون دون أى نقد يوجه إليهـا ويعبئون أنفسهـم لجلد كل من تسول له نفسه القـيام بهذا النقد. وهذا يدفـعهم إلى مسـاندة غير مـشروطة مهـما كان مـا تفعله الحكومـة الإسرائيلية. فـالنقد سيكون خيانة.

ستتشكل إذن جـماعة غلاة الموالين لإسرائيل، والتى ستـجعل من المساندة العمياء لإسرائيل منهجها ونقطة الاحتكام الرئيسية فى تحديد عملها وأحكامها.

وسيذهبون، فى دعمـهم، إلى أبعد من واقع أنهم "لا يمكنهم الوصول إلى الموضوعـية الكاملة" التى تحدث عـنها ريمون آرون عندما يتـعلق الامر بإسرائيل، وسـيفضلون تضـامناً طائفياً يسـبق أى شئ آخر. وسيد عـمون الحكومة الإسـرائيلية فى كل المناسـبات، ويجدون لهـا كل الأعذار الممكنة مقدماً، ولا يلتمسـون أى شيئ من هذه الأعذار لأولئك الذين يعارضونها. وسيقبلون بأحداث يدينونها إذا ارتكبها آخرون غير الحكومة الإسرائيلية[1]. وعندما تبتعد ممارسات الحكومة الإسرائـيلية عن احترام المبادئ الإنسانية نجد تشنجـهم الطائفى يقودهم ليس إلى نـقد هذه الممـارسات وإنما إلى تحـميل مسـئوليـة تدهور الأوضاع إلى الفلسطينيـين وحدهم. لقد رأينـا على مدار الثلاث سنوات الماضية مثقفين وخبراء وصحفيين كانت لهم علاقة حذرة مع الشرق الأوسط، ثم إذا بهم يسقطون فى الطائفية الأكثـر اهتياجاً ويدافعون عن فرضيات جذرية لصالح حكومة إسرائيل، وهم الذين كانوا من الأوائل فى رفضها حتى وقت ليس ببعيد. لديهم الحق تماماً فى الدفاع عن وجهات نظرهم فى إطار مناقشات ديمقراطية.

١- مكسيم ردونسون قد أدان من قبل فـى (١٩٨١) "أولئك الذين يبدون أكبر قدر من التسامـح إزاء الممارسات الإسرائيلية، فى الـوقت الذى تثير استيـاءهم الشديد لدى حدوثها من قبل آخرين، مرجع سبق ذكره ص٣٠٥.

بالطبع ليس ممنوعاً أن يكون الإنسان مع سياسة شارون. لكن من غير المقبول أيضا أن يتهموا من لا يشاركونهم وجهات نظرهم بأنهم معادون للسامية. لماذا لا يقبلون أن يكون للمرء الحق فى نقد حكومة دولة إسرائيل ليس فيما يشكل هويتها وإنما لما تفعله؟ ولماذا لا يقبلون أن يكون للمرء الحق فى أن يؤيدها- إذا كنا من المناصرين للسلام- عندما تسير فى عملية أوسلو، ونقدها عندما تجعل السكان الفلسطنيين مسئولين بصورة جماعية وتعاقبهم بالتالى على أعمال إرهابية لبعض المتطرفين؟

أن يدعم الإنسان دولة ما، لا يعنى بالضرورة أن يعطيها الحق فى كل الظروف، بل يمكن النظر حتى إلى النقد على أنه يندرج ضمن واجب الولاء.

ومع تدهور الوضع بين الإسرائيليين والفلسطينيين منذ خريف (٢٠٠٢)، صارت العلاقات مع إسرائيل أكثر حساسية أيضا عما كانت عليه من قبل. وبينما كان النقد الموجه للحكومة الإسرائيلية يتصاعد كنتيجة مباشرة لتزايد القمع الإسرائيلى،[١] كان غلاة الموالين لإسرائيل يرون ذلك نتيجة تصاعد العداء للسامية.

هناك مثقفون مناصرون للسلام، ومؤيدون لإنشاء دولة فلسطينية إلى

١- حول مسألةحقوق الإنسان فى الأراضى الفلسطينية، انظر: إسرائيل، فلسطين، الكتاب الأسود. محققون بلا حدود. لاديكوفرت (٢٠٠٢)

انظر المواقع التالية على الأنترنت:

Silte de B'Tselem.The Israeli Information Centre for Human on Right in the occupied Territoires:WWW.B.Tselem. org.

العساكر الإسرائيلين الرافضين للخدمة فى الأراضى المحتلة:

http:/WWW.Seruv.org.il/defaulteng. asp.

وموقع حركة "السلام الآن".

http"/WWW Peac enow.Org.il/Engligh.asp.WWW.Peacenow.org.

جانب إسرائيل عن إقتناع أخلاقى واختيار عقلانى فى الوقت ذاته، وإذا كانوا قد ظلوا دائما مؤيدين نظريا لهذا الحل، إلا أنهم يأخذون، مع ذلك، مواقف لا تتوافق مع هذا الهدف إلا قليلا.

فهم لا يرفضون فقط توجيه أدنى نقد تجاه شارون، بل يأخذون أيضا مواقف فى المناقشات لا تختلف فى شئ عن مواقف المتشددين من الليكود، ولا يترددون فى أبلسة معارضيهم. وتزايدت المواقف المتطرفة منذ عام (٢٠٠٠)، ومن كانوا من المعتدلين صاروا من المتطرفين ومن كانوا من المتطرفين صاروا أكثر تطرفا[١].

وكما يؤكد، على ذلك، إيلى بارنافى: "لا، إذا كنت قلقا، فذلك لأننى أدركت مدى الانحراف الأصولى الذى يهدد طائفتك". [٢]

والنموذج الواضح لذلك هو ألان فينكلكروت، وهو فيلسوف زائع الصيت فى أجهزة الإعلام ولدى عامة الناس. ففى عام (١٩٩٩) كان قلقا من عودة العنف: "العنف اللفظى، العنف المادى، الانحسار فى اختيارات السلوك المتاحة إلى بدائل صديق/ عدو، وبالمقابل إلى يهودى/ خائن."

وكان يشعر بالسرور لأن العداء للسامية قد عرف "أفولاً ملحوظاً"... غير أن كل شئ كان يسير كما لو أن "الشوا" تحتل اليوم كل ساحة الذاكرة اليهودية، الأمر الذى يفضى إلى شعور بالقلق والعزلة. [٣]

١- هكذا صرح الكسى موشيه ممثل ليكود فرنسا "اليوم نجد الخطاب السائد فى UEJF,BCBG مشابها لماكنا نقوله منذ عشر سنوات. صحيفة لوموند ١٣ يناير (٢٠٠٣).

٢- إيلى بارنافى، خطاب مفتوح إلى يهود فرنسا، دار Stock-Bayard ، ٢٠٠٢، ص٣٥-٣٦.

٣- مجلة L'Evenement، عدد ١٨-٢٤ فبراير (١٩٩٩).

وكتب أيضا، فى ٢ نوفمبر (٢٠٠٠): لا يتـعلق الامر بحماية إسرائيل من النقد بل يابعاد النقد الموجه لإسرائيل عن الطيش واللاسامية.»[1] وهو ذاته فينكلكروت، الذى مارس بعد ذلك خلطا بين الشباب الذين نزلوا إلى إستـاد فرنسـا أثناء مبـاراة فرنسا والجـزائر، وبين كل الفرنسـيين من أصل جزائرى المقـيمين فى فـرنسا، وهو أيضـاً الذى لم يجد فى كـتاب أوريانا فالاتشى[2] سوى عيوب شكلية، وهو ذاته الذى سيذهب إلى الشهادة ضد دانيل ميرميه[3] فى القضية المرفوعة ضده بتهمة العداء للسامية.(٤)

١- كان يشكو من وسائل الإعلام التى تكرس مساحة للضحايا الفلسطينيين أكبر من المساحـة المكرسة للضحايـا الإسرائيليين لأنهم كانوا أكـثر عدداً، وكان يعـترف بالطابع الكابوسى الذى تمثله المستوطنات كمصـدر لإذلال الفلسطينيين. ووفقاله فإن الفلسطينيين بالنسبة للمستوطن «لا وزن لهم، وستظل فى ذاكرتى لفترة طويلة صورة حديثة ليهودى متدين كان يجوب الشوارع المهجـورة لمدينة ممنوعة على العربى أثناء حظر تجول شامل. لا شيئ يجسد خطأ إسرائيل أكثر من هذا . . .»

٢- انظر الفصل السابع.

٣- انظر الفصل الثانى.

٤- ومع ذلك فإن هذا الفلـيسوف قد دافـع بشجاعـة، قبل عامين، عن رينوكـامو الذى تعرض لسـخرية بسـبب أقوالاً نارية الطابع فـيما يتـعلق ببرنامج بانورامـا بإذاعة فرانس كولتور. «أخـيراً جاء رينوكامو. والساهرون الذين يجوبون بيأس صـحراء التتار سيكافئون بعد طول انتظار. فالعدو حى وقائم. والشر سيوقف من جديد كآبة الأيام.» الان فينكلكروت. صـحيفـة لوموند، عدد ٢٠ يونيـة (٢٠٠٠). ويرى فينكلكرون أنه بالنسبـة لعدد من الفرنسـيين الذين كانت أسرهم مـعادية للسامـية لم يعد هناك مـجال للسجال فى خطأ الأجداد. وكذلك بالنسبة لـعدد من اليهود الذين لم يلحقهم أى ضرر لـــذلك سنحت لهـم الفـرصـة لـكى يعيشوا أحـاسيس الملاحقـة.» مقـتبس من les maîtres censeurs اليزابيث ليفى ص٣٠٨.

بيد أنه يصرح فى (٢٠٠٢): "يطلبون منى أن أكـون يهوديا جيداً. إذن علىّ أن أكون فلسطينيا، وداعما ليـاسر عرفات بدون شروط، وإذا أظهرت ذلك أنقذت نفسى. أما إذا أبديت تحفظاً فسأكون يهودياً سيئاً، ومتواطئاً مع شارون. إذن نازى". [1] أليس هذا منطقاً متسرعاً إلى حد ما.

يسير فى الاتجـاه ذاته جاك تارينو الذى يقدم نفسه كبـاحث غير أنه فى الحـقيـقة ملتـزم التزامـاً مهـووساً بالدفـاع عن إسرائيل كـمصـدر وحيـد لتجربته: "منذ أكثر من عام وإسرائيل، مهما تفعل، تتعرض لتشهير الأمم. هناك نوع من التهليل الاعلامى يسعى لإضفاء الطابع النازى على إسرائيل، وجعلهـا مذنبة بطبيـعتها دون أن يريد أحـد أن يأخذ بعين الاعتبـار مغزى القنابل البشرية." [2]

والحال أن أغلب أولئك الذين يفضلون الحل السلمى فى الشرق الأوسط يدينون العمليـات الانتحارية، وفى الوقت ذاته يدينون القـمع الإسرائيلى. لكن غلاة الموالـين لإسرائيل لا يفعلون سـوى إدانة الفلسطينيين والتـغاضى عن الإسرائيليين. أضف إلى ذلك أن يهـود فرنسا الذين أخذوا موقـفاً ضد شـارون تعرضـوا للإهانات من قـبل اللوبى المـــوالى لإسـرائيل. ويتم إتهـامـهم بصـورة منتظمـة بأن مـا يحـــركهم الحــقـد على الذات "أو الرغبـــة فى إرضاء أعداء إسرائيل، والرغبـــة فى الظهور عبر إستراتيجية

١- النوفيل أوبسرفاتور عدد ٤-١٠ إبريل (٢٠٠٢).

٢- "أى متـعة فى إضـفاء الطابع النازى عـلى إسرائيل"؟ ليـبراسيـون ١٣-١٤ إبريل (٢٠٠٢).

فـردية ،أو بدافع تجـارى والظهـــور بمظهـر اليـهـــودى الذى ينتـقـــد إســــرائيل.[1]

ولـم يتردد الرئـيس الحالى للمجلس التـمثـيلى للمنظمات اليـهودية فى فرنسا روجيه كوكيرمـان فى الرد على ايال سيفان، وهو سينمائى إسرائيلى كان يعيب على كوكيرمان أنه يلعب لعبة شارون بإشعاله خوف يهود فرنسا حـتى يهـاجـروا إلى إسـرائيل فـكان رد كـوكـيـرمـان عليـه: "أنت من حمـاس."[2] فهل من الطبيعى لمؤسسـة تزعم أنها تتحدث باسم كل يهود فرنسا أن تمارس مـثل هذا الخلط؟ وما جدوى الأمر إذا كـان أحد لا يجرؤ على أن يوجه له لوماً.

وعندما قام مـوقع متطرف (على الانترنت) بنشـر قائمة بأسمـاء اليهود

١- إنظر تاجـيـيف ص٤٢ مـرجع سبـق ذكره "وهناك أفـراد من أصـول يهـودية يشاركون فى تشكيل وإشـاعة كراهية اليهـود الجديدة، لأسباب متعـددة ووفق معدلات متباينة (الحـقد على الذات، نزعة شكلية، نزعة لا شكليةو الصدق فى إخـتيارات تعود للرحمة والشفقة، كراهية إنتقائية للأجانب (على سبيل المثال الموالين للفلسطينيين بصورة مطلقة) لأهداف فردية، التزام ثورى، نذالة، سخف وضعف العقل، الخ".

وبهذه الطريقة نجـدهم يقرأون ماكتبة بـيير فيدال ناكيـه وروني برومان، وحتى أناس كانوا عمليا غير معروفين قبل ذلك أمثال أيال سيفان وميشيل مانسو الخ. فإذا كان هناك من اليهـود من يقول ذلك، وإذا كان هناك من الإسرائـيليين من يدينون ذلك، فإن هذا الأمر لا يمكن إلا أن يكون صحيـحاً ! بالتأكيد إن هذا لشرف كبيـر للشعب اليهودى أن يحمل فى جنباته تنوعاً فى الفكر وحـرية الكلام. وانه بعيد عن ممارسة الرقابة على أى شخص، حتى لو كان هناك بعض "المحللين" الذين يتحلون بعـبقرية فى مجال عملهم أكثر من تحليلهم للصـراع الإسرائيلى الفلسطينى (وهذه القضية تستـحق معالجة أطول لا تتحمل المساحة هنا الإشارة إليها) مرصد العالم اليهودى، ص ٤٠.

٢- صحيفة ليبراسيون عدد ٨ إبريل (٢٠٠٢).

الذين وقعوا على نداء من أجل السلام فى الشرق الأوسط، لاصقا بهم نجمة داود، وواصفا إياهم بأنهم خونة[1]، وداعيا إلى تكميم أفواههم، كانت الادانة بالطبع بالإجماع. غير أن المتحدث الرسمى باسم ليكود فرنسا يرى أنه من المفيد القول: نحن نشكو أيضا أنه من بين الشخصيات اليهودية المشار إليها فى القائمة من لم يكتشف يهوديته إلا فى لحظة نقد إسرائيل[2]. إنه التناقض المرعب لممثلى المؤسسات والمثقفين العضويين للطائفة اليهودية! فمن جهة يرفضون (عن حق) أن يرى المرء الطائفة اليهودية كأنها كتلة واحدة متناغمة، ومن جهة أخرى يرمون بالشبهات اليهود الذين ينتقدون شارون.

ولا يميل أوليفيه جولان، رئيس تحرير "المنبر اليهودى" نصف الشهرية، إلى إحدى المجموعتين المكونتين للطائفة اليهودية. فالذين يدعمون إسرائيل بصورة مطلقة يعبرون عن "موقف، بالنسبة له، غير ناضج ويتسم بتمجيد يتنافى مع التراث اليهودى". إنهم يشكلون، كما يرى، "مجموعة صغيرة طابعها النضالى حاضر بصورة نشطة، ويجعلها تحتل ساحة الطائفة والإيهام بأنها ممثلة لها. وهناك أيضا أولئك الذين لا يهتمون بهويتهم اليهودية ويرفضون أن يطلق البعض باسمهم نداءات عمياء للتضامن السياسى فى الوقت الذى يرون فيه أن سياسة شارون إجرامية. ويستخدمون، كما يرى، كذريعة، مهما كان صدقهم، فى أيدى المعادين للسامية. ونظراً للأزمة الكبيرة التى تسيطر عليهم، ونظراً للاعتداءات اللاسامية فى فرنسا، ونظراً للحجم الهائل من النقد الذى يستهدف إسرائيل، فإن الغالبية الشاسعة من

١- انظر صحيفة لوموند عدد ٢٣ أغسطس (٢٠٠٢).
٢- صحيفة لوموند ٢٨ أغسطس (٢٠٠٢).

اليهود تعانى من قلق عميق: أغلبية صامتة للأسف لا تجد نفسها فى المجموعة الأولى ولا فى المجموعة الثانية.[1]

لا يمكن للمرء إلا أن يوافق على هذا التحليل. فمسألة معرفة من يمثل يهود فرنسا تشكل صعوبة كبرى، والتنوع على مستوى القاعدة يوجد بصورة أقل على مستوى القمة. كما أن الذين يتحدثون باسم الطائفة لا يعطون الانطباع بالتنوع، وإنما بتعبير يميل بدرجة أكبر إلى ما هو موحد، كما لاحظ ذلك اثنان من المثقفين اليهود هما جان كريستون أتياس وأستير بنباسا. " ما هو مدى تمثيلية المؤسسات (اليهودية) إذا نظرنا بعين فاحصة؟ من بين ثلاثمائة ألف يهودى بباريس والمنطقة الباريسية هناك ستة الآف فقط هم الذين صوتوا فى انتخابات المجمع المركزى الدينى. أما فيما يتعلق بالمجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فهو تجمع لأربعة وستين اتحاداً وجمعية يهودية، لكن من المستحيل الحصول على مزيد من المعلومات حول الإحصائيات. "[2] وتؤكد سيلفى برابان ودومنيك فيدال، من جانبهما، أن من بين سبعمائة ألف فرنسى ينتمون إلى عقيدة ذات أصول أو ممارسات يهودية هناك مائة ألف يقيمون علاقات مع المجمع المركزى الدينى أو مع إحدى الجمعيات المتجمعة داخل المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية: "وعندما يتخذ روجيه كوكيرمان، رئيس هذا المجلس، موقفاً، فإنه يلزم على أقصى تقدير يهودياً فرنسيا من كل سبعة"[3].

١- أوليفيه جولان : "يهود فرنسا، فلنتفق" صحيفة لوموند عدد ١١ إبريل (٢٠٠٢).

٢- جان كريستوف أتياس، استير بنباسا: "لسنا ضحايا" صحيفة لوموند عدد ١٨ ديسمبر (٢٠٠١).

٣- "يهود فرنسا يبحثون عن هوية" صحيفة لوموند ديبلوماتيك عدد أغسطس (٢٠٠١).

وقد يقول رؤساء المجلس التمثيلى أنه ليس هناك تمثيل بديل. وهو أمر قد لا يخالف الواقع، وأنه فى نهاية المطاف نجد نموذج الرئيس الامريكى الذى انتخب بنسبة ضعيفة جداً من مواطنيه نظراً لامتناع عدد كبير عن الانتخاب، ومع ذلك فهو يمثلهم جميعاً بدون إحتجاج يُذكر.

لكن ما يطرح مشكلة هو أن البعض يريد، فى العلاقة مع إسرائيل، ألا يتم الحديث إلا بصوت واحد، وفى تناقض مع تنوع الطائفة الفعلى.

بالطبع هناك العديد من اليهود الفرنسيين الذين يحتجون باستمرار ضد تحايل بعض ممثلى الطائفة والحديث باسمهم، وأخذ مواقف لا يتفقون معها. وكثير منهم عبروا بصورة جماعية "بوصفهم يهوداً" لكى ينتقدوا السياسة التى ينتهجها شارون.(١)

١-كتب إيلى آرى، من الموقعين على النداء "بوصفنا يهوداً"، فى خطاب موجه لى وسمح لى أن أستعيده هنا : "منذ أن أنشأ نابليون المجمع الإسرائيلى، متجاوزا بذلك الروح الجمهورية والعلمانية لأصول الجمهورية، اعتاد الفرنسيون الحديث عن يهود المؤسسات الذين يتحدثون باسم كل يهود فرنسا. الذين أسموهم بصورة غير دقيقة بـ الطائفة اليهودية لفرنسا، ومنذ نشأة دولة إسرائيل يطلبون دعم سياستها بدون أى تردد. ويجهلون أن الغالبية العظمى من يهود فرنسا لا يجدون أنفسهم مطلقا فى هذه المواقف.

وحول أسباب مثل هذا التماهى لبعض الفرنسيين اليهود مع دولة إسرائيل، فالمؤرخ، ولست بمؤرخ، لا يمكنه إلا ان يضع فرضية أن مبدأ العلمانية لدى يهود فرنسا هو حديث ولا يتجاوز قرنين. وكان من الممكن بدون شك أن يكون أكثر تقدما لولا ظهور عاملين خارجين أوقفا مؤقتا مسيرة هذا المبدأ، وهما من جهة الفترة المرعبة لحكم فيشى، والتى لم يكن ممكنا أبداً أن تحدث بدون احتلال المانيا النازية لفرنسا، ومن جهة أخرى حدوث موجه هجرة اليهود القادمين من بلاد المغرب العربى بعد فترة الاستقلال، وهى بلاد كان يحكمها النمط الطائفى (أعنى مرسوم كريمو) أى جاءوا من بلاد يحكمها النموذج القديم للمجتمعات التى لا يعرف الفرد بداخلها إلا عبر إنتمائه الدينى بالإضافة إلى جنسيته ومهنته وأفكاره الخاصة . وهو النموذج الذى وضعت روح عصر التنوير نهاية له فى فرنسا".

هكذا نجد نداءً منشوراً فى أكتوبر (٢٠٠٠) من قبل عديد من يهود فرنسا "بوصفهم يهوداً مؤكدين أنه ليس من عادتهم أن يعبروا عن أنفسهم "بوصفنا يهوداً". وأنهم إذا كانوا يفعلون ذلك اليوم، فلأنهم يرفضون أن يدعى قادة إسرائيل "حق الحديث باسمنا رغماً عنا. وهذا الابتزاز باستخدام ورقة التضامن الطائفى يعطى شرعية لسياسة التحالف المقدس بين الحكام" ومع إقرارهم أن " تفاقم أعمال العنف تصاحبه أعمال لا يمكن قبولها من الطرفين " فإنهم يرون أن " المسئوليات السياسية لا يمكن أيضا أن تحمل بالتساوى على الأطراف المعنيه، وأن إسرائيل تتحمل المسئولية الرئيسية (...) ليس حقا كيهود بل لأننا كيهود نعارض هذا المنطق الانتحارى للهويات المفزوعة. نحن نرفض هذا المسار القاتل لإضفاء الطابع الاثنى على الصراع وتحويله إلى حرب أديان. نحن نرفض أن نكون ملتصقين بحائط الانتماء الطائفى."[١]

توضح هذه النماذج أنه من الممكن نقد إسرائيل طالما توجد شخصيات عديدة، بما فيها يهود فرنسا، تمارس هذا النقد.

يمكن إذن لإيلى بارنافى أن يصرح: "فى كل مرة نرد على إهانة، نواجه بوجوه مندهشة ويدها على قلبها ولسان حالها يقول هل توجيه النقد إلى إسرائيل ممنوع؟[٢] لا أيها السادة الفريسيين ليس ممنوعاً نقد إسرائيل[٣]". لكن من هو الفريسى هنا؟ أليس من الأمور غير الدقيقة أن يتحدث بارنافى عن رد على إهانة وليس على إنتقادات، هل يكون كل نقد لحكومة شارون إهانة؟

١- صحيفة لوموند عدد ١٨ أكتوبر (٢٠٠٠).

٢- يستشهد بمقالتى المنشورة فى صحيفة لوموند عدد ٣٠ أغسطس " هل توجيه النقد إلى إسرائيل ممنوع؟ ".

٣- إيلى بارنافى ولوك روزين فاج، فرنسا وإسرائيل دار Perrin (٢٠٠٢) ص٨٠.

وعندما نـعرف مدى إجـراءات العقـاب التى يتعرض لهـا أولئك الذين تجرأوا على نقـد إسرائيل - ولا اعتـقد أن إيلى بارنافى يجـهلها - سندرك جيداً أن قضيـة معرفة ما إذا كان يمكن للمرء أن ينتـقد إسرائيل، ليست فى الواقع مسألة نظرية صرفة.

يقول روجيه كوكيرمان فى هذا الشأن" : نحن لا نعترض على حق أحد - سواء عن صواب أو خطأ - فى نقد سياسـة القادة الإسرائيليين، بما فيهم آرييل شـارون[١] "ويتابع: "لكن من ينتقد إسـرائيل عليه بدوره أن يتحمل النقـد المضـاد." غيـر أن "غـلاة الموالين لإسرائيل" لا يـقبلون - سـوى إستـثناءات قليلة - الحوار الذى يتسم بالعلنيـة والاختلاف. ويتحـول النقد المضاد بسـرعة إلى إهانة وتهديد والمطالبـة بتوقيع عـقوبات على ذلك الذى ينتقد شارون كـثيراً. وستمارس ضغوط علي المحـيطين به بالتركيز على أن "الطائفة اليهودية قد اعتدى عليها" بهذا القول أو ذاك. وسيطلب إبعاد هذا المنتقد وإنهاء التعامل معه، ناهيك عن التهديدات الشخصية التى يتلقاها فى منزله. وواقع الأمر إذن إنه من الحـقيقى أنه يمكن للمرء نقـد إسرائيل لكن هذا النقد محـفوف بالمخاطر والمجازفـات سواء على الصعيـد الشخصى أو المهنى.

ويصير الحوار أكثر التواءً وصعوبة، وستوضع أجهزة الإعلام التى تغطى الوضع فى الشرق الأوسط، موضع اتهام أيضاً.

١- صحيفة الفيجارو "اليهود، هل هم منقسمون؟" عدد ٨ أكتوبر (٢٠٠٢).

الفصل الثانى

محاكمة الإعلام

مكافحة العنصرية والعداء للسامية، همـا هدفان لا يمكن لأحد إلا أن يؤيدهما . بالمقابل يمكن للمرء أن يـظهر تحفظاً إزاء شكل من أشكال تحويل هذه المعركة إلى أداه فى عـملية توظيف سياسى . فالبـعض يرى أن أجهزة الإعـلام التى تتنـاول الوضع فى الشـرق الأوسط تصب الزيـت على النار وأنها فى النهـاية مسئـولة عن الإعتداءات المعـادية للساميـة التى تحدث فى فرنسا. ويمكن لنا أن نرى إلى أين يقود مثل هذا التفكير. هل من أجل أن نمنع حـرق المعابد اليـهودية فى فرنسـا علينا ألا نتـحدث عن القـتلى فى الأراضى المحتلة؟

وهؤلاء أنفسـهم الذين يتهمـون أجهزة الإعـلام الفرنسيـة بأنها تمارس تعتيماً على الإعتداءات اللاسامية فى فرنسا [١] هم أنفسهم الذين يريدون فرض هذا التعتيم حول الوضع فى الشرق الأوسط.

ومع تدهـور الوضع فى الشـــرق الأوسط، وانـطلاقـــاً من خـــريف (٢٠٠٢)، ستتصاعد حدة النقاش فى فرنسا.

يشدد بيير-اندريا تاجييف، أحد المتحمسين المدافعين عن إسرائيل، على هذه النبره قائلاً: "أتحدث عن عداء مطلق للصهيونية حتى أميز بين أسطورة

١- أنظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.

الدعاية هذه وبين النقد المشروع للسيـاسة الإسرائيلية فى هذا الجانب أو ذاك من جوانبها، والذى يعود إلى حرية الرأى والتـعبير. وأجهزة إعلامنا، فى مجملهـا، تبدو لى مطبوعة بهـذا العداء الجذرى للصهيـونية فى معالجـتها لصراع الـشرق الأوسط. "[1] وتكمن المشكلة، فيما يتـجاوز الإقرار بمبدأ الحرية المشـروعة فى نقد إسرائيل، فى أنه لا يوجـد فى الواقع أى إمكانية لممارسة هذا الحق. فـضلاً عن ذلك لن يجد المرء فى كتـابات تاجييف أقل نقد تجـاه شارون منذ عام (٢٠٠٠)، أو أدنى قـبول من جانبه لأى انتـقاد موجه من قبل آخرين. ومن يمارسون هذا الحق النظرى، على العكس، يتم إتهامهم مبـاشرة بالعداء للسامية، هذا إذا لم نجعلهم مـسئولين عن الحرائق التى تتـعرض لهـا المعابد اليـهودية. وكـان جان بييـر الكباش، فـى إذاعة أوروبا١، فى ١٠ يناير (٢٠٠٢)، قد سأل بيير اندريا تاجييف ذاته، بصدد كتابه "الشكل الجديد لكراهية اليهود" السؤال التالى : أنت وضعت موضع تساؤل مـثقفين من اليســار واليسار المتطرف والمناهضين للعـولمة، والمعادين للصهيونية لأنهم يعتـبرون أن الشر ينبع من إسرائيل. من كنت تقصد على وجه التحديد؟".

وكـانت الإجابـة، على الأقل، بدون تمـييز. "كنت أعنى بـعضـاً من المناهضين للعـولمة فى حركـة أتاك Attac، وبعض المحـررين فى لومـوند ديبلوماتيك الذين يعملون دائما على إضفاء الطابع الشيطانى على إسرائيل، والذين يشيـرون، فى العمق، عبـر بعض كتاب الافـتتاحيـات إلى مواقف علنية مـؤداها أن كل شيئ فى العالم كـان سيسيـر على مايرام إذا لم تكن إسرائيل قائمة، وعلى نطاق واسع لدى آخرين إذا لم يوجد اليهود".

١- الفيجارو ١٨ يونيه ٢٠٠٢

ومثـل هذا التفكيـر لا يمكن الإ أن يثيـر الدهشة. فـإذا بدأ المرء، على سبيل المثـال، انتقاد سياسـة الاستيطان فى الأراضى المحتلة فإنه سـرعان ما يتهم بأنه يحلم بعـالم متخلص من اليهـود! وكما نرى فإن تاجـييف تعوزه الفطنة. نحن هنا بعيدون عن الدقة التى من المـفروض أن تتوافر لدى مدير أبحاث بالمركز القومى للبحث العلمى.

وفى الاتجـاه ذاته يـسـيـر أرنوكـلارسـيـفلد، وهو مـدافع دائم عن إسـرائيل[1]، وناقد لا يرحم أولئك الذين لا يـشاطرون سياسـة إسرائيل مشاطرة كاملة يقول " هناك حملة من مـثقفى اليسار لأبلسة إسرائيل، دون أن يضعـوا فى الاعتـبار السيـاق الجيوبـولتيكى والتهـديدات الموجهـة لهذه الدولة. وفى نظرهم أن الـعالم سـيكون أفـضل إذا لم تكن إسـرائيل قـد وجدت كـما فى العصـور الوسطى حينمـا كان البعض يعـتقد أن المجـتمع سيكون أكثر تآلفاً بدون اليهود!"[2]

وتدريجيا سنشـهد حملة فعلية ضد أجـهزة الاعلام التى تتناول الوضع فى الشرق الأوسط والتى تتجرأ على الاعتقاد بأن المشاكل لا تقع مسئوليتها على عاتق الفلسطينيين فقط. ويمكن لهـؤلاء الصحفيين الذين يتناولون هذه الملفات، التحدث عن نوعية الرسائل البـريدية والألكترونية والتليفونية التى تصلهم بصورة منتظمة عندما ينتقدون الحكومة الإسرائيلية.

١- لقـد طلب أرنو كلارسـيفلد المواطنـة الإسرائيليـة بدون أن يرغب فى الاقامـة فى إسرائيل. "وأثناء إعـداد جواز السفـر، رفض الموظفون الإسـرائيليون، مع ذلك، تسجـيل كلارسـيفلد بوصفـه يهوديا ومنحـوه تـقـدير" بروتستـانتى "حيث أن والدته من أصل لوترى"الأكـتـيـواليـتـيه اليـهـودية رقم ٧٧٦ فى ١٠ أوكـتـوبر (٢٠٠٢).

٢- لوبوان فى ١٨ يناير (٢٠٠٢).

وتستخدم الصيـاغات ذاتها والتى يتم نسخها وإعادة إستـخدامها بصورة أوتوماتيكية. وإلى جـانب التهديدات الشخصـية هناك الرسائل التى ترسل إلى مديرى تحرير الصحف، وبالنسبة لهيئات الإذاعة العامة، ترسل الرسائل إلى المجلس الأعلى لهـيئـة الإذاعة والتليـفزيون CSA . وأحـيـانا تتـعلق التهديدات بإدارة الإعلانات. ويتم انتقاد الصحافة كما لو كانت هى المسئولة عن تدهور الوضع. وبما أنه لا يـوجد من يطلب من شـارون العـمل على تحريك عملية السلام والتخلى عن سيـاسة القمع إلى حد ما، فإننا نجد من يطالب الصحافة ألا تتحدث عما يحدث.

هكذا، على سبـيل المثال، نجد مـجلة آرش ، مجلة الطائفة اليـهودية، تـديـن تحت عنوان "ملف العداء للسـامية" تناول أجهـزة الإعلام الفرنسى للأحداث الجارية فى الـشرق الأوسط، ويشهد عنوان المقال وتـوجهاته عن وضوح بارز فى أن الحديث عن الفلسطينيين كضحايا محتملين يفضى تقريبا إلى تغذية العداء للسامية، كذلك صحيـفة مون كوتيديان (موجهة للأطفال من ١٠ إلى ١٤) تعـرضت لسـهام النقـد لأنهـا كتـبت فى ٢٢ نوفـمبـر (٢٠٠١) : "وفقا لليونيسـيف هناك العديد من الأطفال الفلسطينيين عوملوا بشكل سيئ فى السجون الإسرائيليـة". ووفقا لمجلة آرش : "المقالة المنشورة فى الصفحة السادسة، لم تكن أكثر وضوحاً، وسيكون لدى القراء الشباب الفرصـه لتوهم حدوث تـعذيب يتعـرض له الأطفال الفلسطينيـون من قبل سجانيهم، وربما أيضاً استدعاء استيهامات أقرانهم فى الفصل الذين ينتمون إلى الشعـب ذاته الذى ينتمى إليـه هؤلاء السجـانون المرعبون، هكـذا يبدأ العداء للسامية فى المدرسة[1] .

ولنلاحظ بالضرورة، - كـما ترى مجلة آرش -على كل الذين ينتـمون

١- L'Arche فى العدد ٥٢٧ - ٥٢٨، يناي فبراير (٢٠٠٢).

إلى الشعب ذاته أن يتضامنوا مع موقف الجيش الإسرائيلى. ومع ذلك ليس الأمر على هذه الحالة، وهنا فإنها مجلة آرش ذاتها التى تخلق الالتباس بين يهود فرنسا وإسرائيل.

ما العمل إذن؟ "ألا يمكن لأحد أن يعرف شيئاً عما يحدث فى الشرق الأوسط؟ إن هذا هو ما يدعو إليه البعض مواربة.

فى نشرة أخبار القناة الثانية (بالتليفزيون الفرنسى) يرى ممثل المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية بفرنسا: أن مساندة الفلسطينيين هى السبب وراء الاعتداءات اللاسامية ضد المعابد اليهودية فى فرنسا. ويدعو إلى التزام الصمت إزاء هذه الأحداث، وعلى العكس يتم انتقاد أجهزة الإعلام الفرنسية بشدة بسبب الصمت المفترض على الأعمال المعادية للسامية فى فرنسا. (١)

وأثناء الحملة الانتخابية فى (٢٠٠٢) صرحت آن سنكلير، وهى إحدى أكثر الصحفيات شعبية فى فرنسا، وقيادية بارزة من غلاة الموالين لإسرائيل "أن الطائفة اليهودية فى فرنسا تشعر أن أجهزة الإعلام الفرنسية تأخذ موقفا منحازا بشدة ولا تعطى إلا وجهة نظر واحدة، لشعب مضطهد ولشعب يمارس الاضطهاد والمذابح. على الصعيد الإعلامى نجد الميزان غير متكافئ: فعندما تحدث هجمة فى القدس تؤدى إلى مقتل ١٥ إسرائيليا فى

١- آن ليفشيتز-كرامز التى تقدم نفسها كباحثة بالمركز القومى للبحوث العلمية CNRS ، والتى يبدو أن دافعها ليس رغبة البحث العلمى، تهاجم صراحة روبير مينار، السكرتير العام لـ"محققون بدون حدود" نعم أيها السيد مينار، إن الصحفيين أمثالك، يقطرون حقدا بسبب البارانويا التى يعانون منها وبسبب مخططاتهم السياسية، ويكتبون تقارير جزئية ومنحازة عن الواقع، يتحملون نصيبهم من المسئولية عن الأحداث المعادية للسامية التى تحدث فى فرنسا. لماذا كل هذه الضراوة؟ الفيجارو مارس (٢٠٠٢).

كافتيريا أو مطعم بيتزا نجد الكاميرات فى الأراضى (المحتلة) مع العائلات التى تعيش آثار الإنتقام الإسرائيلى. هذه ليست صحافة، هذه طريقة فى الانحياز".

من الغريب أن نجد هذا الاتهام بالانحياز من قبل آن سنكلير وهى التى تقوم بالانحياز لصالح قادة إسرائيل فى كل الظروف.

ما الذى ينبغى أن نستخلصه من كلامها؟ هل الصحافة الفرنسية يسيطر عليها العرب أو المسلمون؟ إن هذا أمر يدعو للضحك أكثر مما يدعو لأخذه مأخذ المجد كيف تصف شخصاً، على العكس، يشكو من سيطرة اليهود على أجهزة الإعلام؟[1]

ويشكو من هذه المعالجة الإعلامية أيضا فكتور الجريسى، وهو رئيس الطائفة اليهودية فى الهافر؟ وبعد أن أستقبل شيراك فى المعبد اليهودى بالمدينة قال: "لقد مضى عام أو عامان على الأحداث اللاسامية دون أن يتم تناولها من قبل الصحفيين أو الحكومة." ويضيف: "المشكلة هى أن العالم كله يخاف من العرب."[2] هل من كل العرب؟ هل لأنه لا يوجد سوى العرب الذين يهاجمون اليهود؟ وماذا كنا سنقول إذا وجدنا مسؤولاً عن إحدى الجمعيات الإسلامية يدين الهجوم الذى تتعرض له طائفته منتهيا فى

١- بالنسبة لدانييل شيندرمان الذى كان يعلق على هذه الأقوال فى عموده الأسبوعى بـ اللوموند يقول ينبغى الذهاب إلى أبعد من ذلك، فالسيدة آن سنكلير التى تعرف جيداً من الداخل كيفية تحرير الأخبار الإذاعية/التليفزيونية كان عليها أن تسمى هؤلاء المناضلين الموالين للفلسطنيين الذين تعاملهم بقسوة، هل هم باتريك بوافر دارفور؟ روبيرناميباس؟ شارل اندرلان؟ "أعاجيب الحرب" لوموند ١٣ ابريل (٢٠٠٢).

٢- الفيجارو ٣ ابريل (٢٠٠٢) "المرشحون لرئاسة الجمهورية يتقربون للناخبين اليهود والمسلمين".

كلامة إلى التأكيد على أن: "المشكلة هى أن كل العالم يخاف من اليهود" سيكون الاستنكار فوريا، وسيضطر إلى الاعتذار.

لا شيئ من هذا هنا. يمكن على العكس ارتكاب أفظع الإهانات مع الاحتفاظ بضمير هادئ ومع الحفاظ على مكانته.

يؤكد مدير تحرير مجلة الاكسبريس دونى جامبير أن الصحافة الفرنسية لها تعاطف مع الفلسطينيين... لماذا يوجد كثير من الأطفال الذين يموتون (فى فلسطين)؟ لأن الشعب الفلسطينى هو الوحيد فى العالم الذى يضعهم فى المقدمة (على خط المواجهة) ثم النساء فى المرتبة الثانية ثم المحاربين فى المرتبة الثالثة."[1]

أقل ما يمكن أن يقال بشأن هذا الرأى، هو أنه قابل للنقاش. هذا الرأى يستعيد كلاما قديما مفاده أن الفلسطينيين لا يكنون احتراماً لحياة أبنائهم وأنهم يقفون إذن على حدود ما هو إنسانى. بينما يمكن النظر، على العكس من ذلك، إلى أنه إذا كان هؤلاء الأطفال يموتون فربما لأن هناك أيضا من يطلق النار عليهم، وأنه فى أماكن أخرى ليس الآباء هم من يتم تجريمهم وإنما أولئك الذين يمسكون البنادق.

"بالتأكيد، أنا شخصيا، يتابع جامبير، أميل إلى إسرائيل، وهو ما أعبر عنه فى يومياتى، لكننى لست الذى يحدد سياسة التحرير فى القسم الخارجى."[2] وهذا قول حقيقى، فالقسم الخارجى للإكسبريس الأسبوعية فى العادة ينتقد شارون.

غير أن الاكسبريس عندما تخصص ملفا عن الاسلام فإنها تضع له

١- Medias، رقم ٢. "إسرائيل - فلسطين، الحياد المستحيل"

٢- نفس المصدر

عنوانا: "ما لم يتجرأ أحد على قوله"[١]، أو "أموال الإسلام"[٢]. والمقالة سلبية بصورة واضحة وتعتمد على كتاب لواحدة من غلاة الموالين لإسرائيل بشكل مطلق وهى ميشيل تريبالا[٣].

وعندما يتناول ملف أوضـاع يهود فرنسا، فإننا نجـد العنوان "قلق يهود فرنـسا"[٤]ونادراً ما يجد القارئ فى الاكسـبريس ملفا يتناول "قلق مسلمى فـرنسـا" أو "يهود فـرنسـا مـا لم يجـرؤ أحد على قـوله". أو "أمـوال اليهودية". ويمكن للمرء أن يقرأ فى الاكسـبريس استطلاعاً عن صـــورة إسرائيل طالب باعداده سفير إسرائيل فى فـرنسا. هل لها سابقة؟ وتستقبل الاكسـبريـس نفس نمط نموذج الاستطلاع مـصحـوبا بملفات من قـبل بلاد أخرى؟[٥]

ويقر إيلى بارنافى أن الاكسبريس منذ نشـأتها أظهرت ميلاً إلى إسرائيل بل وحتى ميلاً صـهيونيا. "وحتى بعد تحويلها إلى مـجلة إخبارية فإن هذا الموقف المتعاطف تجاهنا قد استمر. . ."[٦]

ووفقا لـ باتريك جـوبير، رئيس منظمة اليكرا licra : "ألاحظ تطوراً غـير عادى فى اسـتخدام المفردات. يمكن للمـرء اليوم أن يجعل الكلمـات تقول أى

١- ١٢ سبتمبر (٢٠٠٢).

٢- ٢١ نوفمبر (٢٠٠٢).

٣- الجمهورية الفرنسيـة والإسلام، جاليمار ص٣٣٨، والكتاب يريد "أن يزيل عنا وهم افتتان مبـالغ فيه فيـما يتعلق بالإسلام، ومازوشـيه لا قوميـة تغلب مذاق الآخر، وتحملنا فيما يتعلق بالإسلام إلى إعجاب استغفارى."

٤- الاكسبريس ١٠ أوكتوبر (٢٠٠٢).

٥- " الفرنسيون أمام الصراع الإسرائيلى الفلسطينى" الاكسبريس فى ٨ نوفمبر (٢٠٠١).

٦- إيلى بارنافى ولوك روزين فايج، فرنسا وإسرائيل ص١٢٥، مرجع سبق ذكره.

شـيء، إنه أمـر غـيـر مـسـؤول، في أيامنا هذه، تـنظيم مظاهرات مـواليـة للفلسطينيين، أو إجراء مناقشات حول قضايا من نوع "هل يمكن انتقاد إسرائيل بدون أن نكون لاساميين"؟. كما يفعل اليسار المتطرف وانصار البيئة ومنظمات الدفاع عن حقوق الإنسان. ليست اللحظة مناسبة حقا لهذا الكلام."[١]

لكن مـتى تحين اللحظة إذن؟ إذا لم يكن ذلك عندما يـتصاعـد العنف ضد الـفلسطينيين، وعندما يـتضـاعف عدد الموتى كل يوم، وعندمـا تدين المنظمات غيـر الحكومية التي تعمل في الميـدان جرائم حرب، وإذا لم تكن اللحظة قد أتت للتظاهر، فماذا نفـعل إذن؟ هل ينبغي انتظار نهاية الصراع حتى نتظاهر من أجل السلام؟

من جانبه يتحدث بيـير لولوش نائب برلماني عن حزب الاتحاد من أجل حركة شـعبية فـي باريس عن "انطلاق سيل من الحقد المعـادي لإسرائيل" يتم استعادته على مـدار أعمدة الصحف مثل لوموند وليبـراسيون، بهدف تأسيس السـياسة الحقة فـي فرنسا[٢]. ومع ذلك تفتح لـوموند وفيـجارو صـفحـاتها لمنابر تقـدم وجهـات نظر مـختلفـة. وفي مقـالته بـ لومـوند ديبلوماتيك، يكشف دومنيك فـيدال. بدون أن يناقضه احد، أن صحـيفة ليبراسيون قد استدعـت مراسلتها في القدس الكسندرا شوارتزبورد، لأنها كانت مـحل انتقـاد شديد من الموالين لإسـرائيل بصورة مطلـقة. وأن هذه

١- جان بيير اللالي، "الأشكال الجديدة..." مرجع سبق ذكـره. وموسى كوهين، وهو رئيس المجمع المركزي الإسرائيلي، ومواقفه مع ذلك معـتدله، نجده أيضا ينتقد التغطية الإعلامية للصـراع من قبل قنوات التليفزيون القومية (في فـرنسا): "هذه الصور تنطبع في وجدان كـائنات واهنه، حمـقاء، مـجرمي الضـواحي أو آخرين (...) وتقـود أشخـاصاً معينين، ضعفاء ربما إلى إرتكاب أعمال اعتداء على المعابد" لوموند ١١ أبريل (٢٠٠٢).

٢- المعادون لليهود، كالمان ليفي (٢٠٠٢) ص١٧٨.

الصحيفة اليومية قد نشرت عدة تحقيقات عن العداء للسامية لدى المهاجرين العرب، لكن لم تنشر شيئا عن العنصرية المعادية للعرب والمنتشرة لدى بعض الشباب اليهودى الفرنسى [١]

ويروى نيقولافييل، وهو صحفى يتابع القضايا الثقافية وقضايا المجتمع فى جريدة لوموند فى كتاب له أنه أثناء محاكمة بابون التى كان يغطيها لصحيفته، فضل الجلوس فى مقاعد المواطنين وليس فى مقاعد الصحفيين الذين يراهم معادين بصورة غير كافية لبابون.

كتب يقول "رغبتى فى تسجيل اسمى فى تاريخ اليهود، وتعاطفى الدائم مع إسرائيل ومع الصهيونية، كانا بمثابة البوصلة الدائمة لى"[٢]

وبالفعل كانت كتاباته متسمة دائما بالرغبة فى الدفاع عن إسرائيل أكثر من الاهتمام بالموضوعية الإعلامية. يمكن أن يفهم هذا فى صحيفة طائفية لكن ليس فى صحيفة مرجعية. إن الحديث عن "اندلاع سيل الحقد" يبدو إذن مبالغاً، إلا إذا أعترفنا أن السياسة الإسرائيلية على درجة كبيرة من الحمق بحيث من الأفضل ألا نتحدث عنها. يبدو أنه لا يهم. يكفى تكرار هذا النمط من الحقائق المضادة بلا كلل حتى تبدو وقد صارت تماثل الواقع

وعلى مدار البرامج والمناقشات نجد الإذاعات الطائفية تنتقد أجهزة الإعلام القومية التى تعيب عليها أنها لا تتحدث إلا عن الضحايا الفلسطينيين، وأنها تلف بالصمت مصير الضحايا الإسرائيليين[٣]

اتهمت وكالة الأنباء الفرنسية كذلك بأن ما يحركها فى الغالب الرغبة

١- باسم المعركة ضد اللاسامية، لوموند ديبلوماتيك ديسمبر (٢٠٠٢).

٢- نيقولافييل، تاريخ شخص للعداء للسامية روبيرلافون (٢٠٠٣)، ص١٨٠.

٣- "الاذاعات الطائفية فى مواجهة الصراع الإسرائيلى الفلسطينى" لوموند ١١ ابريل (٢٠٠٢).

فى تفضيل المعسكر الفلسطينى، وظل غـلاة الموالين لاسرائيل ولفترة طويلة يطلقون عليها أنها وكالة فرنسا فلسطين. وكانت تنظم أمام مقرها مظاهرات بصورة منتظمة وأحيانا عنيفة.

ألا يوجـد هنا مشكلة فى ممارسـة ضغط مـادى حول أجـهزة الإعـلام عندما يكون مضمون الإعلام لا يلائم البعض؟

ألا يشكل ذلك طريقـة فى تهـديد حـرية الصحـافـة؟ كذلك وقـعت مظاهرات أخرى أمام مبنى مجلة النوفيل أوبسرفاتور حيث نظر البعض الى تغطيتها لأحداث الشرق الاوسط على أنهـا معادية لإسرائيل. فبعض غلاة الموالين لإسـرائيل لا يريدون الصفح عـن جان دانيل بسـبب مقـالاته التى يدافع فيها منذ سنوات عن السـلام فى الشرق الأوسط. وقد اطلقت حملة بهـدف إلغاء الاشـتـراكات لـمعاقـبة المجـلة. ولم نجد حـملة مماثلة ضـد الاكسبريس لبواعثها المناقضة.

فى ديسمبر، نظمت مظاهرة أخرى أمام مقر دار فلاماريون المتهمة بإنها نشرت رواية لطفلة "الحلم بفلسطين"[1].

ومنحت رابطة الدفـاع اليهـودية خمـــــس مرات "جـــائزة جـوبلز للتـزوير الإعلامـى" للصحف التـى كانت ترى أنهـا تنتـــــقد بشـدة شارون، بدون أن تجرؤ الصـحف ذاتها على الاحتجـاج ضـــد مثل هذه المعاملة[2]

وبدورها ستتعرض كاترين ناى، وهى محررة بإذاعة أوربا I ، لحـملة إعلامية شـديدة. لأنها قالت فى كلمة لها، فى يونيـه (٢٠٠٢)، تستحث

١- ليبراسيون ١١ ديسمبر(٢٠٠٢).

٢- الكانار إنشنيه، ٢٧ نوفمبر (٢٠٠٢).

شارون على أن يحترم الذاكرة وأثارت طرد وقبح الفلسطينيين فى (١٩٤٨) من قبل الإسرائيليين، وفاقمت حالتها فى سبتمبر (٢٠٠٠) عندما قارنت صورة الطفل محمد الدرة[1] بصورة اليهودى الصغير فى جيتو وارسو.

وعلى موجات راديو الطائفة اليهودية فى ١٢ يونيه (٢٠٠٢) يندفع جاك تارنيرو ناقداً هذا "التركيز المهووس" على إسرائيل من قبل الصحفية كاترين ناى الأمر الذى لا يخلو من غرابة، حيث أن تارنيرو لم يكتب ولم يتحدث إلا عن إسرائيل واليهود فقط، وهو ما لا نجده عند كاترين ناى التى بدون هذا الهوس، كما يرى، "ستسقط فى اكتئاب عميق.. فما حلمت به حماس كتبته كاترين ناى..." وقد نسى تارنيرو فى طريقه أن يذكر أن كاترين ناى كانت تستشهد بالمؤرخ الإسرائيلى إيان بابيه.

وفى ١٩ يونيه، سيعود كوكيرمان إلى هذه القضية من جديد مشيراً إلى أن " أنصار القضية الفلسطينية يعتدون فى فرنسا على المعابد والمدارس اليهودية وعلى اليهود... أيضا ألا يكون سلوكهم غير مبال تماماً عند ترديد الشائعات والاكاذيب والافتراءات على دولة إسرائيل، سواء بالنسبة لسمعة هذا البلد ومصالحه السياسية أو بالنسبة لحماية وأمن المواطنين اليهود فى فرنسا. ولدينا مؤخراً نموذج واضح على غياب الدقة والشعور بالمسئولية لدى صحفية تتمتع بمكانة وإنتشار كبير فى فرنسا، فالسيدة كاترين ناى

١- مات فى أحضان والده بعد أن تعرض لفترة طويلة لقصف من العساكر الإسرائيليين.

مثلمـا السيد جوزيه بوفـيه يعزون حرائق المعابـد اليهودية فى فرنسـا لجهاز الموساد. فلمـاذا لم يستشـهدوا مباشـرة فى نفس المضمار، ببـروتوكولات حكماء صهيون؟»[1]

يا له من منطق! لأنها انتقدت شـارون إستناداً إلى آراء مؤرخ إسرائيلى (صحيح انه مرتبط بمعسكر السـلام) يماثلون بين كاترين ناى وحركة حماس وبرو توكولات حكماء صهيون.[2] هل تحدث أحد عن إرهاب فكرى؟

الهدف هو سحق إرادة التعبير عن هذا الموضوع. فعندما يعرف المرء أنه عندما يطلق أحكاماً سلبية ضد شارون فـإنه يغامر بأن يعرض نفسه لحملة، فإنه يفكر مرتين قبل أن يتحدث. وحملات التـرويع تأتى بنتائجها وتستثير نوعاً من الرقابة الذاتية لها وزنها.

وكما لاحظ عن حق جـان فرانسوا كاهن: «ما يطـلبونه، فى العمق، هو رقابة على الصـورة عندما تبدو لهم-ولنا-غيـر محتملة. ينـبغى إذاعة ونشر هجوم العسكر الإسرائيلى فى رام الله ولكن ليس الطفل محمد الدره فى أحضان والده.[3]»

لكن لماذا لا نذهب بعيداً أو نطلب فى النهاية إيقـاف إرسال الصحفيين

١- كتاب شهـير مزور من قبل المعادين للسـامية لبث الاعتقاد أن هناك مـؤامرة يهودية تحكم شئون العالم. . . رئيس الـ Crif يواصل: «السيد رئيس اذاعة أوربا I ، السيد المدير العام، السـيد رئيس المجلـس الأعلى للإذاعة والتليـفزيون، هل حـرية التعـبير تعنـى نشر الاعتداءات؟ خاصة تلك التى من شأنها أن تقـود الأرواح الضعيفة إلى ارتكاب أعمال عنف والنيل بذلك من السلام المدنى بشكل خطير؟ "desinfo. com. Metula News agency"

٢- كـاترين ناى صـرحت منذ ذلك الوقت: «قـررت ألا أكـتب عن هذا الامـر» ماريان ٢٧/١/(٢٠٠٣).

٣- ماريان ١٨ يناير (٢٠٠٢).

إلى الميدان؟ وهذا بالفعل ما قاله موارية "مرصد العالم اليهودى. فى نشرته الثالثة يمكن أن تقرأ "فى نفس نطاق الأفكار، لماذا يكون هناك الكثير من المراسلين والمبعوثين الخصوصيين إلى إسرائيل والأراضى الفلسطينية[1]" فهل يوقف حذف الإرسال الإعلامى الحمى السائدة فى الشرق الأوسط !

وهذا النمط من التفكير السياسى المنسق يطرح عدة نماذج من القضايا.

لقد صار من المقبول أكثر فأكثر أن التغطية الاعلامية للأوضاع السيئة، هى الخطوة الأولى نحو إدراك وعى الرأى العام، الضرورى للتقدم نحو الحل. والأنظمة التى تفضل الصمت حول نشاطها ليست بشكل عام هى الأكثر احتراما وتقديراً. فلماذا يرغبون حينئذ فى إقامة ستار خجول حول

١- فى الواقع، فلدى كل من الصحف اليومية الثلاث فى عين المكان مراسل دائم معتمد لدى دولة إسرائيل (جيل بارى بالنسبة لوموند؟ بيير بريه للفيجارو، الكسندرا شواررنور البيراسيون ويضاف إليهم اثنان بل وثلاثة مبعوثين خصوصيين فى الأراضى الفلسطينية للحكم الذاتى وهم (سيبل، كاترين ديبايرون برونو فيليب (لوموند) ومارك هنرى وتييرى أوبيرل (الفيجارو) وجان بيير بيران، وديديه فرانسوا (ليبراسيون) بالإضافة إلى برقيات مرسلة من مختلف وكالات الأنباء العالمية، فهل الأحداث تتطلب مثل هذه التغطية؟ أليس فى ذلك أيضا استفادة من واقع أن إسرائيل هى النطاق الديمقراطى الوحيد فى المنطقة حيث تسود أكبر حرية كاملة فى التعبير، ألا يوجد سهولة ما فى كتابة مقالات انطلاقا من القدس وتل ابيب، بل وحتى غزه والخليل أكثر من دمشق وبغداد وطهران وحتى الرياض؟

وبالتالى ألا يمكن أن نخلص إلى أن الصراع الإسرائيلى الفلسطينى يشهد تغطية إعلامية مفرطة؟ وألا تساعد هذه التغطية المفرطة بالمقابل فى زيادة الأبعاد الدامية لهذا الصراع والمبالغة فى إثارة قلق القراء" ألا تشجع على ظهور اتجاه يرى أن الصراع الإسرائيلى الفلسطينى خطر على السلام فى العالم وأن هذا المسئول عن إدامته يشكل خطراً على الجميع؟" " لوموند، الفيجارو، ليبراسيون، مكان وصورة دولة إسرائيل، أو هل أجهزة الاعلام الفرنسية موضوعية؟" مرصد العالم اليهودى، النشرة الثالثة ص ١١٥.

ما يحدث فى الشرق الأوسط؟ هل يتوقع أحد فى القرن الواحد والعشرين أنه فى الامكان تغييب صراع من هذه النوعية ! لا بالطبع. إذا كان الواقع لا يبعث على السرور أليس من الافضل العمل على تعديله بدلا من إخفائه! فضلاً عن ذلك فإن غياب المعلومات يولد بالضرورة الشائعات التى ناهيك عن ضررها، تفتح الباب أمام كل التلاعبات.

إن حرية الإعلام حول الشرق الأوسط، والحق فى النقاش حول هذا الموضوع فى فرنسا صارت تحديا ديمقراطيا كبيراً.

أمام محاولات الرقابة ومحاولات الضغوط لإحداث رقابة ذاتية حول هذه الأحداث المعقدة، لابد من مقاومة التهديدات، وعدم الخضوع للابتزاز ألا يضع فى الحسبان أولئك الموالون لإسرائيل بشكل مطلق أن خطابهم حول الإعلام (الفرنسى) وأنه فى أيدى الموالين للفلسطينيين لا صدقية له؟ يمكنهم، بالتأكيد، تنظيم مؤتمرات حول التلاعبات الاعلامية لصالح الفلسطينيين، وحيث بعض أجهزة الإعلام الطائفية يمكنها استعادة هذا الخطاب لتدعيم الشعور بالعزلة والخوف لدى قطاع من الطائفة. لكن هذا المنطق السياسى لا يسير إلى ما هو أبعد من هذه الدائرة المحدودة. فالرأى العام، صار له اقتناع أن ما يستحق الادانة هو ما يحدث هناك وليس ما يقال هنا. بالتأكيد حكومة شارون لم يكن من صالحها أن تنشر الصحف مظاهر من الحياة اليومية للفلسطينيين وما يتحملونه عمليا من أجل الحصول على الغذاء، والعمل، والسكن والدراسة، والاذلالات الدائمة وحظر التجول، ومخاطرة، أن يكون المرء موضعاً لاطلاق النار عليه كما لو كان من الارانب، ودون أن يكون له، فى أفضل الحالات، سوى الأسف الصادق للجيش الإسرائيلى.

كم من النواب المنتخبين بفرنسا أو من الجمعيات المحلية عادوا من الأراضى المحتلة مذهولين ومأخوذين تماماً مما شاهدوه فى عين المكان، مدركين بشكل ملموس ماذا يعنى الاحتلال العسكرى؟

ومنذ عامين أخذ الاحتلال العسكرى مغزى مختلفاً، ولم يعد الأمر يقتصر فقط على التحكم المادى فى الأراضى (وهو الأمر الذى يمكن أن يدفع بجيش لمحاولة أن يكون مقبولاً) بل تيئيس السكان (الفلسطينيين) الذين يعيشون فى هذه الأراضى حتى يختار عدد منهم المنفى.

ومن حسن الحظ ارتفعت أصوات عديدة، وفى المقام الأول، داخل الطائفة اليهودية، ضد هذا النمط من الخطاب.

"هناك داخل الطوائف المنظمة، وهذا يظهر فى بعض برامج الإذاعات اليهودية، اتجاه إلى الإجابة على معاداة السامية، والانحرافات الإعلامية، التى تدينها، بنوع من البارانويا على طريقة "وحيد ضد الجميع"، وهو ما يأسف له أوليفيه جولاند، مدير المنبر اليهودى نصف الشهرية، الذى يرى أن هذا الموقف "غير مفيد"(١)

وبدوره يؤكد هنرى هاجين برج، الرئيس السابق للمجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية بفرنسا. "أنه من الخطأ إدانة أزمة اللاسامية فى كل المجتمع الفرنسى، لدى صحفييه وقادته، لأنهم لم يظهروا بصورة كافية تضامناً مع اليهود، أو لأنهم يميلون بصورة مقلقة تجاه الفلسطينيين، وجعل

١- لوموند ١٤ ديسمبر (٢٠٠١) "أجهزة الإعلام للجماعات الطائفية تريد تجنب الفجوات فيما يتعلق بالشرق الاوسط.

اللاسامية هكذا من الأمور المعتادة فإن هذا يعنى الانزلاق مع أهداف اللاساميين". (١)

وسيصل الامر بـ جان كريستوف إتياس واستيربنباسا إلى القول :

"تعيش الصحافة القومية العامة قلق أن ينظر إليها على أنها لاسامية. فتفتح صفحاتها لقلق الممثلين الرسميين للطائفة، وتتردد أحيانا فى أن تنشر انتقادات أو تساؤلات نابعة من يهود أصلاء لكن مستقلين. ومن جهتها تحاول الصحافة اليهودية فى الغالب وضع العقبات أمام تمييز أى فكر يمكن أن يهز صور الإجماع التى تعيشها. "(٢)

هل الصحافة الفرنسية معادية لإسرائيل؟ هناك عديد من الفلسطينيين يرون العكس تماما. والبعض منهم يحرك أسطورة العكس أى صحافة يسيطر عليها اليهود، معددين أسماء الصحفيين اليهود المشهورين، أعلى من الصحفيين العرب أو المسلمين المعروفين على الساحة. لكن هذا لا يعنى شيئا، لأن الصحفيين اليهود لا يجمعهم رأى مشترك حول إسرائيل وحول الوضع فى الشرق الأوسط.

الصعوبات والضغوطات من كل صوب، لماذا لا نعتقد أن الصحافة تحاول فقط القيام بعملها؟ وأنه إذا كانت المعلومات أكثر نقداً تجاه إسرائيل

١- الفيجارو ٢٨ يناير (٢٠٠٢)، نجد النغمة ذاتها لدى (اتحاد يهود فرنسا من أجل السلام). "نحن نرى، كما يؤكد ريشار فاجمان رئيس الاتحاد، أن الأساسى فى الاعتداءات اللاسامية الراهنة قد نشأ من الخلط الذى تمارسه بعض المنظمات بين الطائفة اليهودية بفرنسا ودولة إسرائيل. وأن أفضل طريقة للبرهنة على ما يحدث يكمن بالضبط فى التمييز بين الاثنين."

٢- جان كريستوف إيتاس واستيربنباسا «لسنا ضحايا»، لوموند ١٨ ديسمبر (٢٠٠١).

فذلك لأن ما تقوم به حكومتها منذ عـامين يؤهلها للنقد بصورة متزايدة. يقر ويعترف إيلى بارنافى بالمناخ المتوتر ويحمل الصحفيين المسؤولية فى الاتجاهين : "الذين لم يراعوا وضع إسرائيل وأصدقائنا الدائمين، الذين يتخيلون رؤية ظلال دكتور جوبلز تخيم على صحافة بلدهم". (١)

لا توجد هناك دراسـات دقيقة تصف مـعالجة أجهـزة الإعلام لأحداث الشرق الاوسط.

فى كتابهـما المخصص لهذا الموضـوع تؤكد كل من جوس دراى ودونى سيفـر أن أجهزة الإعلام الفـرنسية، على سبيل المثـال، استعادت لحـسابها وبدون فحص الرواية الإسـرائيلية لمباحثـات كامب ديفيـد بينما هذه الرواية تعرضت لانتقاد من مصادر مختلفة ومتطابقة.

لم يعد يخفى على أحد أن الفلسطينيين قد رفـضوا عرضاً كريماً من قبل باراك فى كامب ديفيـد. ومصطلح «كريما» أذاعه وزير الخارجـية الإسرائيلى شلوموبن عامى، وهو وحده الذى يدرك مغزاه. وهو تعبير سيتردد من قبل أغلب أجهزة الإعلام القومية وهكذا فإن إعطاء الفلسطينيين حق إنشاء دولة على القسم الأكبر من الأراضى المحتلة (ولم يكن باراك فى كامب ديفيد قد اقترح إعـادة معظم الأراضى المحتلة) يعنى تقديم عرض كـريم ! وإعادة ما أخذ بعد ثلاثة وثلاثين سنة هو من الأمـور الكريمة ! وهذا يوضح جيداً أن الذين يستخدمون هذه اللغة لا يضعون الآخر فى الاعتبار. الآخر لا يوجد وليس له حق فى شئ. ومـا يمنح له ليس حـقا وإنمـا هبة. وبالتـالى، (٢) وأبعد من التـأكيد المتـواصل على أن عرفات يرفض السـلام، فإن الحقيـقة

١- إيلى بارنافى، لوك روزين فايج : فرنسا وإسرائيل مرجع سبق ذكره ص١٣٦.

٢-حرب الإعلام الإسرائيلية، لاديكوفرت (٢٠٠٢)، ص١٢٥.

ظهرت بصورة مختلفة. وأن ما تم المفاوضة عليه فعلاً فى كامب ديفيد كان من الصعب قبوله من الفلسطينيين[1]. وفى طابا كان هناك اقتراب من اتفاق لكن الانتخابات كانت على الأبواب.

وشهادات المفاوض الامريكى روبير ملى malley ، وكذلك كتاب شارل اندرلان، الذى لا يمكن تجاوزه. وهى شهادات تعتمد على مصادر مباشرة والتى لم تُكَذَّب[2] من قبل أحد قد وضعت الأمور فى نصابها[2].

كيف نفهم إذن، رغم المعرفة الحقيقية بالوقائع، استمرار رواية أن عرفات وحده هو المسؤول عن إخفاق مفاوضات كامب ديفيد؟ أليس هذا نموذجا على التضليل الإعلامى.

وعلى العكس، فإن الصحافة لا تشير باستمرار لرفض شارون لخطة الأمير عبد الله التى طرحت فى مارس (٢٠٠٢) لسلام عام بين البلاد العربية وإسرائيل.

وهم الأشخاص أنفسهم الذين أعادوا التركيز أكثر من مرة على أن عرفات هو الذى أطلق الانتفاضة عمداً حتى يهرب من عملية السلام. وأن

١- إيلى بارنافى بنفسه يعترف بذلك : "أفهم جيداً أن عرفات قد اعتبر أن إتفاقات كامب ديفيد لم تكن كافية. ولو كنت فى مكانه ما كنت وقعت عليها. وفى المقابل كان عليه الاستمرار فى المفاوضات محاولاً اجتذاب أغلب الإسرائيليين إلى جانبه" النوفيل اوبسرفاتور ٣ أكتوبر (٢٠٠٢).

٢- بإستثناء رابطة الدفاع اليهودية التى منحت شارل اندرلان "جائزة التضليل الإعلامى".

٢- شارل اندرلان، الحلم المحطم، فايار (٢٠٠٢)، أنظر أيضا تحقيق سيلفان سيبل "كامب ديفيد"، المفاوضات المستحيلة، لوموند ٢٩،٢٨ ديسمبر (٢٠٠٠)، وروبيرملى (الذى كان مكلفا بملف الشرق الاوسط لدى كلينتون، نشر أيضا تراجيديا الأخطاء، نيويورك ريفيوبوك ١٩ أغسطس (٢٠٠١).

يكون عرفات قد مارس لعبة اللغة المزدوجة فهذا مؤكد، وأن يكون عرفات قد أراد استخدام سلاحين فى وقت واحد (الانتفاضة و المفاوضات) فهذا ممكن. لكن من الذى أعطى الأمر بإطلاق النار على الجمهور الفلسطينى الذى كان يتظاهر بعد زيارة شارون لساحة المسجد الأقصى؟ وطالما نتحدث عن اللغة المزدوجة، كيف نفسر أن عدد المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة قد تضاعف أثناء عملية أوسلو للسلام؟ شارون من جهته، لا يمكن إتهامه بأنه يمارس اللغة المزدوجة. منذ البداية وهو يعلن رفضه لعملية أوسلو للسلام. وكل أولئك الذين انتقدوا بلا هوادة فساد السلطة الفلسطينية لم نسمع صوتهم عندما انتقدت الصحافة الإسرائيلية شارون حول نفس قضية الفساد أثناء انتخابات يناير (٢٠٠٣).

وقد اتهمت أيضا المناهج التعليمية الفلسطينية بأنها تنشر العداء للسامية. فى يونيه (٢٠٠١). لقد فندت صحيفة ها آرتس هذه الاتهامات الموجهة للمناهج التعليمية الفلسطينية بأنها معادية للسامية. وأشار عكيفا الدار Eldar إلى أن أنماط العداء للسامية الذائعة مستخلصة بالفعل من المقررات المصرية والأردنية المستخدمة منذ (١٩٦٧) فى المدارس الفلسطينية.

من المثير للدهشة إذن أن الإحتجاجات بصدد الكتب المدرسية لم تكن تتعلق إلا بالفلسطينيين، ولم توجه فى شئ إلى " الملك الساحر فى الشرق والرئيس الهام بالجنوب"[1]

والحال أنه للمرة الأولى، فى (٢٠٠٠)، يقوم الفلسطينيون بطبع مقرراتهم التعليمية بأنفسهم، وكانت وفقا لدراسة قام بها معهد هارى

١- ها آرتس، يونيه (٢٠٠١).

ترومان لتعزيز السلام، أنها كانت أكثر تحرراً من الاكلشيهات السلبية حول إسرائيل واليهود من المقررات الأردنية أو المصرية. وأعدت هذه الدراسة بالاشتراك مع سامر أدوان من جامعة بيت لحم ومتخصصة إسرائيلية هى روث فوير. "المقررات الجديدة تعلم حقوق الإنسان، وتدعو إلى اتباع الوسائل السلمية لحل الصراع. على نقيض تأكيدات وزيرة التعليم الإسرائيلى، لا توجد كلمة واحدة فى هذه المقررات تدعو إلى تدمير إسرائيل" كما تؤكد الدراسة. ويصل عكيفا الدار إلى حد السخرية فى نهاية دراسته: "ربما الوزيرة لن تكون راضية إلا عندما يعلم الفلسطينيون أطفالهم حب المستوطنات".

ولم يتردد كوكيرمان، رئيس المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية بفرنسا فى إدانة تمويل دافع الضرائب الأوروبى للمقررات المدرسية (الفلسطينية) التى تسيل منها شحنات العداء للسامية"[1]

هل نستنتج من هذا الالحاح أنه لم يكن على علم بالملف المنشور فى ها آرتس حول هذا الموضوع، أو الاخطر من ذلك أنه يفضل تضليل الجمهور برغم معرفته الحقيقية بالأمر؟

وهذا لم يمنع بيير-اندريا تاجييف من العودة إلى هذا الموضوع فى كتابه (الشكل الجديد لكراهية اليهود). أنه يستخدم نموذج المقررات التعليمية الفلسطينية ليبرهن على لاسامية السلطة الفلسطينية. وهو يستشهد، ليس بصحيفة ها آرتس الإسرائيلية وإنما بالمنظمات غير الحكومية الامريكية التى أثارت الموضوع لأول مرة فى (١٩٩٩)، وملف مجلة آرش حول الموضوع

١- اليهود هل هم منقسمون؟ الفيجارو ٨ أكتوبر (٢٠٠٢)، كوكيرمان يظهرأقل اهتماما بحماية أموال دافعى الضرائب الأوربيين عندما دمر الجيش الإسرائيلى البنية التحتية الفلسطينية الممولة من الاتحاد الاوربى.

ذاته المنشـور فى يناير (٢٠٠١)، والجدير بالذكـر أن مدير البحث بالمـنظمة الأمريكية غـير الحكومية، «مركز مـراقبة تأثير السلام» يعيش فى مـستوطنة يهودية بالضفـة الغربية فى إفرات، بينما الذين ذهبوا إلـى مصادر المقررات التعلـيميـة أمكنهم الملاحظة ثم البـرهنة على «النوايا الخبـيثة» أنـها تورية- لمؤلفى التقرير (ترجمات متحيزة من اللغة العربية إلى الإنجليزية، إشارة إلى نصوص غائبة من كتب مستشهد بها. الخ)(١)

كـذلك، وبينمـا اعتـرف الجنرال إيلانـد بأن مصـدر إطلاق النار كـان إسرائيليـاً على الطفل محـمد الدره (٢)، الذى مـات فى أحضــان والده، والذى صورته كاميرا القناة الثانية بالتليفزيون الفرنسى، والذى أثر فى العالم كله، فـإن غلاة الموالين لإسـرائيل من الفرنسـيين، شككوا فى هذه الرواية وتحدثوا عن تضليل(٣)

إن عـمليات التـشـويه الإعلامى نادراً مـا كـانت أمينـة على المستـوى الفكرى، لكن عـلى الأقل يظل المرء فى نهـاية المطاف داخـل نطاق الطابع الكلاسيكى للمعركة السياسيـة والإعلامية. ما هو أكثر خطورة هو محاولة تدمير إنسـانية أولئك الذين لا يقبلون آراء غلاة الموالين لإسرائيل، وقـضية ميرميه هى النموذج الأوضـح على ذلك. دانيل ميرميه، وهو منتج برنامج "اذا مـا كنت هناك" على موجات إذاعة فرانس انتـير، لوحق قضائيا أمام الغرفة ٣١ بمحكمة الجنح بباريس لـ " حـثه على الحقد العنصرى" من قبل LICRA، "واتحاد الطلاب اليهود بفرنسا"، "والمحامون بدون حدود".

١- تاجييف، مشعل الحريق، فانسان ميسوبوليه، AMFP، ٢٤ فبراير (٢٠٠٢).

٢- ها آرتس ٢٥ يناير (٢٠٠٢)، مستـشهداً به من قبل دومنيك فيـدال "باسم المعركة ضد اللاسامية" لوموند ديبلوماتيك ديسمبر (٢٠٠٢).

٣- انظر جان كاهن. "احتقار الاقوياء" الفيجارو ٧ يناير (٢٠٠٣).

كانت جريمتـه أنه اذاع تسجيلا لمستمع لم يتضمن أى اقـوال عنصرية وإنما كان ينتقد بشدة السياسة الإسرائيلية[١]. وبرنامج ميرميـه الإذاعى يبدأ فى كل حلقة بإذاعـة رسائل مخـتارة من تلك التى تلقـــاها برنامـجه. على مدار وأثناء البرنامج نسـتمع إلى شهادات لأسرة إســـرائيلـية أطفـــالها قـد قتلوا أثناء عـملية فلســـــطينية، أو نـستـمع لفلســـطينيين قـتـــل آباؤهم.

ومن بين تسع وعشـرين رسالة صوتيـة لمستمـعين أذاعتها الإذاعـة نجد ثمـانى عشـرة كانت مـؤيده للفلسطينين. وهـذه الرسائل هى التى كـانت موضع المحـاكمة، وأقر مـيرميـه أنه كان يـــتلقى رســـائل أكـثر من الموالين لإســـرائيل، "مكالمات مـــرسلة فى تسلـسل مع نفس الكلـمـات تقريبا."

وكان كل من الآن فينكلـكروت وروجيه كوكيـرمان والكسندر أدلر قد مثلوا أمام المحكمـة كشهود عن الجانب المدنى. ووفـقا لـ آلان فينكلكروت فإن إذاعة مثل هذه الأقوال فى مناخ معاد للسامـية كالسائد حاليا فى فرنسا لا يمكن إلا أن يشجع العنف ضـد اليهود..." واعتبـر أن "طابع الالتزام يغلب على طابع الصـحفى" وأن الـبرنامج قـدم إسرائيل على أنهـا دولة عنصرية وفاشية وبشكل ما نازية. وهنا مـرة أخرى فإن انتقاد إسرائيل ينظر له على أنه تحريض لارتكاب الاعتداءات اللاسامية.

"يوضح الآن فينكلكروت أن خـمسة وتسعين فى المائة من يهـود فرنسا هم صهاينة بمعنى أن لديهم تضامنا مصيريا مع إسرائيل. وتقديمها كدولة لا

١- " قوة مميـتة تجد لذتها فى اغـتيال الاطفال وتقطيع أطرافـهم" منافقون يسـتعملون بمهارة مدافع العداء للسامية" هذا ما كتبـه قبل ان ينتهى إلى: "أنا معاد للصهيونية بشدة، لكنى لست معاديا للسامية فى شئ."

إنسانية بوصفها فاشية أو نازية، فإن هذا يعنى إقصاء، تحت قناع مكافحة العنصرية، كل الذين يدعمونها بوصفهم يهوداً.»[١]

من أين جاء بهذه الأرقام؟ أليس من قبيل التناقض أن يكافح عن حق ضد كل أولئك الذين يتحدثون عن طائفة يهودية بوصفها كتلة واحدة متناغمة المواقف وأن يمارس هو ذاته مثل هذا النمط من الخلط؟ وأبعد من واقع أن يكون صهيونيا هل ينبغى أن يقبل كل جوانب سياسة حكومة شارون؟

من جانبه يصف الكسندر أدلر دانيل ميرميه بأنه صحفى مناضل مقارنا برنامجه بتلك البرامج التى تذكر المرء بأوروبا الشرقية فى الماض.[٢]

كان على الكسندر أدلر، الذى جعل من الدفاع عن إسرائيل منهج سير دائم له مهما كانت سياسة هذا البلد، أن يتصف بقدر كبير من التبجح حتى يتهم ميرميه بأنه "مناضل". ولا ينزعج ادلر أوفينكلكروت، وهما "من القائمين على الإعلام الرسمى" فى تمرير قناعاتهم فى برامجهم (المسموعة أو المرئية) سواء فى اختيار القضايا، أو بين المدعوين الذين لا ينبغى عليهم أن يظهروا نقداً شديداً تجاه حكومة شارون. وسيشعرون بالانزعاج إذا قال لهم أحد أنهم يخلطون بين تليفزيون وراديو الدولة وبين أجهزة إعلام الطوائف، فضلاً عن أن آراءهم معروفة ولا يخفونها. ولديهم الحق تماماً فى الدفاع عنها، بل إن دورهم كمثقفين أن يفعلوا ذلك. لكن لماذا يعيبون على الآخرين ما يسمحون به لأنفسهم؟ لماذا يعيبون على ميرميه إدارة برنامج شهادات، علنية ومتعارضة، عندما يسمحون لأنفسهم بتحرير

١- لوموند، ٢-٣ يونيه (٢٠٠٢).

٢- ليبراسيون، ٣ يونيه (٢٠٠٢)، "إذا كنت فى المحكمة هناك".

الرأى فى اتجاه واحد؟ وماذا سيقولون إذا رفع أحد ضدهم قضية، حتى لو كان متأكداً أنه سيخسرها، وإنما فقط من أجل أن يمارس ضغطا عليهم؟ وإذا كان المناضلون الموالون للفلسطينيين يحتجون ضد واقع أن أنصار إسرائيل، فى مقدرتهم الاستمرار فى الظهور بوسائل الإعلام العامة برغم التزامهم الجذرى الموالى لإسرائيل؟

أثناء المحاكمة، صرح المحامى جولد نادل : "إن محاكمة ميرميه هى محاكمة اللاسامية ذات الشكل الجديد أى محاكمة (يسار بعينه). وأضاف: "فى أوقات الأزمة هناك دائما خيط رفيع بين كراهية الدولة اليهودية والعداء للسامية".

وطالب المحامى جولد نادل مستمعى راديو الطائفة اليهودية، فى ٣١ مايو، بالتوجه لحضور محاكمة ميرميه (لزيادة الضغط على ميرميه الذى ستوجه إليه الإهانات أثناء جلسات الاستماع) لمساندة "هذه المعركة الجوهرية ضد العداء للسامية الأكثر رعبا، أى العداء الذى لا يعلن عن نفسه، وإنما يستغل كل السلطات التى فى حوزته اليوم، بدءاً بسلطة إعلامية بدون رقابة. إن هذه السلطة هى التى ينبغى أولاً أن نحتج عليها إذا أردنا السعى لإلغاء برنامج الحقد الذى يعود من جديد"[1]

إن التسميه الودية لـ "محامون بدون حدود" تشير إلى أنها منظمة غير حكومية مكلفة بالدفاع عن حقوق الانسان وحيث يتطلب الأمر الدفاع عنها فى أى مكان فى العالم على غرار المنظمات النظيرة الأخرى مثل (أطباء بلا حدود،) (محققون بلا حدود). لكن أقل ما يمكن أن يقال هنا هو أن هناك لعباً بالكلمات، لأن الجمعية التى يرأسها وليام جولدنادل هدفها الوحيد هو

١-ليبراسيون ٣ يونيه (٢٠٠٢).

الدفاع عن إسرائيل والاعتداء على من ينتقدونها. وهذا سيؤدى، فضلاً عن ذلك، إلى رفع دعوى قضائية من قبل جمعية أخرى تسمى "محامون بلا حدود فرنسا" ضد الجمعية التى يقودها جولدنادل، والتى ليس لها أى عمل من أعمال التضامن الدولى، ولا يتجلى نشاطها إلا فى دعاوى قضائية من نمط تلك المرفوعة ضد دانيل ميرميه.

سيكون المحامى جولدنادل هو محامى أوريانا فلاتشى التى كتبت كتابا عنصريا بصورة واضحة ضد المسلمين، وبالتأكيد من أجل "نزع برنامج الحقد" (انظر الفصل السابع) [1].

وسيخلى سبيل دانيل ميرميه فى ١٢ يولية، ويؤكد القضاة أنه "بوصفه صحفيا وصف وضعاً سياسيا ذا طبيعة صراعية للغاية، وأنه إذا كان عمله لا يستقيم "بدون التعبير عن بعض الاعتبارات"، فإن هذه الاعتبارات كانت "تعبر فقط عن قضية، يدافع عنها بعيداً عن أى اعتبارات عنصرية". لكن الذين رفعوا الدعوى ضده قاموا بإستئناف الحكم. الواقع أن القضية بالنسبة لهم ليست كسب الحكم إذ لا يمكن الرهان مقدماً على قرار العدالة وكان من غير المتوقع رؤية ميرميه مدانا من قبل المحكمة. لكن الهدف من رفع الدعوى كان خلق نموذج وامتلاك تأثير الردع على الآخرين. وكأن لسان حالهم يقول: هل لديك رغبة فى أن تحاكم بالعداء للسامية عبر المحكمة وعبر الإعلام؟ هل أنت مستعد لتحمل هذا الضغط على نفسك وأقاربك ورؤسائك فى العمل؟

١- وفقا له : الصحفية الإيطالية ترفض وتشير إلى "صرخة عاصفة لامرأة معذبة، مجروحة، إيطالية وأوربية". بالنسبة لها "الفاشية الجديدة ليست بنية وليست حمراء وإنما خضراء". الفيجارو ١٩ يونيه (٢٠٠٢).

ستتبلور استراتيجية هجوم إزاء دانيل ميرميه. وستأخذ شكل قضية ثانية رفعها "محامون بلا حدود"، الفيجارو، ليكرا، واتحاد طلاب يهود فرنسا لانه أعاد إذاعة أقوال طبيب نازى فى برنامجه، من خلالها كان هانس مونسيى، الطبيب النازى، يتحدث عن الغجر. وهنا يصل الأمر الى قمة سوء الطوية لأن النازى القديم قد اكتشفه ميرميه فى (١٩٩٨) وعلى أساس ما قاله إلى ميرميه الذى كان قد أدانه.[1] وأثناء المحاكمة صرح الفريد جروسيه: إذا كان ميرميه مذنبا فإنه ينبغى أيضا أن يدان كلود لنزمان وفيلمه "الشوا" الذى يستند الى السيناريو ذاته، أى انطلاقاً من شهادات نازيين قدامى"[2]

أكدت المحكمة على أن البرنامج الإذاعى كان مستنداً إلى اهتمام مشروع فى إعلام الجمهور".[3] وكذلك رفعت دعوى ضد إدجار موران ودانيل ساليتاف وسامى نير بعد نشرهم مقال حول الوضع فى الأراضى المحتلة[4].

هذا النمط من الضغط يوجد أيضا فى إسرائيل. فالصحافة القومية والدولية عندما تظهر نقدها تجاه السياسة الحكومية، ينظر إليها كخصوم فى بلد حيث الصحفيون كانوا دائما أحراراً، وعادة ما كانوا ينتقدون بعنف السلطات القائمة.

١- لوموند ١٢ سبتمبر (٢٠٠٢).

٢- المرجع ذاته.

٣- لوموند ١٧ أكتوبر (٢٠٠١).

٤- الجريدة ذاتها فى ٤ يونيه (٢٠٠٢). تنازل اتحاد طلاب يهود فرنسا عن رفع الدعوى لأن وليام جولدنادل قد تحدث باسم الاتحاد رغم رفضهم الصريح فى المشاركة فى هذا الإجراء.

يمكن للمرء أن يدرك أن العلاقات بين الصحافة والسلطة ذات طبيعة أكثر توتراً فى وضع الحرب وانتشار الهجمات منها فى وقت السلم. وأبعد من الصعوبات المفهومة يمكن أيضا الاعتقاد بوجود استراتيجية مدبرة من قبل الحكومة الإسرائيلية القائمة، وهى إسكات مصادر المعلومات لتجفيف منابع الانتقادات بالضغط على الصحافة، وجعل عملها يتم فى ظل أكبر قدر ممكن من الصعوبات، باستهدافها معنويا وأحيانا ماديا حتى لايشار الى القمع. ووفقا لـ"محققون بلا حدود" فإن حصيلة الإحتلال الإسرائيلى للمدن الفلسطينية لا نظير لها: ينبغى إدانة سياسة السلطات الإسرائيلية إزاء الصحافة الأجنبية وخاصة الصحافة الفلسطينية، بوصفها سياسة انتهاك جماعية، ومتعمدة لحرية الصحافة"(١).

وقد أثار روبيرمينار مسألة مصير الصحافيين المصابين بالرصاص فى الأراضى المحتلة منذ ١٩ نوفمبر (٢٠٠١)، وفى أغلب هذه الحالات الخمس والأربعين، فإنه من المرجح جداً أن إطلاق الرصاص جاء من القوات المسلحة الإسرائيلية. وكثير من التقارير التى أعدتها منظمات حقوق الإنسان وحريات الصحافة قد تحققت من هذه الوقائع. وقد ركزت بشكل خاص على أن أغلب المحققين الذين أصيبوا كانوا بعيداً عن ميدان القصف، بل وحتى أحيانا كانوا على مسافة بعيدة من أماكن الحوادث، كما لو كانوا قد استهدفوا عن عمد. "(٢)

" ومنذ مجئ شارون إلى السلطة فى فبراير (٢٠٠١)، جرح سبعة عشر صحفياً، وتعرض سبعون لإطلاق النار، واحتل الجيش الإسرائيلى خمسة عشر مكتبا إعلاميا إجنبياً وفلسطينياً. ومنذ بدء عملية الجدار فى ٢٩

١- لوموند ٢٠ أبريل (٢٠٠٢).

٢- "إرهاب الصحفيين ينبغى أن يتوقف" الفيجارو ٤ مارس (٢٠٠٢).

مـارس (٢٠٠٢) تم اعتـقـال ثلاثين صـحـفيـاً على الأقل، منهـم سـتـة فلسطينيين مـازالوا رهن الاعتـقال. ويتـصرف الجيش الإسـرائيلى دون أى مساءلة"(١)

إن القـضيـة بالفـعل هى قضـيـة عدم المسـاءلة. فلنتـخيل أن الجـيش اليـوغسـلافى قام بالممـارسة ذاتهـا التى قـام بها الجـيش الإسرائيلى تجـاه الصحـافة؟ هل كـانت أجهزة الحكم الـغربية، وعلى رأسـها الأمـريكية، ستتدخل؟!

من جـانبهـا لاحظت الفـيدراليـه الدوليـة للصـحافـة: "هناك الآف من الأشخاص اليوم يعيشون تجربة مـؤلمة مع الإدارة العسكرية التى تهدد بوحشيتها المفهوم الجوهرى للتعايش الفلسطينى مع إسرائيل. فى هذه التراجيديا المؤلمة نجد فى المقدمة الصـحفيين الفلسطينيين. .وتعكس البراهين الكثيـرة على محاولات التحكم فى أجهزة الإعلام أزمة عميقة بالنسبة لحرية الصحافة." (٢)

فى يونيـه ٢٠٠٢، نجد أنـه سيـجرى اتـهام شـبكتى (CNN)و(BBC) بإشاعة أقوال معادية لإسرائيل، وتشجيع الإرهاب. وكان تيدتيرنر المؤسس والمدير السـابق لـ (CNN) قد انتقد إسرائيل لممارستها "إرهاب الدولة".

وقام إيسون جوردان مسئـول قسم الإعلام العالمى بالقناة بزيارة إسرائيل لتقديم الاعتذار، وإيضاح أن أقوال تيرنر لا تلزم الـ (CNN). ووعد بإذاعة خمس حلقات عن الضحايا الإسرائيليين للإرهاب. وفى الوقت ذاته صرح تومى لبـيـد رئيس حـزب شـينوى (علـمانـى يمينى) بأن "صـحف مـثل

١- نشرة AMFP (جمعية مرسيليا الفلسطينية الفرنسية) يوليه (٢٠٠٢).

٢- إيدان دايت وأدليفى دلاج "تغـطية فلسطين، المستـقبل غيـر المؤكد للصحـافة فى منطقة خطرة" ١ نوفمبر (٢٠٠١) ص٣.

الاندبندنت والجارديان تعمل لحساب المتطرفين من حماس" . وكانت صحيفة هـا آرتس قد استجوبت رئيس قسم الصحافة بالحكومة الإسرائيلية دانيل سيمان عن المآخذ الموجهة إلى هذه الصحف والإذاعات فقال: كل محاولاتنا لإقناع الـ CNN بأن تتوقف عن وصف الضفة الغربية بأنها أرضٍ محتلة قد فشلت." [1]

وقد طالبت الحكومة الإسرائيلية الصحافة الإسرائيلية بأن تبرهن على "وطنيتها" . وأن لا ينبغى الحديث بعد ذلك عن " مستوطنات" ، وإنما "قرى صغيرة" ، والفلسطينيون ليسوا "ضحايا" وإنما "موتى" ،والناشطون ليسوا من "الذين تم اغتيالهم" وإنما "قتلى" [2] وحتى إذا لم تكن هناك رقابة بشكلها الصريح، فإن الضغوط تفرض ثقلها أكثر فأكثر.

وتواجه فرق التليفون الأجنبية صعوبات فى الحصول على تصاريح عمل، والصحافيون الفلسطينيون "تمنع عنهم بطاقة الصحافة" بصورة شبة كاملة. وقد صرح دانى سيمان مسئول مكتب الصحافة بالحكومة قائلا: منذ عامين كنا مضيافين للصحافيين لكن إذا استخدم احدهم حسن ضيافتك لكى يغتصبك فهل تظل ودوداً معه؟" [3]

هناك إذن تحدٍ حقيقى ديمقراطى فى إمكانية إستمرار الإعلام حول ما يحدث فى الأراضى المحتلة. وعندما يحاول نظام وأنصاره فرض ستار من الصمت على عملهم، مهما كانت الأدلة المستخدمة، فإن هذه ليست علامة جيدة أبداً من أجل قضيتهم وسياستهم.

١- ليبراسيون ٢٤ يونيه (٢٠٠٢) "غضب ضد CNN و BBC فى إسرائيل.

٢- لوموند ٢٢ مايو (٢٠٠٢).

٣- ليبراسيون: إسرائيل تتهم الصحافة الأجنبية بعدم الموضوعية ٧ نوفمبر (٢٠٠٢)

الفصل الثالث

كراهية اليهود

من واقع الأيام المظلمة للاضطهادات اللاسامية، يمكن للمرء أن يدرك بسهولة أن كل الجراح لم تلتئم بعد، وأن واجب الذاكرة ليس فقط مشروعاً بل أيضا ضروريا. وإذا كان ذلك يعنى فى المقام الأول الضحايا وأسرهم، فإنه يعنى أيضا كل الديمقراطيين والجمهوريين، لأن القضية، أبعد من طابعها المؤثر، هى قضية سياسية بصورة أساسية. ينبغى التذكر لكن ينبغى الفهم أيضا، حتى لا يصبح فى وسع هذه الأحداث أن تعود من جديد أبداً.

وعلى نفس المنوال ينبغى، بلا كلل، التصدى لكل محاولة للتوظيف السياسى لهذه الأحداث المؤلمة. ولأن هذه الأحداث خطيرة جداً وهامة جداً فإنه لا ينبغى أن تفقد معناها، من خلال إثارتها فى كل مناسبة وخارج السياق. فى فرنسا لم يعد الزمن هو زمن ظلام القرن. لم يعد اليهود فى فرنسا يعانون من التمييز، لم يعد اليهود ضحايا. ينبغى على الجميع تقديم الضمانات حتى لا يتم انتهاك هذا الوضع من جديد، وحتى لا تعانى طائفة من السكان مرة أخرى من التمييز أيا كانت مبرراته.

لا يمكن لأحد أن ينكر أن العداء للسامية لايزال قائما فى فرنسا. ومن المؤكد أن هناك شعوراً متزايداً لعدد من الشباب الذى يسكنون الضواحى، وأنه يأخذ لدى البعض منهم شكل معارضة لسياسة شارون تنتهى إلى

عداوة عامة وتمييزية تجاه اليهود.[1]وواقع أن يكون هناك انبعاث لأعمال تستهدف اليهود كيهود باعتبارها أعمالا لاسامية نتيجة لأحداث الشرق الأوسط، فهو من الأمور المؤكدة والمدانة. وعلى العكس ليس من قبيل الدقة القول أننا قريبون من "ليلة كريستال" جديدة كما يؤكد المجمع الدينى المركزى فى صياغة درامية مبالغ بها، أو أن هناك كراهية لليهود تتأسس من جديد. فالعداء للسامية ليس مع ذلك هو الشكل الأكبر للعنصرية فى فرنسا. فأغلب هذه الأعمال تمت على أيدى الشباب ساكنى الضواحى من أبناء المهاجرين. ومن غير الصحيح القول إن هذه الاعتداءات اللاسامية قد تم إخفاؤها عن عمد حتى لا يوضع المسلمون موضع تساؤل. فالطوائف العربية المسلمة أو السوداء - ناهيك عن الغجر - هم بالتأكيد أكثر معاناة على صعيد العنصرية من الطائفة اليهودية، فضلاً عن أنهم يتحملون رؤية أولئك الذين يتمتعون بوضع أفضل من وضعهم على صعيد التمييز العنصرى يكررون بلا كلل فكرة أنهم يخضعون لظلم لا نظير له.

وتتشكل هنا حلقة مفرغة. فبعض الفرنسيين - من بينهم شباب المهاجرين لكن ليسوا وحدهم - يُحَمِّلون يهود فرنسا المسؤولية لما يحدث فى الأراضى المحتلة من قبل إسرائيل، وينظرون لأحداث "الشوا" نظرة نسبية باسم تعاطف زائف مع الانتفاضة، ورافضين الاعتراف بأن العداء للسامية لا يزال موجودا وأنه يمكن أن يتحول إلى أعمال عنف.

ويثير هذا النمط من السلوك ردود أفعال تتميز بخوف مشروع لدى يهود فرنسا، ويدفعهم فوراً للاستماع بقدر أكبر من اليقظة لأولئك الذين يتنبأون لهم بما هو أسوأ.

١- انظر تحقيق مجلة النوفيل أوبسرفاتور فى عدد ٦ فبراير (٢٠٠٣).

غير ان غلاة الموالين لإسرائيل، والذين يدعـون كل يهود فرنسا للوقوف خلف حكومـة إسـرائيل (أى حكومـة شـارون) والذين يثـيـرون أحـداث "الشوا" حتى ينتزعوا المشروعيـة عن أى نقد موجه إلى هذه الحكومة ذاتها، والذين يماثلون بين "ليلة كريستال" والأعمال اللاسامية الراهنة، لا يفعلون سوى تدعـيم هذا النمط من السلوك، وتدعيم خـرافة أن فـرنسا لاسامـية بشكل عام، وحيث اليهود ضحايا بصـفة خاصة، وبذلك يثير غلاة الموالين لإسرائيل حساسية العديد من الفرنسيين الذين يلاحظون، على العكس، أن اندماج اليهود فى فـرنسا ناجح بشكل كبير. ويثيرون أحيـانا غضب شباب أبناء المهاجرين الذين يعتبرون أنهم يتعـرضون لتمييزات فعلية دون أن يكون هناك تركيز على مصيرهم بنفس القدر.

ويصبح من الصعب أكثر فأكثر الخروج من هذه الحلقة الجهنمية. فالنفى الذى يمارسه البعض، والمبـالغات التى يمارسها البعض الآخر كـانا يخدمان بعضـهما البعـض بالتبادل. وكان هؤلاء يعـيبون تجـاوزات أولئك الآخرين حتى يقدموا بنجاح خطابهم المتجاوز للحدود.

وظهرت فى الشهور الأخيرة وعلى نطاق واسع حوادث ومناقشات حول انبعاث اللاسامية فى فرنسا، وحيث اتهمت الصحافة، شأنها فى ذلك شأن عامـة الناس، بأنهـا تحيط هذه الظاهرة بالصـمت. وصدرت كـتب، ذات نوعيات مختلفـة، مكرسة لهذا الأمر[١]. وأقل ما يمكن أن يـقال عن هذه

١- يمكن أن نشير إلى : بيبرأندريه تاجييف "كراهية اليهود الجديدة"، سبق ذكره، كونونبسكى "الخطأ على اليهود" دار Balland(٢٠٠٢)، رافائيل دراى تحت صهيون دار Michalon(٢٠٠٢)، وليام جولدنادل: مختصر جديد للحقد، (٢٠٠٢)، جان بيير اللالى: الأشكال الجديدة للاسامية، دار : Dasclie de Brouures(٢٠٠٢)، نيقولافيل: تاريخ شخصى للاسامية، دار Rplert Laffon,(2003)

الكتب أنهـا لم تتعرض لأى شكل من أشكـال التعتـيم عليهـا. بل قدمت الصحافة الطائفية عروضا لها، وكـذلك أيضا الصحافة العامة، التى أفردت لها مساحة كبيرة حتى لا تتـهم بأنها معادية للسامية. وبالتوازى مع ذلك تم إعداد تفصيل دقيق للأعمال اللاسامـية حتى يمنح هذا الأمر بعداً ملموساً. وحتى يستند التفسير النظرى إذن إلى وقائع ملموسة.

كرست الصحف الطائفية والعامة، سواء فى صفحات الحوار والمناقشات أو فى صفحات المعلومات، مساحة كبيـرة لمصير الطائفة اليهودية الفرنسية، ومخاوف وقلق بعض أفـرادها. ومن كثرة إثارة صعود اللاسامـية، تصاعد بالطبع خوف البعض. بالنسبة لعدد كبـير، لقد تم الحديث كثيراً إلى درجة أن الأمر صـار واقعا غيـر منكور. ومع ذلك فإن الأمور أكـثر تعقـيداً من ذلك.

من بين هذه الكتب الصادرة التى تناولت ظاهرة اللاسامية الجديدة هناك كتـاب متـميـز عن غيـره من الكتب الأخرى بشكل مـلحوظ، هو كـتاب بيـير-أندريا تاجـييف. فـالمؤلف مديـر أبحاث فى المركـز القومى للبـحث الـعلـمـى (CNRS) ويشغل مكانة هامـة فى الساحة الثـقافيـة.وهو أحد الجامعيين الأكثر شهرة فى هذا البلد، وهو متمكن فى مجال البحث العلمى الدقيق كما هو متألق فى أجهـزة الإعلام. ويعالج تاجييف منذ عدة سنوات قضايا العنصـرية ومكافحة العنصرية. وكتـابه، على عكس الكتب الأخرى فى هذا الموضوع والتى هى أقرب إلى صرخـات غضب، يمتلك بنية فكرية فعلية، وعنوانه ذاته يعكس هذا الأمر.

ولا يتـعلق الأمـر بمجرد اسـتبدال تصور أكثـر جـدة عن كـراهيـة اليهــــود (judephobie) بالتصور الكلاسيكى للعداء للسامية (antisemitisme)

"إذا كنت قد استخدمت المصطلح الجديد "كراهية اليهود" أكثر من المصطلح الجارى "اللاسامية"، فذلك لكى أصف الحقد المعلن أو المؤدلج الذى يستهدف اليهود، وإذا لجأت إلى استخدام مسميات اللايهودى أو كراهية اليهود أكثر من اللاسامى، فإن ذلك لأن مصطلحات "لاسامى اللاسامية" والتى تأسست عليها نظرية الأجناس، ولاسيما التمييز العنصرى بين أجناس على التوالى سامى/ سامية وآرية/هندو أوربية، تبدو اليوم مؤسسة بشكل خاطئ، وغير قادرة على السماح بتصور دقيق للأحداث المعادية لليهود التى يمكن ملاحظتها اليوم فى العالم."[1] فى الحقيقة ليس هذا المصطلح الجديد بجديد. فمنذ عام (١٩٨١) تحدث مكسيم ردونسون عن هذا المصطلح (كراهية اليهود)[2]. لكنه يقدم هنا إذن كسبق تصورى.

يتضمن الكتاب جهازاً من الملاحظات والهوامش وصلت إلى عدد مذهل (٣٩٩ على وجه الدقة) مما يعطى له مصداقية عمل بحثى. والهدف إذن هو ربطه بتقاليد البرهان الأكاديمية وليس بتقاليد أخذ المواقف الشخصية أو المتحزبة.

ونظراً لأعمال المؤلف السابقة حول قضايا مكافحة العنصرية، وحساسيته تجاه هذا الأمر، فقد ترك كتابه أثراً كبيراً. وسيشكل مرجعا علميا لكل أولئك الذين يدينون اللاسامية فى فرنسا.

غير أن الكتاب، فى الواقع، هو كتاب من الكتب السريعة (كندا

١- كراهية اليهود الجديدة، ص٢٥و٢٦.

٢- مكسيم رودنسون، شعب يهودى أم مشكلة يهودية. دار ماسبيرو، (١٩٨١) وأعيد طبعة لدى دار لاديكوفرت، (١٩٩٧).

دراى). كتبه جامعى وله شكل الكتاب العلمى، وهو فى الواقع من الكتب الأيديولوجية، حيث الحقيقة يتم حذفها عندما لا تتطابق مع المسلمات الأولى لتاجييف.

ووفقا لهذا الأخير، بالفعل: "هذه الموجه الجديدة من كراهية اليهود لا يمكن فصلها عن خطاب ايديولوجى ذى طبيعة مُشَرَّعة وتعبوية منتشرة على سطح المعمورة، وحيث نتعرف على تراث معين من الكلمات والقضايا النابعة من تقاليد متنوعة معادية لليهود، لكن أيضا نابعة من بواعث اتهام جديدة، مركزة على "إسرائيل" و "الصهيونية"، ومشبعة بأساطير اندفاعية. وكى نذهب مباشرة لما هو جوهرى، فلنقل إن شكلها البرهانى بصورة عامة هو التالى: "اليهود كلهم صهاينة تقريباً بصورة غير معلنة، والحال أن الصهيونية هى استعمار وامبريالية وعنصرية، إذن اليهود هم مستعمرون وامبرياليون وعنصريون بصورة علنية أو مقنعة."[١] غير أن هناك مشكلة صغيرة، فالمؤلف يوضح لنا بهذا الصدد فى هامش أسفل الصفحة: "أوكد هنا على أن الأمر السابق ليس استشهاداً بل إعادة صياغة وبناء قمت بها بنفسى، لمنطق دارج لا يظهر أبداً تحت هذا الشكل المطور والصريح"[٢].

إذن نحن نبتعد قليلاً عن منطق البرهان القاطع، طالما أن المؤلف ينسب لخصوم غير محددين منطقا بناه بنفسه، وبالتالى يترك المرء كتابا مرجعيا ليدخل إلى كتاب دعائى. ولم لا، غير أنه كان من الأكثر أمانة أن يكشف المؤلف أوراقه منذ البداية.

١- كراهية اليهود الجديدة. مرجع سبق ذكره .ص١٢.

٢- المرجع ذاته هامش رقم ٢ ص ١٢.

لأن تاجييف لم يعد يدفع تفسيره بعيداً، كيف نفسر أن معارضة إسرائيل شهدت ارتفاعاً منذ عامين؟ ألا يعود ذلك - أكثر من اللاسامية الجديدة العفوية - إلى رفض سياسة حكومة إسرائيل إزاء الفلسطينيين؟

ونجد هذا الأسلوب ذا الطابع العلمى المحدود على مدار صفحات الكتاب. "هذا التخطيط لمنطق مؤسس على تسلسل أخطاء لا يتجسد كما هو فى الخطابات العادية حيث لا يظهر إلا بعض المصطلحات التى وضعت فى حالة تعادل."[١]

وكما أكد فانسان ميسو بوليه، مؤسس جمعية التربية فرنسا - إسرائيل - فلسطين: "تاجييف أمام عدم قدرته على إعطاء أمثلة تدعم منطقه عندما يتعلق الأمر بنقد اليسار الراديكالى، يخلق كيانا من كره اليهود لكى يدين كراهية اليهود الجديدة."[٢] بوضوح هذا يسمى تزويراً !

يعطى تاجييف فى الفصل الأول من كتابه عديداً من الأمثلة لاستشهادات تدل على كراهية لليهود. فاللاسامية أو كراهية اليهود موجودة، والتصريحات المؤسفة التى تستعاد من جديد تبرهن على ذلك. المشكلة ونحن هنا على مقربة من التزوير الفكرى، هى أنها ليست صادرة عن الأوساط التى يدينها تاجييف. فى كتابه يجعل أوساط اليسار الموالية للفلسطينيين مسئولة إلى حد كبير عن مناخ كراهية اليهود والاعتداءات التى تتعرض لها الطائفة اليهودية بفرنسا.

غير أنه يستشهد بأصوليين إسلاميين، أسامة بن لادن، قائمة متطرفين، وآخرين مثل فوريسون وجارودى والذين لا أحد منهم يمكن اعتباره ممثلاً لمنظمة التحرير الفلسطينية أو للقضية الفلسطينية. وإذا كان تاجييف يعتقد

١- الشكل الجديد لكراهية اليهود، مرجع سبق ذكره، هامش رقم ١٤٦ ص١٩٣.

٢- تاجييف: مشعل الحريق، AMFP فبراير (٢٠٠٢).

أنه من المفيد أن يوضح أنه مناصـر لحل تفاوضى فى الشرق الأوسط وإنشاء دولة فلسطينية إلى جانب إسرائيل فإن هذا لا يخـرج عن كونه مجرد حجة معكوسة هدفها إخفاء مساندته غير المشروطة لحكومة شارون.(١) لا يوجد فى كتابه نقد واحد ضد السياسـة التى ينتهجها شارون، والتى أقل ما يمكن أن يقال بشأنها إنها لا تفضى مباشرة إلى هدف السلام.

ومع ذلك سيحصل الكتاب على أفضل استـقبال. ولم تجرؤ الصحافة، بما فيها الصحافة العامة، على نقده بل ستفتح له صدر صفحاتها على نطاق واسع، دون أن تعـارضه أبداً مـعارضة جـادة، أو إبراز عدم الاتسـاق فى بعض الفقرات، لأن التشكيك فى الكتاب يعنى بالضرورة كراهية اليهود.

وبالتوازى مع هـذا العمل الفكرى أجرى إحـصاء للاعـتداءات اللاسامـية بهدف إظهار حجم هذه الظاهرة، وفى الوقت نفـسه إدانة عدم تحرك السلطات العامة وصـمت الإعلام. فلنقل بكل وضوح إننا لم نجد أبداً صـمتا بمثل هذا الصخب. وأى شخص يتـابع أجهزة الإعلام فى (٢٠٠١)و(٢٠٠٢) سـيجد عدداً لا يصـدق من المقالات والمنابر حول هذا الأمـر. لقد وقعت اعـتداءات حقا، لكن من المجافاة للحقيقـة تماما القول إنها مرت تحت ستار الصمت. بل بالعكس كان لهـا أثر أكبر من أحداث العنف الأخرى، كـيف يتمكن الموالون لإسرائيل بصورة مطلقة من الموافقة بصورة جـدية على فرضية مؤامرة الصمت على اللاسـامية فى فـرنسا؟ ربما من شـدة التكرار صار البـعض منهم مقـتنعا بذلك. إنه انتصار لمنهج كويه Méthode coué. غير أن فرضية مؤامرة الصمت لا تصمد ثانية واحدة أمام امتحان الوقائع.

١- ويبرؤه-حتى من مذابح صابرا وشاتيلا ص٩٣ "واقع لم يتم تحقيقه بصورة دقيقة ومحرف عن عمد".

فلتكن الأمور واضحة. إن كل عمل معاد للسامية، من حرق معبد إلى إرسال رسالة، مروراً بالاعتداء على أفراد فى الشوارع لمجرد أنهم يهود فقط، ينبغى أن يدان.[1] ليس فقط إدانة أخلاقية وإنما أيضا جنائية. فرنسا الجمهورية ينبغى أن تحمى مواطنيها وكذلك كل الذين يعيشون على أرضها. ولا توجد قضية يمكن لها أن تعطل قوانين الجمهورية. ولا يمكن قبول أى عذر اجتماعى أو إثنى لأولئك الذين يتعدون عن هذه القوانين. ولابد أن تتغلب أدنى درجة للتسامح مع الأعمال غير القانونية والمدانة أخلاقياً. ينبغى أن يكون فى إمكان الآباء اليهود ترك أطفالهم يذهبون إلى المدرسة دون خشية على أمنهم. ينبغى أن يتمكن المرء من التنزه فى شوارع فرنسا - وفى كل شوارع فرنسا - مع القلنسوة اليهودية على الرأس دون أن يشعر بالقلق أو الإهانة أو الإزعاج[2].

والحال أنه إذا كانت فرنسا قد عرفت بالفعل أعمالاً لاسامية فى الفترة الراهنة، فإن هذا لا يسمح بالقول إن الأمر يتعلق ببلد لاسامى أو كاره لليهود، ولا حتى القول إن اللاسامية تشهد انطلاقة فى هذا البلد. وفى الحقيقة، إن صورة فرنسا كبلد تحرق فيه المعابد اليهودية بصورة منتظمة، يستمع فيه إلى صرخات "الموت لليهود" بصورة منتظمة وبدون عقاب، هو

١- وهو ما قمت به بصورة منتظمة فى أعمالى المنشورة حول هذا الموضوع. انظر: "هل من الممنوع نقد إسرائيل؟" صحيفة لوموند ٣١ أغسطس (٢٠٠١)، "على الشيطان أن يعود إلى مخبئه". صحيفة الفيجارو ٦ إبريل (٢٠٠٢)، "حق الرد" فى مجلة آرش عدد يناير (٢٠٠٢)، الحوار وليس المشاجرة مع برتران بادى صحيفة ليبراسيون عدد ١٣ مارس (٢٠٠٢).

٢- لكن ينبغى ايضا التمكن من التنزه مع ارتداء الكوفية فى الأحياء التى تعيش فيها طائفة يهودية كبيرة بدون أن يتعرض المرء لمضايقات.

تشويه ضخم للواقع ويساهم فى تغذية الخوف. ويساهم كذلك فى نفى فكرة أن هذه الأعمال اللاسامية تأتى كرد فعل لدى قطاع من الجمهور.

وكان المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا قد أعد ملفا عن هذه الحوادث، وأذيع على نطاق واسع فى الصحف نهاية (٢٠٠١). وفقا لهذا الملف هناك "٣٣٠ حالة إعتداء" ارتكبت ضد اليهود فى الفترة من ٩ سبتمبر (٢٠٠٠)حتى ٢٠ نوفمبر (٢٠٠١). غير أنه فى الفترة ذاتها أكدت مصادر الشرطة أن عدد أعمال العنف اللاسامية، على العكس، انخفضت فى (٢٠٠١). كانت قد ارتفعت إلى ١١٩ حالة فى سنة (٢٠٠٠) وانخفضت إلى ٢٦ حالة فقط فى عام (٢٠٠١).

ووصلت التهديدات الموجهة لليهود إلى ٦٢٤ حالة فى عام (٢٠٠٠)، وانخفضت إلى ١٥٥ فى عام (٢٠٠١). وعرف عام (٢٠٠٠) موجة من العنف مع استعادة أعمال الصراع الإسرائيلى الفلسطينى فى نهاية سبتمبر. فمكاتب البوليس كانت قد سجلت اتجاها نحو انخفاض الأعمال اللاسامية حتى استعادة الانتفاضة فى خريف (٢٠٠٠). ويؤكد جيرارفيلوس، السكرتير العام للجنة القومية الاستشارية لحقوق الإنسان، أن هذه الأرقام انخفضت لأنها انطلقت من سبتمبر (٢٠٠٠) وتشمل بداية الانتفاضة.[١]

وتم إنشاء "مرصد العالم اليهودى"، من قبل بعض المثقفين الملتزمين بشكل كبير فى الدفاع عن حكومة إسرائيل "لمعادلة التعتيم الذى يغيب بصورة منتظمة حالة اللا أمن التى تحيط باليهودية النوعية" كما يقول صموئيل تريجانو مدير المرصد".[٢]

١- صحيفة لوموند عدد ٦ ديسمبر (٢٠٠١).

٢- "مرصد العالم اليهودى" عدد ١ نوفمبر (٢٠٠١) ص١.

هل يمكن حقا أن نتحدث عن "تعتيم"؟ هل يمكن القول بجدية إن الحوار والنقاش حول اللاسامية والأعمال اللاسامية قد غيبت؟ على العكس أفرزت كل أجهزة الإعلام مساحات وفيرة لهذا الأمر. من المؤكد أن التحذير لم يستخلص مباشرة عندما بدأت هذه الأحداث. لكن هل كان ذلك حقا، كما يؤكد الأكثر موالاة لإسرائيل، لأنه لم تكن هناك رغبة فى تجريم الشباب العربى الذين قاموا بهذه الأعمال؟ بدون شك كان العامل الهام وراء ذلك هو الخشية من إعطاء أهمية أكبر لظاهرة من خلال منحها مزيداً من الدعاية.

من الصائب أيضا أن الإدانة المبكرة من قبل الحاخام الأكبر فى فرنسا قد خفضت من حمية الذين يدينون هذه الأحداث فى داخل الطائفة اليهودية. لقد أعلن جوزيف سيتروك - الحاخام الأكبر - فى أكتوبر (٢٠٠٠)، من القدس، حيث كان يزورها، لإذاعة فرانس انتير وإذاعة الطائفة اليهودية معاً: "لقد طُعن طفل صغير فى مدرسة حر يوسف فى المنطقة التاسعة عشرة من باريس" وأضاف: "لأنه يهودى وفقط لأنه يهودى" وقدم جوزيف سيترك حتى تعازيه للأسرة. وقد انتشرت هذه الإشاعة فى باريس فى اليوم السابق ووصلت حتى إلى مكاتب تحرير الصحف والإذاعات مثل لوموند والقناة الأولى بالتليفزيون الفرنسى. غير أن البوليس قام بتكذيب هذه الإشاعة فى الحال. ولم يتم استعادتها بعد ذلك حتى من قبل الإذاعات اليهودية(١).

كان على الحاخام أن يعترف بخطئه بعد قليل، وأن يطلب من الطائفة أن تتحلى بالهدوء.

١- صحيفة لوموند عدد ١٣ أكتوبر (٢٠٠٠).

وعلى موجات الإذاعة اليهودية FM اعلى موسى كوهين، رئيس المجمع الدينى المركزى بباريس، عن أسفه للتسرع الذى وقع فيه الحاخام الأكبر ليهود فرنسا، وطلب من الطائفة اليهودية "تجنب نشر معلومات لم يتحقق منها البوليس". ويقال فى الإذاعات اليهودية "مثل هذه الشائعات نتلقى منها ما يتجاوز الخمسين فى الساعة الواحدة !": نساء ألقى بهن على قضبان المترو، أطفال تم الاعتداء عليهم أثناء خروجهم من ليسيه (فى المنطقة الثالثة عشرة بباريس) الخ.[١]

وإذا لم تكن إدانة العمليات اللاسامية سريعة وحازمة بعد خريف (٢٠٠٠) فإن ذلك ربما يعود إذن إلى قطع الطريق على هذا النوع من الانزلاق نحو مثل هذه الأقوال. لكن من غير الصائب القول إن ذلك تم برغبة من أجهزة الإعلام لتغييب هذا الأمر (إنها على العكس جعلت منها قضية كبرى) أو بصمت من السلطات العامة.

ومع ذلك فالأمور تبدو واضحة أمام المجمع الدينى المركزى، فهم يرون أمام العنف اللاسامى: أنهم مضطرون لاعتبار أن اليهود يعيشون حاليا مقدمات "ليلة كريستال" جديدة، مع غياب ردود الافعال المناسبة من قبل السلطات الفرنسية.[٢]

إنها مقارنة لا منطق يحكمها. إنها هنا نوع من الهذيان. فإقامة تماثل

١- من جانبه صرح هاجين برج مدير راديو الطائفة اليهودية: "هناك أولئك الذين يريدون زرع الشقاق: أولئك الذين يريدون تأليب الطائفة اليهودية ضد الطائفة المسلمة، وأولئك الذين من مصلحتهم، فى اليمين المتطرف، إثارة المشاعر بين الطائفتين" صحيفة لوموند ١٣ أكتوبر (٢٠٠٠).

٢- صحيفة ليبراسيون، عدد ٢ إبريل (٢٠٠٢)، "بعد الانشقاق الإجتماعى، انشقاق الحقد".

بين الأعمال اللاسامية التى وقعت فى فرنسا بعد خريف (٢٠٠٠) "وليلة الكريستال" فى ألمانيا النازية، هو ببساطة نوع من التخريف. من غير الصحيح - والشائن - القول إن هذه الأعمال تمت دون أن تتحرك السلطات العامة.

من المؤكد أن السلطات العامة غير قادرة على الإيقاف الشامل والفورى لهذه الأعمال. لكن كيف يعتقد البعض أن هذا الأمر تم عن عمد؟

فلنذكر بأن "ليلة كريستال" وقعت ليل ٩و١٠ نوفمبر (١٩٣٨)، فى ألمانيا النازية. حيث قامت فصائل هجومية باعتداءات كبيرة على اليهود، واغتالت ٩١ يهودياً لأنهم كانوا يهوداً، وحطمت مئات المعابد اليهودية، ونهبت ٧٥٠٠ محل، وخربت شققاً ومكاتب ومقابر، واعتقلت ثلاثين ألفاً من اليهود بأوامر، وتم كل ذلك بموافقة السلطات الألمانية وتشجيعها.

من المتعذر وضع هذا الحدث المنذر بالحل النهائى على قدم المساواة مع ما حدث فى فرنسا بين سنة (٢٠٠٠) و (٢٠٠٢).

أضف إلى ذلك أن شخصيات يهودية عديدة رفضت هذا الشعور بالكارثية المفرطة "الخلط التاريخى لا يساعد فى شئ. هناك علامات قوية للجميع، وهذه العلامات ينبغى أن تظل كما هى" كما يقول باتريك كلوجمان رئيس اتحاد طلاب يهود فرنسا. وكما يقول أيضا سيرج هاجين برج مدير راديو الطائفة اليهودية "لابد من مراعاة الاعتدال والتروى، وبتعبير آخر إذا كان هذا سيزيد الأمور سوءاً فأى كلمات علينا أن نستخدمها؟" غير أن هذه الكلمات المعتدلة ستغطى بسيل من المزايدات. فأجهزة الإعلام الطائفية ستكرر بلا كلل أو ملل هذه النغمة مساهمة بذلك فى خلق مناخ فعلى من الخوف والقلق داخل الطائفة اليهودية.

فى هذا الشأن هناك تقريران يستحقان الفحص والتحليل. الأول: نشرة مرصد العالم اليهودى والتى ستعلن "قائمة بالحوادث التى كانت الطائفة اليهودية ضحية لها منذ الانتفاضة الثانية" وأعدها كل من المجمع المركزى، والصندوق الإجتماعى اليهودى الموحد، والمجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا. والثانى: كتاب "المعادون لليهود" الذى أشار إلى ٤٥٠ حالة معادية لليهود . . .

فى هذه النشرة يقر المرصد ذاته: "نجد فى هذه القائمة أعمالاً خطيرة كما نجد حوادث صغيرة، ويستخلص من عددها وتراكمها مناخا عاما يتميز بانعدام الأمن للأشخاص والممتلكات، على مدار فترة دائمة لم تنته بعد، ومولدة شعوراً بأن أفراد الطائفة قد تم التخلى عنهم وأنهم بلا عون"(١) ومن بين الأعمال التى تم حصرها فى القائمة نجد أن الثلثين عبارة عن "رسائل وشتائم لاسامية" وهى أمور غير مقبولة لكنها ليست فى الوقت نفسه مقدمات لـ"ليلة كريستال" جديدة.

فلندقق فى حقيقة الأشياء. سنجد بين "الأعمال العنيفة والحوادث" ما يلى:

فى الفترة من ١٧ إلى ١٨ سبتمبر (٢٠٠٠) تعرض المعبد اليهودى فى ضاحية من ضواحى باريس Ris-orangis إلى عملية تحطيم بغرض السرقة وتخريب عمدى للممتلكات الخاصة. وفى ليل الجمعة إلى السبت ٧ أكتوبر (٢٠٠٠) تعرض المعبد اليهودي فى ضاحية أخرى من ضواحى باريس هى Bagnolet إلى سطو وتخريب، ولم يعثر على أى علامة لاسامية فى المكان. وفى ١٠ أكتوبر (٢٠٠٠) تم إحراق شقتين، واحدة منهما احترقت

١- نشرة رقم ١، نوفمبر (٢٠٠١).

بشكل كامل، فى choisy-le-roi. وفى أكتوبر (٢٠٠١) تـعرض شاب من مدرسة موسي بن ميمـون إلى نهب وشتم أثناء خروجه من المدرسة. وفى ليل ١٩ يناير(٢٠٠١) تعرض المعـبد اليهـودى فى المنطقة الثانية عـشر من باريس إلى سطو وسرقـة صندوق التبرعـات وكسر قـفل الباب. وفى ١٢ سبتـمبر (٢٠٠١) تعرض المعبـد اليهودى فى pantin إلى كـسر فى قـفل الباب. وفى ٢٧ سـبتمبـر(٢٠٠١) ألقيت زجاجـة بلاستيكية على المعـبد اليهـودى فى المنطقة التـاسعـة بباريس. كـما تم إلقـاء البيض على المعـبد اليهودى فى Issy-les-moulineaux أثناء إحتفال يوم كيبور(*).

هناك أيضا، فى القائمـة، "أعمال أيديولوجية، تهـديدات" وتم حصر لأعمـال من قبـيل "إلقاء علـب كوكاكـولا وحبـات أبوفروة على المعـابد اليهودية أثناء ممارسة الطقوس الدينيـة، تهديدات عبر البريد (أغلب الوقائع التى تم حـصرها وصـفت بأنها "رسـائل لاسـاميـة") أو رسائل بالبـريد الألكترونى أو الكتابة على الجدران ("الموت لليهود" ، "يهود أقذار").

هناك أيضا أعمال تبدو خطورتها أقل أهمية.

"فى ٢٨ سبتمبر(٢٠٠١): مر مـغاربة أمام المعبد اليهودى فى Blanc-Mesnil، وهم يشيرون بأياديهم بطريقة سلبية." وفى ١٨ سبتمبر (٢٠٠١) سأل شـاب مغربى فى الخامـسة عشـرة من عمره أحد رجـال الشرطة أثناء حراسته للمعبد اليهودى بالمنطقـة التاسعة عشر بباريس: كم من الأشخاص مكلفين بالأمن فى هذا المكان؟

فى ٢٤ أبريل تعرض أوتوبيـس خاص بمدرسة يهـودية إلى تخريب من

(*) يوم كيبور: (يوم الغفران) أى يوم الكفارة، ويعد هذا اليوم واحداً من أهم الأعياء اليهودية، وهو يوم العـاشر من شهر أكتـوبر. ويبدأ هذا العيد قـبل غروب الشمس من اليوم التاسع من أكـتوبر، ديسمبر حـتى غروب شمس اليوم التالى، فـمدته حوالى ٢٧ ساعة، يجب فيها الصيام ليلا ونهاراً وعدم الاشتغال بأى شئ ماخلا العبادة - المترجم.

قبل اثنى عشر شابا فى حى أورلى. وأصيب هيكل الأتوبيس واخترق حجر الزجاج. وأدان مسئولو المدرسة هذا الاعتداء اللاسامى وقدمت شكوى إلى قسم الشرطة، التى نظرت إلى الأمر بصورة واقعية: "من المحتمل أن يكون العدوان قد استهدف الطائفة اليهودية، لكن ينبغى أن يكون معلوماً أيضاً أن هذا المكان قد شهد سلسلة من التجاوزات كما أكد مصدر مسئول بالشرطة. فإذا لم يكن المستهدف هو أوتوبيسات النقل العام فإنها سيارات الشرطة التى تتعرض للتخريب فى هذا المكان. وقد ألقيت قطعة أسمنتية من حافة الرصيف على سيارة رينو. واخترقت زجاج السيارة ولم يصب أحد، وكان ذلك معجزة."[1]

١- ليبراسيون، ٢٦ إبريل (٢٠٠٢) "تخريب أتوبيس مدرسة يهودية" اعتداء آخر قد يثار: "لقد جاءوا لقتل اليهود لكنهم فضلوا سرقة حقائبهم أكثر من مطاردتهم". وفقا لهذا المحقق فإن مسار الاعتداء المتعمد ضد لاعبى نادى كرة قدم مكابى للطائفة اليهودية تم يوم ١٠ إبريل (٢٠٠٢) فى بوندى، من خلال كوماندوز ملثمين ومسلحين بقضبان حديدية، الأمر الذى يكشف غموض البواعث العميقة للعصابات التى ترتكب اليوم أعمالا لاسامية فى فرنسا. تحليل يوافق عليه باتريك مؤسس نادى الكرة مكابى "العدوان على لاعبينا له طابع لاسامى. لكنه يحيل أكثر تهدم بنية الشباب البلطجى أكثر من أيدولوجية لاسامية منظمة. اليهود اليوم صاروا مستهدفين مثلهم مثل رجال الشرطة والنواب المنتخبين، وباعتدائهم علينا فإنهم يعرفون أنه سيتم الحديث عنهم فى أجهزة الإعلام". وهذا الرجل يعيش فى بوندى منذ ثلاثين عاماً وله علاقات طيبة مع الطائفة المسلمة بالمدينة، التى فضلا عن ذلك أدانت بشدة وبشكل قاطع هذا العنف" وقد سئل باتريك عن مدى فعالية التوجه للإعلام بصدد هذا الحدث، فأوجز بألفاظ قوية هذا المأزق "بإخفاء الاعتداء وعدم الحديث عنه فإن ذلك يؤدى إلى جعل هذه الأعمال من الأمور العادية مع مخاطرة إجراء تحقيق بوليسى مرتب، وإذا تحدثنا عنها فى أجهزة الاعلام فإننا ننزلق إلى لعبة المعتدين بعمل دعاية لهم وإعطاء فكرة للآخرين ليقلدوهم." مجلة لوبوان عدد ١٩ إبريل (٢٠٠٢): "اليهود هل هم مستهدفون مثل رجال الشرطة والنواب المنتخبين؟".

وفى ٣٠ مارس أكد زوجـان يهوديان شابان أنهمـا كانا ضحيـة اعتداء لاسامى من قـبل عدة مغاربة. لكن المصـادر القضائية قـالت إن الأمر كان أكثر تعقيداً. فاليهـودى الشاب معروف لدى أقسام البوليس بالعنف، وكان قد اعتدى على أحد المغاربة قبل خمسة عشر يوماً. وأن صديق هذا الأخير قد اشتبك معه بعد أن تقاطعا فى الطريق[1].

تتضمن الأرقام الكبيرة إذن الاعتداءات الأكثر خطورة وتلك التى ينبغى أن تدان لكن لا يمكن أن ينظر إليـها على أنهـا تشكل انبعـاثاً للاسامـية لا يجرى التحكم فيه فى فرنسا.

ويصف المرء أحيانا بعض الأعمال بأنها لاسامية فى حين لم تخرج عن كونها مـجرد أحداث عارضة. فى الليلة الواقعـة بين يومى ١٠و١١ أكتوبر (٢٠٠٠) احترق المعبد اليهودى بـ Trappes. وأدانت الصحافة فى مجملها هذا الحدث غـير المحتمل. وبـعيداً عن فرضـية الصمت الذى يحـيط بهذه الأعمـال اللاسامية أدانت صحيـفة لومـوند فى ١٣ أكتوبر هذه الأعـمال وقالت "هذا الأمـر للأسف ليس معـزولا... والتحريض ضـد السامـية يتزايد منذ عدة أيام...وبعد التجليات اللاسـامية التى لا يمكن قبولها فإن كل اعتداء ينبغى أن يدان بدون تحفظ وأن يعاقب بدون هوادة"[2].

تم توقـيف ستـة من الشبـاب تتراوح أعـمارهم بين الثـمانيـة عشـرة والعشرين، فى ١٨ أكتوبر، وقـد أنكروا أى مشاركة لهم فى الوقائع "ولم يسـمح أى دليل مـادى حتى اللـحظة لتحـمـيلهم المسـئوليـة عن الحـريق

١- صحيفة الفيجارو عدد ٦و٧ إبريل (٢٠٠٢).

٢- "احترق معبد يهودى" لوموند ١٣ أكتوبر (٢٠٠٠).

الإجـــرامى"[1] "وكان هؤلاء الشـباب من الذين اعتـادوا ممارسة العنف بالمدن". "وسيطلق سراحهم بعد ذلـك على التوالى فى ٥و١١و١٥ ديسمبر مع وضعهم تحت رقابة قضائية"[2]

وفى ١٨ مارس(٢٠٠٢) أعلـن المدعى العام فى بلاغ رسـمى أن حرق المعبد اليهودى لم يكن عملا لاساميا "يبدو أن سبب الحريق يعود إلى عامل كان تحـت تأثير شـرب الخمر بـصورة مفـرطة، وألقى عـقب سيجـارته" "والتحـقيق مستمـر لتحديد ما إذا كـان الحريق قد تم بصورة إراديـة" كما يقول بلاغ المدعى العام.[3]

فى ١٢ مارس(٢٠٠١) نشر اتحاد طلاب يهود فـرنسا بالتعاون مع SOS ضد العنصرية كتاباً بعنوان "المعادون لليهود" Les Antifeujs.[4] وأحصى هذا الكتـاب ٤٥٠ عمـلاً ضد اليـهود بـدءاً من الكتابة على الجـدران إلى التهديد بالموت، ومن إلـقاء الأحجار إلى حرق المعـابد أو المدارس اليهودية فى الفترة من ١ سبتمبـر (٢٠٠٠) حتى ٣١ نوفمبر (٢٠٠٢). وهى وقائع قابلة للنقاش من حيث تفسيرها وخطورتها.

هكذا يمكن أن نقرأ :

فى الفترة من ٢٢ إلى ٢٨ يناير (٢٠٠١): "قام شخص يقيم فى سكن مجاور لمدرسـة يهودية فى Epinay، وهو مستـاء من الصخب المنبعث من

١- لوموند ٢٠ أكتوبر (٢٠٠٠).

٢- المصدر ذاته ١٧ ديسمبر (٢٠٠٠).

٣- لوموند ٢٠ مارس (٢٠٠٢).

٤- المعادون لليهود، الـكتاب الأبيض للعنف اللاسامى فى فرنسا سبـتمبر (٢٠٠٠)، دار calman-levy

المدرسة، بتهديد الطلاب ومعه بندقية صيد، واقتحم آخر المعبد اليهودى فى شارع cadet رقم ١٠ بالمنطقة التاسعة من باريس، وهو مزود بقطعة من الحديد هدد بها الممارسين للطقوس الدينية والحاخام، الذين تمكنوا من قيادته حتى باب الخروج واقتاد البوليس هذا الشخص وأودعه فى مصحة عقلية".

وتكثر تهديدات الجيران المنزعجين فى المدن. ربما كانت هذه الحادثة عملاً لاساميا حقا، لكن ربما كان سيسلك بالطريقة ذاتها، غير المقبولة، فى مواجهة أطفال مدرسة غير يهودية، أما بالنسبة لحادثة شارع Cadet فهل كان الأمر يتعلق برجل متخلف عقليا أم لاسامى أم ربما الاثنين فى وقت واحد؟ فى ٨ مايو (٢٠٠١) تحطم زجاج فى مدرسة يهودية فى سارسيل. وفى ٢٧ سبتمبر (٢٠٠١) وأثناء خروج المتعبدين من معبد فيترى وجد شخص فى شقة مقابلة وكان له مظهر من يصوب على الآخرين.

وكما فى القائمة المنشورة فى مرصد العالم اليهودى فإن أغلب الأعمال المشار إليها فى هذا الكتاب هى رسائل عامة ورسائل الكترونية واتصالات تليفونية لاسامية.

فلتكن الأمور واضحة. لا أريد القول إن الشتائم والإهانات يمكن أن تكون مقبولة. ولا أعرف كيف يمكن للمرء الذى يجمع بين الخسة والنذالة أن يجد سروراً فى إرسال خطاب لاسامى، ناهيك عن عدم التوقيع عليه؟ إن هذا عمل طائش ومثير للغضب مثله تماما مثل أولئك الذين يصفون من ينتقدون شارون بأنهم جوبلز جديد أو درومون جديد. وإذا كان علينا أن

نحكم على مناخ الحقد تجاه طائفة وفقا لهذه المعايير فإنه يمكن القول إن "كراهية السود" أو "كراهية العرب" هى أكثر انتشاراً. ليس مقبولاً أن يقال لأحد "يهودى قذر" لكن إذا كان علينا أن نحصى عدد المرات التى يسمع فيها المرء فى فرنسا شتائم "عربى قذر" "زنجى قذر" سنكون بعيداً تماما عن رقم ثلاثمائة أو أربعمائة فى السنة.

فلنقتصر فقط على الأعمال العنيفة، وسنجد القائمة من الناحية العددية أقل أهمية. وهذا لا يقلل شيئاً من خطورة الوقائع. وحتى إذا لم يكن هناك سوى عمل لاسامى واحد فإنه ما كان ينبغى له أن يوجد. لماذا إذن جرت العادة منذ هذا الوقت على الاستشهاد برقم ثلاثمائة أو أربعمائة والدمج بين الأعمال الأكثر خطورة، كحرق المعابد والاعتداءات الجسدية والأعمال اللاسامية الأخرى الأقل خطورة؟ وسرعان ما سينمحى هذا التمييز بين أعمال صغرى وأعمال خطيرة لصالح اتجاه يسعى لتصوير الوضع بصورة درامية.(١)

وعندما استعادت مجلة الإكسبريس(٢) ومجلة القيم الراهنة،(٣) فى ديسمبر (٢٠٠١)، بأمانة شديدة ملفى المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية فى فرنسا، وذكرتا الأرقام لم تشر أى منها إلى هذا التمييز،

١- فى كتابه "فرنسا وإسرائيل" كتب إيلى بارنافى (ص٩٠): "ما يثير دهشتى فى أغلب المدن التى زرتها الفارق بين شعور عام بأزمة خطيرة على المستوى القومى، والتأكيد شبه الطقوسى لقادة الطائفة اليهودية والذى كان يرى "عندنا لا توجد مشاكل، الأمر يسير على مايرام".

٢- مجلة الإكسبريس نوفمبر (٢٠٠١)، "الأرقام السوداء للعداء للسامية".

٣- القيم الراهنة valeurs actualles عدد ٧ ديسمبر (٢٠٠١) "تحقيق: "لماذا يشعر يهود فرنسا بالخوف؟.

واكتفت بالإشارة إلـى المعابد المحترقة، دافعة بذلك إلـى الاعتقاد بأن هذه الأرقام تتعلـق بأعمال عنيفة جـداً. وهذه الطريقة ملتوية بشكل كـبير ولا تسمح بإعطاء القراء معلومات موثوق بها.

لا يمكن أن نضع على قدم المساواة حـرق معبد وإرسال رسـالة شتائم. وعلى صـعيـد شخـصى، وبعد نشـر مقـالة إيلى بارنافى فى لومـوند ٨ أغسطس (٢٠٠١)، التى يتهـمنى فيها بأننى أقف على حدود اللاسـامية، تلقيت فى شهر واحـد مئات الرسائل الألكترونية والعـادية مملوءة بالشتائم والإهانات والتهـديدات. وهناك شخـصيات يهـودية عديدة انتقـدت بشدة سيـاسة آربيل شارون وتعـرضت لتجريم وإهانات وتهـديد بالموت للبعض منهم. وليس فى هذا مـدعـاة للشك، فـلأن هذه الانتـقادات جـاءت من أعضاء فى الطائفة اليـهودية فقد تم النظر إليها بصـورة أسوأ من قبل غلاة الموالين لإسرائيل. وتلقوا تهـديدات بالموت إذن لأنهم يهود. هل ينبغى أن نعد هذه التـهديدات ضمـن الأعمال اللاسـامية؟ لا أحـد من الذين أعدوا الملفين قام بذلك. كيف نفسر هذا الامر؟

فى الحقيقـة إن ثلاثمائة أو أربعمائة عمل من هذه النوعيـة هو بالتأكيد رقم هام، ولا يوجد عـمل منها يمكن أن يبرر بأعـذار، لكن فى مناخ عام من اللا أمن يبـدو الرقم أقل أهمـية حـتى إذا ظلت هذه الأعـمـال غيـر مقبولة.

هكذا، أنشـأت شركة النـقل العام هيكلا للدعم النفـسى لموظفـيـها الذين تم الاعتداء عليـهم: وصل عددهم إلى ألفين فى عام (١٩٩٨)، تم الاعـتداء عليـهم لفظيا وجـسديـا، وفى المقدمـة رجال التـفتـيش والأمن والسائقين[1].

١- ليبراسيون ١٨ أكتوبر (١٩٩٩).

وأثناء محاكمة أحد سائقى الأتوبيسات فى مارسيليا الذى ادعى وقوع اعتداء عليه حتى يتم نقله على خط سير أقل خطراً، تمت الإشارة إلى وقوع أكثر من ٥٠٠ حادثة (إلقاء حجارة، الخ) ودائما فى مارسيليا أحصى البوليس، فى شهر يونية فقط من عام (٢٠٠٢)، ١٦٠ حالة سرقة بالإكراه من السيارات[١].

نحن نعيش، مع الأسف، فى مجتمع لا أمن بدرجة ما، الذى فى طريقة إلى أن يصبح، فضلا عن ذلك، من الأمور المألوفة. بالنسبة للعام (٢٠٠١) هناك إجمالا أربعة ملايين جريمة ومخالفة، منها ٩٠٠,٠٠٠ ارتكبها أحداث[٢]. هذا الامر إذن لا يعنى فقط يهود فرنسا حتى إذا كانت: الاعتداءات ذات الطبيعة العنصرية أكثر خطورة من المخالفات الأخرى. وبالتالى فإن أرقام كل الجرائم والجنح، وليس فقط الموجهة ضد اليهود، تشهد ارتفاعاً، ولا يعنى هذا إنكاراً لوجود الأعمال اللاسامية وإنما إلى تخفيف واقع أنها قد تشير إلى انتشار كبير للاسامية[٣].

أعلن وزير الداخلية، فى أغسطس (٢٠٠٢)، تناقص الأعمال اللاسامية. ولم يصدر أى احتجاج من قبل المنظمات اليهودية إزاء الأرقام المعلنة، والتى انخفضت فيها الأعمال المعادية لليهود من ١١٩ فى إبريل (٢٠٠١) إلى ١٠ فى مايو، و٧ فى يونيه و٢ فى يوليو. وبالنسبة للتهديدات كانت الأرقام هى ٤٤٨ فى إبريل وصلت إلى ٨ فى يوليه[٤].

١- الفيجارو ٢٠ يوليه (٢٠٠٢).

٢- المرجع ذاته ٢٦ يوليه (٢٠٠٢).

٣- بحكمته المعهودة اعترف تيوكلاين: "نحن نعيش فترة تثير فيها قضايا الأمن معظم السكان والطبقة السياسية. مشكلة انعدام الأمن ليست مشكلة خاصة باليهود."

٤- لوموند ١١-١٢ أغسطس (٢٠٠٢).

وكان هـذا الانخفاض مـصدر سـرور الجمـيع دون أن يتمكن أحـد من تفسـيـره، برغم أن الصراع الإسـرائيلى -الفلسطيـنى لم يعرف بعـد طريق التـسوية. وكـانت أجـهـزة الإعلام الفـرنسـية تتـهم دائمـا بأنهـا معـادية للإسرائيليين. فهل يعود هذا الانخفاض إلى تغيير الحكومة الفرنسية؟ هل هو عائد للهـزة التى حدثت فى٢١ ابريل؟ الإجـابة بالنسبـة لروجيـه كوكيـرمان بسيطة: "لدينا الآن وزير للداخليـة يأخذ اهتمامات الطائفة اليـهودية بصورة أكثر جدية."[١]

إضـافـة إلى ذلك، من هم أولئـك الذين يرتكبـون هذه الاعـتـداءات اللاسامـية؟ هل هم من عـملاء الشـبكات الإسلامـية أو من أفراد الـيمين المتطرف؟ لا، فى أغلب الأوقات يظهر المحققـون أن الأمر يتعلق ببلطجية، يتذرعون بأحـداث الشرق الأوسط ليمارسوا مواهبـهم فى التكسير، أو من الشـباب الجـانحين بالمدن، والذين يعـتقـدون أنهم قـد وجدوا فى العـداء للسـامية دافـعـا وتوحداً مع الشـعب الفلسطيـنى كطريقـة للوجود أمـام الآخـرين؟[٢] يظهر المحققون أن الذين تم توقيـفهم ليسوا معروفين بأنهم قريبون من الشبكات الإسلامـية، وهم كذلك أقل تعاطفا مع الفلسطينيين: هم، فى الأغلب، من الجانحـين ذوى السوابق المتعـددة. وهـم بشكل عام من الشبـاب العاطل عن العـمل والمعروف من قـبل لدى أقسام الـبوليس. وهذا لا يجعل أعـمالهم أقل خطورة أو قـابلة للعفو. ولا يـقلل فى شيئ

١- Actualité juive عدد ١٦ أكتوبر (٢٠٠٢).

٢- هاتان الفرضـيتان الاخيـرتان تبدوان، فى اللحظة الراهنة، الأكثـر مصداقيـة وفقا للتحقيقات الجارية فى باريس ومونبلييه ومارسيليا واستراسبورغ. مجلة الاكسبريس عدد ٢٥ إبريل (٢٠٠٢) "من الذى يهاجم اليهود؟".

المسئولية الجنائية لهؤلاء البلطجية. لكن هذا الأمر ينبغى أن يمنع الخلط الذى يحدث فى العادة بطريقة حمقاء وغير دقيقة بين أولئك الذين يعلنون احترامهم لحقوق الفلسطينيين وبين مرتكبى هذه الأعمال المخالفة. (١)

أضف إلى ذلك أن السيدة ليلى شهيد المفوض العام لمنظمة التحرير الفلسطينية فى باريس قد أدانت هذه الأعمال على موجات إذاعة فرانس أنفو معلنة "نداء إلى كل الذين يريدون تحويل معركة الشعب الفلسطينى إلى معركة ضد الشعب اليهودى أو الدين اليهودى" وهذه الاعتداءات "غير مقبولة" وتمثل "أكبر جريمة يمكن أن يرتكبها المرء ضد الفلسطينيين". (٢)

وفضلا عن ذلك ليس من الدقيق القول إن السلطات العامة لم تقم بشيئ. وبين ٣١ مارس(٢٠٠٢) وبداية إبريل تم توقيف ٣٩ شخصا لنيلهم من الأشخاص والممتلكات الخاصة بالطائفة اليهودية. وتم إيداع عشرة منهم السجن. (٣) كما قام النائب العام للجمهورية بفتح تحقيق فورى عندما تقدمت منظمة ليكرا بشكوى لسماعها هتاف "الموت لليهود" أثناء مظاهرة موالية للفلسطينيين فى ٧ أكتوبر(٢٠٠٠). كما عوقب كذلك الذين حاولوا إشعال النار فى معبد يهودى بمدينة مونبلييه بسنتين وثلاث سنوات سجن.

١- كما أكد برنارد هنرى ليفى على أن : "المعابد اليهودية تمثل رمزا لشيئ ما يتجاوز العداء للسامية. لأن هؤلاء المخربين أنفسهم سيهجمون غدا على بلدية، جامعة، ليسيه، مكتبة، إستاد رياضى، من يعرف" الفيجارو ١١ ابريل (٢٠٠٢).

٢- لوموند ٣ ابريل (٢٠٠٢).

٣- المرجع ذاته ١٠ ابريل (٢٠٠٢).

وابتداء من رئيس الجمهورية إلى رئيس الوزراء وأعضاء الحكومة، إلى البرلمانيين والصحفيين ومسئولى الجمعيات، أدانوا عن حق الأعمال اللاسامية[١].

يقول وليام جولدنادل، ولا أعرف كيف تجرأ على ذلك، : "تنطوى الطائفة اليهودية على نفسها لأن الجمهورية ونخبها قد تركوها تسقط". [٢] وهو أمر يحيل إلى عملية منظمة تستهدف تصوير الذات على أنها ضحية.

فى ٣ يناير (٢٠٠٣) جرح الحاخام جابرييل فارحى بعد تلقيه طعنات بسكين فى بطنه وهو داخل المعبد اليهودى. والذى اعتدى عليه، كان مقنعا بخوذة وقد فر هاربا وهو يصيح بالعربية "الله أكبر". وكان الحاخام ينتمى إلى الحركة اليهودية الليبرالية بفرنسا ويدعو للحوار الإسرائيلى-الفلسطينى. وإذا كان من المناصرين لشارون فإن هذا لم يكن ليبرر فى شيئ العدوان عليه، وكانت تهديدات تشير إلى الجهاد قد وجهت إليه، وتلقى صباح اليوم ذاته رسالة تشير إلى : "سنذبح الحاخام جابرييل فارحى وسنثأر لدم إخوتنا الفلسطينيين". [٣] وأعربت كل الشخصيات السياسية وفى مقدمتها رئيس الدولة عن تأثرها.

١- لاحظ جان دانييل عن حق : "كيف نفسر سلسلة الاعتداءات، العنف، تدنيس المقابر بغرض لاسامى التى وقعت فى فرنسا؟ بكل بساطة لأن هناك عدد ١ من الشبان المهاجرين المسلمين العاطلين عن العمل، والانحراف كامن فيهم والذين لا يتخلون عن المخدرات والجريمة إلا لكى يتوجهوا لعمليات تخريب تستند إلى ذريعة سياسية يستمدونها من القضية الفلسطينية. وما ينبغى أن نؤكد عليه أن رئيس الدولة ورئيس الوزراء وكل أعضاء الحكومة والمعارضة وكل السلطات الدينية (بما فيها الإسلامية) والجامعيين قد أدانوا بشدة أعمال العنف العنصرية هذه ورفضوها. وفى فرنسا التى تجولت فى كل أقاليمها لإعطاء محاضرات لا يوجد أدنى مظاهرة، ولو حتى سرية تحمل أدنى مساندة لهؤلاء الشباب المخربين" النوفيل أوبسرفاتور ٤ يوليه (٢٠٠٢)، الفرنسيون هل هم لاساميون؟

٢- مجلة لوبوان ٣ يناير (٢٠٠٣).

٣- لوموند ٥-٦ يناير (٢٠٠٣).

وكان الاتحاد اليهودى الفرنسى من أجل السلام يميل أكثر، أمام الطريقة المستخدمة فى الاعتداء، إلى رؤية ظل ما لرابطة الدفاع اليهودية أو جماعة البيتار Betar التى تهدد دائما قادتها، وهو ما أدانه جان كاهن رئيس المجمع الدينى المركزى مشيرا إلى هذا التفسير بوصفه "احتقاراً للوقائع".[1] وسيقيم الحاخام بعد ذلك صلاة يوم ٨ يناير حضرها أربعة وزراء وأربعة رؤساء وزراء سابقين[2]. ولم نر مثل هذه التعبئة فيما يتعلق بالاعتداءات العنصرية المعادية للمغاربة والتى أفضت إلى حالات موت، أو فيما يتعلق بمفوض الشرطة الذى أصيب إصابة أكثر خطورة أثناء المظاهرة الموالية لإسرائيل فى ٧ إبريل (٢٠٠٢)، وكذلك عندما حدث فى الإسبوع ذاته حيث طعنت معلمة بسكين فى مؤسسة مدرسية. وبعد ذلك أشارت الصحافة إلى أن "مصادر قريبة من الملف"، الخاص بالحاخام فارحى، تركت شكوكاً حول حقيقة الاعتداء. فالجرح وتمزيق الثياب تبدو غير متوافقة مع هذا السيناريو[3].

فى يناير (٢٠٠٣) طعن طالب معلمة بشكل خطير فى ليسيه مهنى، ونقلت إلى المستشفى، ولم تكن فى حالة تسمح بالتعليق على الحادث فى اليوم ذاته كما فعل الحاخام فارحى. ولم يكن هناك عرض من الوزراء ورؤساء الوزراء السابقين للاطمئنان عليها.

يمكن للمرء مع ذلك الاعتقاد بأن المدرسة مقدسة، وأن أمن المعلمين والأطفال قضية تستحق الانتباه، وأن هذا الحادث هو أيضا، على الأقل، خطير مثلما حادث طعن حاخام فى معبده. ولم يكن هذا هو رد فعل

١- الفيجارو ٧ يناير (٢٠٠٣).

٢- لوموند ١٠ يناير (٢٠٠٣).

٣- مجلة ماريان ١٠ يناير (٢٠٠٣)، والفيجارو ٢٢ يناير (٢٠٠٣).

مختلف المسئولين السياسيين الفرنسيين. وهذا فى حد ذاته يمكن أن يبدو مذهلاً. غير أن هذا الاختلاف فى رد الفعل لم يحل دون اتهام بعض الدعائيين السلطات بالسلبية أمام اللاسامية.

لقد أبدت شخصيات يهودية عديدة فى فرنسا قلقها من هذه الصياغة الدرامية المفرطة فى إدانة صعود اللاسامية فى فرنسا. ويذكر جان فريدمان بأن "وجود أقليات عنصرية ولاسامية لم يعن أبداً أن البلد الذى نعيش فيه هو عنصرى أو لاسامى." "ونموذج فرنسا يبرهن على ذلك. فمن هو هذا البلد فى العالم الذى كان على حافة حرب أهلية من أجل الدفاع عن شرف ضابط يهودى برئ". (١)

ويسير تيوكلاين فى الاتجاه ذاته: تستحق الأعمال الإجرامية وتصرفات البلطجية المتهورين أن تعامل كلها من قبل العدالة التى ستمارس دورها، وهو ما نأمله جميعا وما أتمناه. إن هذا أمر مشروع مثلما هو ضرورى. هل

١- "فى شرف فرنسا" لوموند ١٠ إبريل (٢٠٠١). يستشهد جان فريدمان بأسماء مطربين وفلاسفة يهود من بين الأكثر شعبية فى فرنسا، وأضاف: "هل يمكن أن نتحدث عن بلد لاسامى عندما تكون المرأة الأكثر احتراما هى سيمون فيل، وإذا كانت المرأة الأكثر شعبية هى آن سنكلير؟ نحن جميعاً أبناء الجمهورية، وعلى الجمهورية أن تساعد وتحمى ابناءها أيا كانوا وسيكون من الكارثى أن يطلب اليهود حماية خاصة تحت ادعاء أنهم أقلية خاصة" وانتفض الحاخام ذاته فى ٧ إبريل (٢٠٠١) على موجات راديو شالوم ضد من يقولون إن فرنسا لاسامية "هذا أمر غير صحيح وأنا أرفضه"

وسيذهب جان ليدرمان إلى حد القول "أحد أكثر العوامل خطورة فى انبعاث لاسامية فعلية فى فرنسا، فى الغد، هو تزييف القيم الكبرى لليهودية الدياسبورية التى لوثتها سياسة شارون بدعم المثقفين الذين يؤيدونها" "شارون يزيف اليهودية" ليبراسيون ١٣-١٤ ١ إبريل (٢٠٠٢).

ينبغى لهذا أن نطالب بعقوبات أكثر لأنها أعمال تنال من أفراد وممتلكات طائفتنا؟ لا أعتقد ذلك، نحن مواطنون مثل الآخرين[1].

بالتأكيد يدرك المرء أن هناك حساسية خاصة إزاء الأعمال اللاسامية. لكن لا ينبغى لبعض ممثلى الطائفة اليهودية أن يعطوا الانطباع، بتركيزهم المفرط، بأن انعدام الأمن والعنصرية يكونان غير محتملين فقط عندما يتعلق الأمر بهم. فأعمال الإجرام ينبغى أن تدان أيا كان مرتكبوها وأيا كان ضحاياها. وفى الواقع، لا يصمد هذا السياق الذى تقع فيه هذه الأعمال وهو سياق فرنسا لاسامية أمام امتحان الواقع. وقد يكرر غلاة الموالين لإسرائيل هذه المزاعم مرات عديدة لكنها لا تتطابق مع الواقع.

تستند الباحثة فى الميدان السياسى نونّاماير Nonna Mayer إلى طريقة علمية تعتمد على الوقائع وليس المسلمات. وقادها هذا إلى نظرة نسبية لمفاهيم "كراهية اليهود" أو "فرنسا لاسامية" ومع ذلك فإن أعمالها لم تحظ باهتمام مثلما حظى كتاب تاجييف الدعائى. وإذا كانت قد أكدت أن أرقام الأعمال اللاسامية "مقلقة" فإنها كذبت فرضية وجود عنصرية نوعية معادية لليهود.

"فى عام (١٩٤٦) كان أكثر قليلا من ثلث المستجوبين فى الاستطلاع يعتبرون أن الفرنسى من أصل يهودى هو أيضا فرنسى مثل أى فرنسى

= ومن جانبها كتبت اشتيربنباسا: "وهناك مخاطرة أيضا تكمن فى إعطاء الانطباع بأن هؤلاء ليسوا فرنسيين حقيقيين وأنه عند مواجهتهم أدنى مشكلة يتوجهون إلى مايسمونه "بلدهم". والفرنسيون الذين أحرقت سياراتهم بالمئات فى ٣١ ديسمبر (٢٠٠١) هل سيغادرون أيضا فرنسا؟" وأكدت أن المؤسسات الطائفية وبعض مثقفيها العضويين هم الذين سيسوا اللاسامية "ويدفعون، بحذرهم المتطرف، السلطات الإسرائيلية لإطلاق مثل هذه التصريحات" غير المرحب بها كثيراً فى السياق الراهن. اشتير بنباسا، "قانون الجمهورية هو القانون" ليبراسيون ١١ يناير (٢٠٠٢).

١- بيان يهودى حر.

آخـــر". وفى خـريـف (٢٠٠٠) تجـاوزت النـسـبـة رقم الثلـثين. فى عـام(١٩٦٦) كان نصف الفرنسـيين معادين لفكرة أن رئيس الدولة يمكن أن يكون يهودياً. اليوم النسـبة أقل من واحد من ضمن كل عشرة. بـاختصار اللاسامية فى حالة تراجع باستثناء تحـفظين. استمرار الأكليشهات التى تربط بين اليهود والمال، وازدياد عدد الذين ينسبون إليهم نفوذاً مفرطاً. وبين عام (١٩٨٨)و(١٩٩١) كان هناك فرنسى من كـل خمسة تقريبـا يرى أن اليهود "لديهم سلطة أكـبـر فى فـرنسـا"، وهى النسـخـة الناعـمـة من أسطورة بروتوكـولات حكماء صـهيـون، هذا المنتج الشهـير المزور من قـبل بوليس القيـصر الروسى. فى (١٩٩٩) وصلت النسبـة إلى ٣١ وفى عام (٢٠٠٠) إلى ٣٤. وبالنظر إلى هذه الأرقام عن قـرب، نجد مع ذلك أن النواة الصلبة للمـقتنعين بالـعداء للسـاميـة ظلت ثابتـة فى عام (٢٠٠٠) كـما فى عـام (١٩٨٨)، فقـط مع ١٠ بالمائة من الأشخـاص المستـجوبين فى الاسـتطلاع يقولون إنهم على اتفاق تماما مع فكرة أن اليهود يملكون كثيرا من السلطة فى العادة." (١)

وتشير نتائج استطلاع رأى أعدته مؤسسة Sofres عن "الشباب وصورة اليهود في فرنسا" فى الفـترة من ٢٨ يناير إلى ١ فبراير (٢٠٠٢) بطلب من اتحاد طلاب يهـود فرنسـا ومنظمة SOS ضـد العنصرية، إلى أن " صـدى العداء للسـامية ضعـيف" لدى الشباب. (٢) وتعـتبر الأغلبـية العظمى من الشباب المسـتجوبين أن اليهـود "ليس لديهم كثيرا من النفـوذ فى فرنسا"،

١- نونّا ماير، "فرنسا ليست معادية للسامية" لوموند ١٤ ابريل (٢٠٠٢).

٢- لومـوند، ١٣ مارس (٢٠٠٢)، "الشـبـاب بين ١٥-٢٤ سنة يرفضـون بشكل كـبيـر الأعمال اللاسامـية"، انظر الاستطلاع كاملاً فى كتاب "المعادون لليـهود" مرجع سبق ذكره.

سواء فى المجال الاقتصادى والمالى (٧٧) بالمائة من المستجوبين) وفى الإعلام (٧٩) بالمائة وفى الوسط السياسى (٨٠) بالمائة، وأكد ٨٠ بالمائة من الشباب المستجوبين أنهم لا يرون مشاكل فى الحياة مع يهودى أو يهودية.

وكان الرفض كبيرا للأعمال اللاسامية: ٨٧ بالمائة من المستجوبين يرون أن هذه الأعمال "مشينة." ويقولون إن على الدولة أن تعاقب بشدة المذنبين." ويرى ٧٨ بالمائة أن كتابة شعارات معادية للسامية على الجدران أمر "خطير جداً"، وكذلك بالنسبة لـ ٧٥ بالمائة فيما يتعلق بـ إتلاف مكان خاص باليهود مثل المعابد، وذلك فى مقابل ٥٦ بالمائة عندما يكون الأمر متعلقا بالأماكن العامة غير اليهودية". ويعكس هذا الاختلاف تزايد الوعى بأن عملاً لاسامياً لا يشكل مجرد عمل من أعمال الانحراف التقليدى" كما يرى م. ميشيه مدير مؤسسة Sofres. بالنسبة للشباب فإن "لليهود الحق فى ممارسة عاداتهم دون أن يعرضهم ذلك لمشاحنات" (٨٨) بالمائة. ولم يتجاوز نسبة الذين يرون أن التفرد بلبس القلنسوة اليهودية يعرض اليهود لردود فعل عنيفة[١]، حدود ١٧ بالمائة.

ويروى الفيلسوف إيمانويل ليفنياس، أنه عندما كان طفلا صغيرا فى قريته ترانسيلفانيا، أن والده عندما سمع بقضية دريفوس قال له: "يا ابنى إن البلد الذى لايتردد فى الانقسام، وشجب جيشه لكى يعيد لضابط يهودى صغير شرفه الجريح، هو بلد علينا أن نذهب إليه بسرعة. فحيث نحن الآن لا يمكننا أبداً أن نظفر بشخص مثل إميل زولا أو أناتول فرانس ولا كولونيل خصوصاً مثل بيكار."[٢]

١- المرجع ذاته

٢- جان دانيل، "الفرنسيون، هل هم لاساميون" النوفيل أو بسرفاتور، ٤ يوليه (٢٠٠٢).

يحظى اليهود بالاحترام بصفة عامـة، فالكثير منهم قد نجح مهنياً، وفى كل الأحوال لم يتعـرض أحد منهم لمصاعب مهنية بسبب يهـوديته، وكانوا مندمجين اجتماعيا ولهم تمثيل جيد فى الوسط السياسى.

وقد قدمت الطائفة اليهودية جمـاعة كبيرة من البرلمانيين والوزراء ودون أن يطرح ذلك مشكلة. ولم يكن هذا هو حال الطوائف الأخرى.

وهكذا فإن من بين مجمـوع ٨٤٢٤ مرشحاً للانتخابات التـشريعية فى ٩و١٦ يونيه (٢٠٠٢) لم يكن هناك سوى ١٢٣ مرشـحاً من أصل مغربى أو إفريقى. وأكثـر من ذلك فإن هذا الرقم الضعيف يشكل وضعـا إيجابيا من منظور أن هذا الرقم لم يتم الوصول إليـه من قبل [(١)] . وقدم الحـزب الاشتراكى، على سبيل المثال، ثلاثة مرشحين من أبناء المهاجرين فى المنطقة السـابعـة بـ Haute-de-seine، وفى المنطقة الخـامسة عشـر بباريس، وفى مونترى. ولم يكن لأحد منهم فرصة النجاح، غير أن ذلك يعتبر أفضل مما جرى فى(١٩٩٧)، وأفضل مما يجرى فى الأحزاب الأخرى التقليدية.

فى الحقيقة، وبدرجة أكثر تحديداً بعد ١١ سبتمبر(٢٠٠١) فإن المسلمين والعرب هم الذين يتم استهدافهم ويتعرضون لعنف لفظى أو جسدى.

ونشـأ مناخ أصبح على المسلمـين أن يبرروا فى ظله أنهم لا يسـاندون الإرهاب. وبالتأكـيد، ومع استـثناءات محـدودة، تم رفض خطاب حرب الحضارات. لكن عديدا من المؤلفـين، فى أغلب الأحيان، من الموالين جداً لإسرائيـل - يتحدثون عـن الفاشيـة الخضـراء، ويتسـاءلون حول غـياب الديمقراطيـة والحداثة فى البلاد الإسلاميـة، ويخلصون إلى أن التمـييز بين

١- لومـوند ٩-١٠ يونيـه (٢٠٠٢)"هل صـعـدت الاحـزاب بعض المرشـحين من المهاجرين والسود"

معتدلين وراديكالين قلما كان له معنى. هناك إرادة فى تحقير، بل وأبلسة، المجتمعات العربية والمسلمة. ومع عدم إعفاء هذه الدول من أى عيوب تقع فيها، لماذا هذا الخلط؟ ولماذا الحديث كما لو كانت تشكل دولا متجانسة؟

وفيما يتعلق بالاندماج فلايزال الطريق طويلاً. ويؤكد تقرير (٢٠٠١) للجنة القومية الاستشارية لحقوق الإنسان أن الطائفة المغربية هى الضحية الأولى من الناحية العددية للعنف والتهديد العنصرى فى فرنسا. وهو ما يؤكد عليه جان كريستوف اتياس واستير بنباسا:

"لا يعانى اليهود فى فرنسا، على غرار العرب، من أى إبعاد، والحال أنه منذ شهور، بل سنوات، وأجهزة الإعلام اليهودية تجعل من العداء للسامية وأحداث "الشوا" قضايا تجنيدية لنشاطهم، وجاءت التأزمات الأخيرة إذن فى مناخ من التوتر غير العادى، عندما صار كل شيئ مؤهلاً فى اتجاه تبلور هوس فعلى. فلنتوقف عن اللعب بالنار، واستخلاص عداء للسامية فى كل شيئ. فلنر من أين يأتى الخطر الحقيقى عندما يكون هناك مثل هذا الخطر؟ "(١)

يتعلق التمييز العنصرى بالسود أو بالشباب الفرنسى من أصول عربية مسلمة، أكثر من الشباب اليهودى فيما يخص فرص العمل والسكن. فكم من السود يتقدمون للحصول على عمل أو سكن فيتم رفضهم فى حين أن الاتصال التليفونى من أجل العمل تم بصورة جيدة؟ وهناك عدد من الشباب أدركوا أن مجرد اسمهم يمثل عائقا ليس من السهل تجاوزه من أجل الحصول على عمل أو شقة.

١- جان كريستيوف أيتاس واستير بنباسا "نحن لسنا ضحايا" لوموند ١٨ ديسمبر (٢٠٠١).

فلنأخذ عدة أمثلة، بالمصادفة، مما تنشره الصحف.

فى ٧ مايو (٢٠٠٢) أكد إمـام بمدينة نيس، عمره ٤٣ سنة وله سـبعة أطفال، أنه ضرب من قبل الشرطة لأنه أوقف سيارته فى مكان خطأ.[١]

وفى ٥ إبريل قـام أفـراد ملثـمـون بالاعـتـداء عـلى شـابين من أبناء المهاجـرين، ٢٤ سنة و ٣٠ سنة، أثناء خروجهـما من منزلهما. أحـدهما أصيب فى قدمه والآخر فى ظهره. وساد ذعر حقيقى فى كورسيكا بعد أن أعتدى على فتاة من قبل مغربى فيـما يبدو، وتوفيت أثر أزمة قلبية بعد أن قـدمت شكوى.[٢] فهل رأينا فى هذا الشأن حملة ضد الخلط غير المقبول ضد العـرب فى فرنسا؟ فى يناير (٢٠٠٣) جرت سلسلة مـن الاعتداءات العنصرية المعادية للمغاربة فى كورسيكا فى حالة من اللامبالاة العامة، ومع تفهم ضمنى من "الأوساط القومية"[٣]

وفى ٥ أكتوبـر قام سائق، ٤٥ سنة، بإطلاق النار على زبائن مقـهيين يرتادهما المغاربة وقتل شخصا وأصاب آخرين[٤]. لقد تجـاوزنا هنا مرحلة الرسائل الألكترونية والرسائل التى تمتلئ بالشتائم.

فى ١٦ مارس احترق مـسجد فى l'ain. فقد اقتحـمت عربة مسروقة باب المسـجد وأشـعلت النيـران فى مـدخله. وفى ٢٦ إبريل ألقـيت قنبلة مولوتوف على منـزل عبد الرحـيم برقاوى عمـيد مسـجد فى Valdegour بمدينة نيم. كما أكـد المسئولون المسلمون أنهم تلقوا العـديد من التهديدات

١- لوموند ٧ أغسطس (٢٠٠٢).

٢- JDD ٧ أغسطس (٢٠٠٢).

٣- لوموند ١٩-٢٠ يناير (٢٠٠٣).

٤- هذا العـمل سيـدان على الفور وبكلمـات حاسـمة من قـبل رئيس الوزراء ووزير الداخلية

بالموت، وفى Perpignan أرسل صندوق مفخخ إلى موقع إسلامى للعبادة. ورسمت صلبان معقوفة على جدران مسجد بالقرب من مدينة ليل. وكذلك ألقيت قنبلة مولوتوف على صالة للصلاة فى Escaudain بالقرب من Valenciennes. وعلى نقيض الطائفة اليهودية، وبدون جهاز تمثيلى للطائفة المسلمة يمكنه تجميع هذه الاعتداءات، فإن القائمة غير مؤكدة. ومن المحتمل أنها لم تقدر بشكل دقيق، كما لاحظ عن حق اكزافييه ترنسيان "لقد أظهرت الصحف الإقليمية صدى لهذه الأحداث بينما الصحف القومية لم تشر إليها إلانادراً"[1]

فى ليل ١١و١٢ يناير (٢٠٠٣) تعرض مسجدان لعمليات تخريب فى مدينة نيم. وخصص لهذا الحدث ستة أسطر فى صحيفة لوموند[2]. ترى ما هى المساحة التى كان سيحتلها هذا الحدث لو كان الأمر يتعلق بمعبد يهودى؟[3]

فى ٢٦ يناير (٢٠٠٣) نشر الموقع المتطرف على الإنترنت "Resistance 5 eme-colonne.org" بياناً يعرب فيه عن سعادته للأعمال التى تمت ضد مساجد ومؤسسات دينية فى ليل وأفينيون ومولوز ونانت وبوردو وليون وتولوز ونانسى واسترارسبورغ وباريس، ويأسف لأن أجهزة الإعلام رأت أنه من الصائب التكتم على هذه "الأعمال الوطنية"، ويدعو الفرنسيين إلى تنويع هذه "الأعمال الفظة" ضد مصالح المسلمين فى فرنسا. ولم يثر هذا البيان رد فعل خاص، ولم تشر إليه الصحافة.

١- اكزافييه ترنسيان "خطر الخوف من الاسلام" لوموند ١٢و١٣ مايو (٢٠٠٢).
٢- لوموند ١٤ يناير (٢٠٠٣).
٣- لوبوان ٥ ابريل (٢٠٠٢).

من جهـة أخرى، إذا كانت الأعـمال اللاسامـيـة قد تم إدانتهـا، فهناك أيضا العنـف الذى يرتكبه بعض المتطرفين اليـهود المشحـونين بخطاب عن انبعاث اللاسـامية من جديد وعن "ليلة كـريستال" جديدة. ويستـخدمون العنف بصورة منتظمة، لأن هذا فى نظرهم نوع من الدفاع عن النفس.

لقد صرح بيير أندريا-تاجييف عشية مظاهرة المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية بـفرنسا فى ٧ ابريل (٢٠٠٢): "حتى الآن فـإن الاعتداءات تأتى من طرف واحد، وقامت المنظمات اليهودية بتهدئة أفرادها، لكن هذا الأمر لن يدوم طويلاً"[1] وأثبتت الأحداث بعد ذلك صحة كلامه.

فى أعقـاب المظاهرة التى نظمـها المجلس التـمثـيلى ضد العـداء للسامـية ولمساندة شعب إسرائيل فى ٧ ابريل قام متطرفـون يهود بملاحقة العرب والسود الذين تواجدوا لسوء حظهم بالقرب من ساحة الباستيل أثناء المظاهرة.

نشر مـا يقرب من مائتى متظاهر من الشـباب الذين يرفعـون شعارات رابطة الدفاع اليهودية، وجماعة البيتار (*)الرعب فى المكان. كانوا معبأين وعلى درجة كبيـرة من العنف، ومسلحين بهراوات البيسبول، واسـتهدفوا بشكل خاص المغاربة الذين كانوا يمرون فى هذا الوقت.

١- لوبوان ٥ ابريل (٢٠٠٢).

* بيـتار: اختصار للعبارة الـعبرية "بريت ترومبلدور" أى حلف ترومبلدور، وهو تنظيم شبابى صهيونى تأسس فى بولندا عام ١٩٢٣، وكـان هدفه اعداد أعضائه للحياة فى فلسطين بتدريبهم على العـمل الزراعى وتعليمهم مع التركيز على العـبرية والتدريب العسكرى، وعلى تلقينهم أيدولوجـية شديدة التأثر بالأيدولوجيات الفـاشية التى كانت سائدة فى أوروبا آنـذاك، وفى هذا التنظيم تشكلت الكوادر الأساسـية لمنظمـة الأرجون الأرهابية، وقـد أنضمت اليهـا العناصر الأكثـر حماسـة من الصهيـونيين فى كل المراكز اليهودية فى أوربا الوسطى حتى بلـغ أعضاؤها عشية الحرب العالميـة الثانية ألف شاب. وبوصفهم يمثلون نواة جيش يهـودى للمستقبل، كان اعضاء التنظيم يـقسمون اليمين أن يكرسوا حيـاتهم لاعادة احياء الدولة العـبرية، ويسيرون بخطوات عـسكرية فى شوارع الاحياء اليهودية - المترجم.

"ضربات بالخـوذة، ركلات، كلمات، ضربات بأدوات حـديدية، غاز مسيل للدموع"، "جنس قذر" "سنقـضى عليك يا عرفات". وكان صغار الكوماندوز العنصريـين على درجة كبيرة من العنف ومن كـان يقف أمامهم يتعرض للإيذاء.(١)

وعندما أراد أحد مـفوضى الشرطة إسعـاف رجل ملقى على الأرض بعد أن تعرض لاعتداء من قبل عدة معتدين، تلقى طعنة فى البطن، ولم يتم العثور على الجانـى حتى هذه اللحظة، ولم ينتـقل رؤسـاء الوزراء السابقين للاطمـئنان على صحة موظف فى جهاز الشرطة تعرض لاعتداء خطير أثناء تأدية وظائفه.(٢)

وكان الـصحفـيون من بين المستـهـدفين أيضا، لاسـيمـا أولئك الذين يحملون كـاميرا تصوير أو كـاميرا عادية. وقـد تعرض مصور بالتليـفزيون الأسبانى، القناة الثـالثة، إلى ضرب مبرح وتعرض مـصور من جوادولوب guadeloupeen إلى إهانات عنصرية" وفقا لـ(محققون بدون حدود) الذين قرروا رفع دعوى إلى المدعى العـام بباريس، كما تم دفع صـحفى بجريدة ليبراسـيون أيضا.(٣) ترى ماذا كان مسـار الأمور لو أن وقائع مماثله لتلك التى جرت قد حدثت أثناء مظاهرة موالية للفلسطينيين ؟!

قام مـواطن برفع شكوى بعـد أن تم تفتـيشـه من قبل حـرس المظاهرة الخاص بيـنما كان يـريد عبور سـاحة البـاستـيل ليعـود إلى منزله. واتهم باللاسامية لأنه رفض أن يقوموا بتفتيشه، وعندما توجه للبوليس لإدانة هذه الممارسة غـير الشرعية أجـيب عليه بالقول : "لست الوحيـد الذى يشتكى لكننا لا نريد المزيد من الإثارة"(٤) .

١- أدان المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية بفـرنـسا (كريف) فى بيان "بأكبر قدر من الحزم العدوان الذى لا يمكن وصـفه على مفوض الشرطة فـى باريس ويتمنى القاء القبض على المذنب ومعاقبته أشد العقاب.

٢- ليبراسيون ٨ ابريل (٢٠٠٢).

٣- المرجع ذاته ٩ ابريل (٢٠٠٢) "فى نهاية السير الاعتقالات"

٤- ليبراسيون ٩ ابريل (٢٠٠٢).

هل من الطبيعى أن تحتل مليشيات محل سلطات البوليس، وأن يعترف البوليس بعجزه أمام هذه الظاهرة؟ لقد ارتكبت سلسلة من الاعتداءات والتهديدات إزاء أولئك الذين لا يشتركون فى الفكر مع جماعات الصدمة الموالية للإسرائيليين. وهنا أيضا لا نجد أحداً قام بإجراء إحصاء منظم، على غرار ما تم بشأن الأعمال اللاسامية.

لقد رأينا أن الموالين للإسرائيليين قد اتهموا، عن خطأ، المناضلين الموالين للفلسطينيين بأنهم مصدر الاعتداءات اللاسامية، مع أن الذين قاموا بهذه الأعمال لا توجد أى رابطة لهم مع المنظمات الموالية للفلسطينيين. على العكس فإن المتطرفين الذين هاجموا المنظمات أو المظاهرات التى يرون أنها موالية بشكل علنى جداً للفلسطينيين، هم أنفسهم الذين يلتزمون بالدفاع غير المشروط عن الحكومة الإسرائيلية. إنهم حقا غلاة الموالين لإسرائيل الذين يجلبون صراع الشرق الأوسط إلى فرنسا. لقد تلقى ريشار فاجمان، رئيس الاتحاد اليهودى الفرنسى من أجل السلام، تهديدات بالموت لأنه انتقد شارون وساند فكرة إنشاء دولة فلسطينية. وكانت شخصيات يهودية من الدرجة الأولى تعرضت للمعاملة نفسها ومن أجل الأسباب ذاتها.

فى ١٥ ابريل (٢٠٠٢) تعرض بعض المتظاهرين الموالين للفلسطينيين لضربات مطرقة وقذف أحجار وقنبلة مسيلة للدموع والضرب حتى باللوحات المعدنية لإشارات المرور.

وفى اليوم ذاته تم إيقاف اجتماع ينظمه أصدقاء لوموند ديبلوماتيك حول الشرق الأوسط فى ظل صرخات "إسرائيل ستنتصر"[١]

فى ١٩ إبريل قام شخص مسلح بتخريب معرض صور كان موضوعه

١- ليبراسيون ١٩ فبراير (٢٠٠٢)، متطرفون يهود، الاعتداءات مستمرة"

"سلام عادل بين الإسرائيليين والفلسطينيين". وقبل ذلك تم الاعتداء على أفراد تجمع للتبرع بالدم لصالح الفلسطينيين في محطة مترو استراسبورغ سان دني. (1)

وفي ٢١ مارس قامت جماعة كوموندز مكونة من اثنى عشر شخصا باقتحام مكتبة "الرغبة فى القراءة" بإفرى، وتخريب الكتب والأثاث والاعتداء على الأشخاص الحاضرين تاركين قبل رحيلهم كلمة هدف بالعربية على واجهة المكتبة. وكانت المكتبة تبيع كتباً عامة وهى أيضا مكتبة مناضلة وكانت تضم مقراً فرعياً لجمعية "فلسطينيو فرنسا"(2) بإقليم باريس. وفى إبريل (٢٠٠٢) تعرض أربعة طلاب كانوا يحاولون نزع ملصق على الحائط مناصر لإسرائيل إلى الضرب بالهراوات والقطع الحديدية من قبل جماعة تاجار(3) Tagar

وفى فترة لا تتجاوز العام والنصف تعرضت مقار جمعية المراب MRAP، أربع مرات للتخريب، ورسمت على حوائطها شعارات "المراب نازية"(4). واعتدى أيضا على جوزيه بوفيه وهو عائد من رام الله حيث ذهب لمساندة عرفات. وكان بعض المتعاطفين فى استقباله. وتصف صحيفة ليبراسيون ما حدث "صرخ شخص كان مندسا وسط الجمهور" الآن كفى" ثم اندفع ثلاثون شخصاً، أكثرهم من الشباب ومن ذوى البنية القوية، ليهجموا بعنف على الأشخاص الحاضرين وكانوا يهتفون "عرفات قاتل" و "إسرائيل ستنتصر". شعارات ضد شعارات. وتعرض بعض المناضلين

١- ليبراسيون ٢٤ ابريل (٢٠٠٢).

٢- Livres Hebdo ٢٦ ابريل (٢٠٠٢). " إخرى: "الرغبة فى القراءة" خُربتَ"

٣- ليبراسيون ٢٧-٢٨ ابريل (٢٠٠٢)، تاجار: فرع الطلاب بمنظمة البيتار - المترجم

٤- نظرة Regard ابريل (٢٠٠٢)، "العداء للسامية، حقيقة أم كذب"

المناصـرين للفلسطينيين للضرب المبـرح بقطع من الخشـب وبخوذات رأس سائقى الموتوسـيكل وباللكمات وبالأرجل. وروت امرأة "كـانوا يضربوننا ويشتموننا ويشيرون إلينا بأنهم سيذبحوننا. كنا نشعر بالرعب". [١]

كذلك خُـربّت مقر راديو المتـوسط وهو إذاعة خاصـة بالجالية العـربية والمسلمـة وكتـبت على الحـوائط كلمـات "عاشت إسـرائيل"[٢]. وروى مسئـولون فى أحد فروع الاتحاد اليهودى الفـرنسى للسلام، والذى يناضل من أجل السلام فى الشرق الأوسط والاعتراف بدولة فلسطينية، أنهم تلقوا "مكالمات تليفـونية، بعضـها مجـهول الهوية، تنذرهم بالموت، والشـتائم المنحطة التى تناسب بيت دعارة ريفى، واللعنات فى العالم الآخر..."[٣]

وتروى آن سيندجـيه، ابنة يهودى مـبعد، : "على مـدار نصف قرن، هل شعـرت يوما بالعداء للسامـية فى فرنسا؟ لم يحـدث هذا عندما كنت صغيرة أثناء خروجى من المعبـد اليهودى الذى كنت أتردد عليه لتلقى تربية دينية، ولم يـحدث ذلك فى Berk-Plage حيـث كان L'OSE يجمـعون الأطفال الذين يحتـاجون للتنزه، ولم يحدث ذلك فى Ariege حـيث كنا نـغنـى Hanoua R' Palmach، ولم يحدث ذلـك فى المقاهى فى فـرنسا وإسبانيـا، حيث لم يكن من النادر أن نستمع إلى النكات المألوفة والسـيئة عن اليـهود وأهالى منطقـة Auvergne، ولم يحـدث ذلك فى الضـواحى السيئة المملوءة بـإرهابيين جدد والذين كنت أعرب لهم عن هويتى دون أن أعرف أبداً طريق الخوف أو العار. هل شعرت بتـهديد لشخصى أو لهويتى

١- ليبراسيون، ٤ ابريل (٢٠٠٢)، ضد اللاسامية، كفاح مضطرب"

٢- صحيفة الباريسى ٧ ديسمبر (٢٠٠٢).

٣- Point d'information Palestine رقم ١٩٥، ٢٨ مارس (٢٠٠٢).

الثقافية أو جسدى طوال هذه السنوات؟ والنتيجة على هذا التساؤل بالطبع نعم، لكن من قبل يهود !

وحدث فى فترة مؤخرة أيضا، لأننى التحقت بمنظمات تدعم القضية الفلسطينية، ووقعت على بيانات من أجل الاعتراف بالحقوق المشروعة لهم، وطالبت الجمهورية الفرنسية مثل يهود آخرين بالتدخل بصورة جدية فى صراع الشرق الأوسط، أننى أتهمت باللاسامية والجحود وتلقيت تهديدات بالانتقام. . . "[1]

وأثناء مظاهرة ٧ إبريل قام المتطرفون اليهود، عدا الشتائم المعتادة لهم، بالهجوم على موكب "حركة السلام الآن" اليهودية، وعلى جماعة برنار لازار (جمعية يهودية تنتمى لليسار الملتزم بمعسكر السلام). فهل ينبغى أن نعد أعمال العنف هذه ضمن الأعمال اللاسامية؟ إنه سيكون أمراً منطقيا لأن يهوداً كانوا ضحايا.

وتلقى شارل إندرلان، مراسل القناة الثانية بالتليفزيون الفرنسى، تهديداً بالموت بعد الريبورتاج الذى أعده عن وفاة الطفل الفلسطينى محمد الدرة فى أحضان والده مع بداية الانتفاضة الثانية. كما تعرضت أسرة المراسل أيضا إلى تهديد مما اضطره إلى تغيير مكان إقامته.[2]

وتلقى جوزيه بوفيه على تليفونه المحمول رسائل عديدة تهدده بالموت.[3]

وفى مارس (٢٠٠٣)، تلقى إيال سيفان رسالة تحتوى على رصاصة

١- المرجع السابق، رقم ١٨٣، ١٠ نوفمبر (٢٠٠١).

Amfp Marseille, amfpmaseille@Wandoo. FR

٢- لوموند ٢٦ يونيه (٢٠٠٢).

٣- جورنال الأحد، ٩ فبراير (٢٠٠٣).

عيار ٢٢ ملم مصحوبة بورقة مكتوب عليها: الرصاصة القادمة لن تأتى عن طريق البريد."[١]

وإذا كانت صحيفة ليبراسيون قد كرست مقالة لهذا الحادث الذى كان له وقع الصدمة، فإنه لم يتم تناوله، فى كل الأحوال، فى أى مكان آخر، أو فقط فى عدة سطور. وفى ١٩ فبراير، تم تنظيم صدام، الهدف منه منع حدوث نقاش فى جامعة باريس الرابعة حول موضوع: الفلسطينيون، الإسرائيليون أى سلام؟" وكان طالب يضع على رأسه كوفية، قد ضرب فى هذه الأثناء بقطعة من الحديد.[٢]

وتحت عنوان "مسلمو فرنسا يسببون المشاكل" لمهرجانات المساندة للجيش الإسرائيلى"[٣] طالب موقع يهودى متطرف على الأنترنت "السلطات العامة بحل جمعية المراب MRAP التى لا تعمل إلا على إشعال الحقد المعادى لليهود فى فرنسا، والتى، فيما نرى، تلعب دوراً سلبياً تماماً ومنافيا لمبادئ الجمهورية، وكذلك بالنسبة LDH (لما يطلق عليها رابطة حقوق الإنسان). هذه الجمعيات "تسبب أضراراً".

"ونحن ندعو اليهود الذين ضلوا الطريق فى اتحاد طلاب يهود فرنسا، أو فى جمعيات أخرى من هذا القبيل أن تتوب بسرعة Techouvah، وتستعيد طريق التوراة، أرض إسرائيل والحقيقة. ولاسيما أولئك الذين يعرفون ميشيل توبيانا، هل يمكنهم أن يدعوه إلى إيقاف إضراره بالطائفة اليهودية عبر رئاسته لرابطة حقوق الإنسان؟

١- ليبراسيون، ٧ مارس (٢٠٠٣).

٢- لوموند، ٧و٨ ابريل (٢٠٠٣).

٣- تظاهرات نظمت فى مارسيليا وباريس من قبل جمعية "من أجل رفاهية الجندى الإسرائيلى"(ABSI).

"إن الأضـرار الاسلامـيـة فى طريقهـا حـقا إلى إفسـاد الديمقراطيـة الفـرنسيـة." وهاجم الموقع ذاته[1] أوبيرفيـدرين وزير الخارجية الفـرنسية السابق بكلمـات بالغة القسوة، لأنه متـهم بأنه لم يكن على وفاق دائم مع شارون وتحدث عن القمع الإسرائيلى.

غيـر أن الأسوأ لم يتم ذكـره بعد. فـهذه المواقع تنتـشر بدون أن تثـير الأحكام أو الإدانات الرسمية، حتى اليوم الذى كشـفت فيه صحيفة لوموند بقلم اكزافـييه ترنسيـان عن موقع (amisisraelhai) (شـعب إسـرائيل حى بالعبرى) الذى نشر قـائمة بأسماء شخصيـات مساندة لائتلاف النداءات من أجل السـلام العادل فى الشـرق الأوسط[2]. ووضـعت نجمـة داود باللون الأزرق أمام أسـماء هذه الشـخصـيات اليـهودية. وكـان تعليق الموقع على ذلك: هذه القائمة تشكل زاوية جديدة للموقع ومـوجهة لمقاطعة كل هؤلاء الأوباش المعـادين لليهـود (...) ونحن نشجـعكم على مقـاطعة كـتبـهم وأفلامهم وأعمالهم الخ. والذين تعرفنا إليهم كيهود يرون نجمة داود ملصقة على أسمائهم، وهذا لا يعنى فقط أنهم يستحقون المقاطعة وإنما نشجعكم، إذا وجدتموهم أن تعبروا لهم، ولو بالإشـارة عن الغضب الذى تشعرون به تجاههم بل وحتى أن توجهوا إليهم بـصقة أو لكمة فى وجوههم، أو ضربة بعصا البيسبول، فربما يساهم هذا فى إصلاح روحهم الفاسدة."

ونشرت اللجنـة من أجل إعلام يهودى أصـيل القائمـة ذاتها مع بعض التعليقات المفتقرة إلى التهذيب: قدمت القائمة إيال سيفان "خائن معلن". وجان دانييـل "جاحد متخـصص" وايفاتيشور "ناجـية، مع الأسف، من

١- Rectification@AFP. General Wel.co.uk

٢- أعلنت برقية لوكالة الأنباء الفرنسية، قبلها بعدة أسابيع، أن المراب MRAP سترفع شكوى. ولم تسرع الصحافة إلى سرد الخبر.

عـاصفـة فـيلديف Veld Hiv، واسـتاتسـلاس تومكفـايس "ناج، مع الأسف، من جيتو وارسو"[1] وكلها أوصاف أسوأ من بعضها البعض.

كان ينبـغى الانتظار، مع الأسف، حتى تأتى مقالة لومـوند حتى تدان هذه التجاوزات المعـروفة من قبل.[2] ألا تخلق شدة التكرار لموضـوعات ليلة الكريستال وكراهية اليهود، مناخاً لم يعد يستطيع البعض فيه أن يضبط أعصابه؟

"عـملها هو نتـيجـة منطقيـة للأفكار الخطرة التى يزرعـها قـائد هذه الحركات فى عقول صعـاليك بؤساء... لابد من ممارسة الضغوط على هذه المجموعات، وأن نتـوقف عن اعتبارها جماعـات فلكلورية. إنهم حركات خطيرة جداً ومكونة من أفراد على درجـة كبيرة من العنف، وقادرون على القيام بالأسوأ، مثل القضـاء على من يعتبرونهم أعداءهم. ولا ينبغى على الدولة أن تكتفى بمراقبتهم، ينبغى أن تضعهم خارج دائرة الإزعاج"[3]

عن من يتكلم الان جـوبير رئيس منظمـة ليكرا ؟ عن ماكس بـرونير، مـتطـرف اليـمين الذى أراد إطلاق النـار على شـيـراك في ١٤ يـوليـه، والمجموعـات الصغيرة التى يرتادها. يمكن أن تنطبق مـلاحظته على بعض الحركات اليهودية المتطرفة.

١- لوموند ٢٣ أغسطس (٢٠٠٢). الجيتو: مصطلح يعنى الحى الخاص باليهود، وكان هذا الحى يحاط بزسوار فى العصور الوسطى، ولم يكن من المسموح لليهود مغادرة هذا الحى إلا بإذن من الكنيسة، وقد أستخدم هذا المصطلح للمرة الأولى لوصف الحى اليهودى فى فينسيا فى عام ١٥١٦م. ويرى البعض أن هذا المصطلح مشتق من الفعل العبرى "حيط" الذى يعنى الطلاق، كما يرى البعض الآخر زنه مشتق من الكلمة الألمانية Geheckter التى تعنى السور - المترجم

٢- لقد أشـرت إلى هذه المواقع المتطرفة فـى مقالة نشـرت بالفيـجارو بعنوان "فليـعد الشيطان إلى جحره" ٦ إبريل (٢٠٠٢).

٣- ليبراسيون، ٧ يوليه (٢٠٠٢).

عندما سئل روجيه كوكيرمـان عن المخاطر التى تمثلها مجموعات الدفاع الذاتى (اليـهودية) آثر التـهويـن من الأمر: "إنهـا جمـاعات ليـست ذات أهمية. . .أنا مهتم أكثـر ببعض المثقفين، مثل الان منك الذى يصف رئيس الوزراء الإسرائيلى، والمنتخب ديمقراطياً، بأنه مرتزق ويصفه فى الفقرة ذاتها باليهـودى السيئ."[1] وينظر رئيس (كريف) إلى الان منك على أنـه أكثر خطورة من جماعة البيتار Betar، وهذا ما يدعو إلى الحيرة !

هل هذا يعنى أن فرنسا بلد معاد للسامية؟

يعتـرف حاييم مـوزيكان، مدير (كـريف) بأن الطائفة اليـهودية تتـمتع بوضعيـة متميزة فى علاقـاتها مع السياسيين: "يمكن أن أتحـدث مع شيراك وأحصل على موعد معه بدون أى مشكلة" كما قال[2]. وعندما نكون أمام طائفـة يمكن لأحد قـادتهـا أن يفخـر بأنه يمكنه الاتصـال مـباشـرة برئيس الجمهورية فلا يمكنها فى الواقع أن تشكو من الإبعاد.

اعترف جاك شيراك، فى يوليه (١٩٩٥)، بمسـئولية الدولة الفرنسية عن أعمـال الاضطهاد ضد اليـهود بين عام (١٩٤٠)و(١٩٤٤). وكان فـرنسوا ميتـران وشارل ديجول قد رفـضا من جانبهـما القيام بمثل هـذا الاعتراف، مؤكدين على أن الجمهورية لا صلة لها بفترة حكم فيشى. حتى هذا الوقت كان المبدأ هو أن فتـرة حكم فيشى لم تكن تمثل الجمهورية الفـرنسية، وأنها كانت فترة عارضة فى النظام الدستورى الفرنسى.

وشُكلت بعد ذلك لجنة رأسها جـان ماتولى لدراسة النهب الذى تعرض

١- الفيجارو ٢٥-٢٦ يناير (٢٠٠٣).

٢- تصـــريح لـ Joshua Schuster فـــى Jewish Telegeraphic agency، ١ أغـــسطس (٢٠٠٢).

له اليهود المقيمون فى فرنسا أثناء الحرب العالمية الثانية. ولم يشمل هذا التعويض من ليسوا يهودا. هل فرنسا التى مولت النصب التذكارى للشهيد اليهودى المجهول هى بلد لاسامى؟ ومن الذى طور تعليم "الشوا" فى المدارس من خلال توزيع توثيق نوعى حول هذا الشأن؟ من الذى فتح الحق بمرسوم فى ١٤ يوليه (٢٠٠٠) فى الإصلاح المالى للذين تيتموا بعد فقد آبائهم اليهود الذين ماتوا فى عمليات الإبعاد، وفقط لليتامى اليهود، وهو تمييز أدانه الاتحاد القومى ليتامى المبعدين والذين أطلق عليهم النار (Unodef)؟[١].

إذن فرضية فرنسا التى أغلب سكانها لاسامية لا تصمد أمام الواقع. إنها تتطابق مع الرؤية المهتاجة لدى البعض، وأداة للتوظيف السياسى من قبل البعض الآخر.

١- فى رسالة إلى ليونيل جوسبان: "السيد رئيس الوزراء لقد أصدرت مرسوما يتعلق بحالات الأطفال اليهود، ضحايا النظام النازى وحكومة فيشى. نحن نؤيد هذا الإجراء. لكن لماذا لا يشمل الأطفال غير اليهود ضحايا النازى وحكومة فيشى. أليست لهم الحقوق ذاتها؟ هذا الاختلاف فى المعاملة ذو طبيعة تمييزية وخطر اجتماعيا. وبإنشاء طائفة من المواطنين مستثناة فإن قراركم يتميز بالإثارة ومولد للعداء للسامية. أنت تقدم الطائفة اليهودية بفرنسا كضحية وحيدة للنازية، يبدو أنك قد نسيت أن المبعدين غير اليهود الذين كانوا يدافعون عن الحقوق، ومن بينها حقوق اليهود، قد ماتوا تحت أساليب التعذيب ذاتها وبالإذلال الذى تعرض له المبعدون اليهود. إن الجمهورية الفرنسية ستكتسب الشرف بإمدادها المرسوم ليشمل كل أبناء الفئات الذين تيتموا والذين عاشوا غياب الأب والام والأخ والأخت وكل أوجه المعاناة والجراح التى نتجت عنه. وأن تكون عملتنا الجميلة - حرية إخاء مساواة - قد تمجدت بآبائنا وألا تكون قد فقدت المصداقية من خلال التمييز الذى أقمتموه."

الفصل الرابع

صراع مستورد؟

هل الصراع الإسرائيلى-الفلسطينى فى طريقه إلى الوصول لفرنسا؟ وهل يعتبر تطور الاعتداءات اللاسامية رد فعل على نهاية عملية السلام واشتداد قمع القوات المسلحة الإسرائيلية للفلسطينيين؟

لقد وجه قادة الجاليات اليهودية والمسلمة نداءات لتجنب هذا الانزلاق الخطر، الذى يؤخذ فيه يهود فرنسا على أنهم مسئولون عن أعمال الجيش الإسرائيلى.

لقد أعلن مسئولو الجالية المسلمة وممثلو فلسطينى فرنسا وجمعيات التضامن مع فلسطين، أو الجمعيات الخاصة بالدفاع عن حقوق الإنسان، عن إدانتهم بحزم للأعمال اللاسامية التى وقعت فى فرنسا منذ (٢٠٠٠). وكل الذين عبروا عن تضامنهم مع الفلسطينيين، والذين انتقدوا عمل الحكومة الإسرائيلية، لم يجعلوا يهود فرنسا مسئولين عن سياسة شارون. لأنهم يعرفون أن رأى الجالية اليهودية ليس واحداً، ولأنهم يُحَرِّمُون العنف بشكل عام، ويؤكدون أنه إذا كان هناك اختلاف سياسى، فإنه ينبغى أن يعبر عن نفسه بالحوار، وليس بالمواجهات الجسدية، أو من خلال أعمال ناتجة عن سوء النية. ففى إطار الجمهورية يسمح بكل الاختلافات طالما أن هذه الاختلافات تحترم الشكل الديمقراطى. ولا ينبغى أن يكون هناك أى

تسامح مع العنف. هكذا، على سبيل المثال، أعربت السلطات المسلمة عن استيائهـا بعد الهجوم بالسيارات على المعبد اليـهودى فى دوشير. وفى ١٠ أبريل قـام المفتى الأكـبر بمرسيلـيا، صهـيب بن شيخ، ومـعظم الإداريين باللجنة الأقليمـية للشئون الإسـلامية، "بإدانة الأعمال البـربرية بشدة التى تستهدف المعـابد والمؤسسات اليهودية فى فرنسا" مـؤكدين أن التضامن مع الفلسطينيين لا يمكن أن يرتبط بهذه الاعتداءات.[١]

من جهـتهـا أدانت ليلى شهـيد، المفـوضة العـامة لفلسطين بـباريس، الاعتداء على المعـبد اليهودى بمرسيـليا. وفى ٣٠ مارس (٢٠٠١) أعلنت على مـوجات إذاعـة فرانس أنفـو نداءً إلى كل الذين يربطون بين الكفـاح الفلسطيـنى والصـراع ضـد الشـعب اليـهـودى أو الدين اليـهـودى. هذه الانتقادات، كمـا تقول غير مقبولة، وتمثل "أكبـر جريمة يمكن أن يقوم بها إنسان ضد الفلسطينيين".

وبعد الاعتداء على فـريق يهودى لكرة القدم فى بوندى[٢] أكد مـولود أونيت، السكرتير العـام لحركة المراب MRAP، أن "الوضع خطيـر جداً، وأنه ينبـغى تهـدئة الأمـور، وأن تطبق العـدالة بحـزم على مـرتكبى هذه الجرائم، فليس لأحد الحق فى أن يحمل الجالية اليـهودية بفرنسا اغتصابات شارون!".

١- لوموند، ٣ ابريل (٢٠٠١)

٢- بعد أن قرأ صحيفة فرانس فوتبول عبر جيرار لوكانياك عن استيائه بوصفه معلما ومربيـاً وتساءل بعـد هذا الاعتـداء: هل من الأمور الحـميـدة أن نؤسس فرق رياضـية "عرقية" أليس فى هذا مخاطرة بالذهاب إلى المشاكل العنصرية؟ أليس من العنصرية الا تريد الذهاب للعب كـرة القدم إلا مع أناس من لون بشرة الجلـد ذاتها، أو من العقـيدة ذاتها، أو من الجنسية ذاتها أيا كانت؟ "فرانس فوتبول، ٣٠ ابريل (٢٠٠٢)

ومع ذلك نجد بعض ممثلى مسئولى (كريف) وبعض المثقفين من غلاة الموالين لإسرائيل يحاولون القيام بربط بين الموالين للفلسطينيين والمعادين للسامية. وينظرون إلى أولئك الذين يتظاهرون من أجل السلام فى الشرق الأوسط، والذين يحملون المسئولية بصورة رئيسية فى تدهور الوضع على شارون، على أنهم بالضرورة من المعادين للسامية.

وهكذا تم اتهام المجلس القومى لحركة المرابMRAP (حركة مكافحة العنصرية ومن أجل السلام بين الشعوب). وأعلنت حركة المراب عن أسفها علانية ضد استراتيجية ممارسة الضغط، والتى تتمثل فى إلصاق تهمة العداء للسامية بكل تنظيم يدافع عن عملية السلام فى الشرق الأوسط. "مثل هذا التوظيف للعداء للسامية و"الشوا" لأهداف سياسية ودينية يفضى بشكل أكيد إلى جعل مفهوم اللاسامية من الأمور الشائعة" كما صرحت المنظمة المعادية للعنصرية والتى تدعو فى الوقت ذاته إلى "الحق فى وجود الدولة الإسرائيلية وفى أمن شعبها، وحق الشعب الفلسطينى فى أرض ودولة".[1] وقد انتقدت جمعيات موالية للإسرائيليين المراب MRAP لأنها نظمت مظاهرات لمساندة الشعب الفلسطينى. وقد لوحظ أثناء إحدى هذه المظاهرات، فى ٧ أكتوبر (٢٠٠٠)، شعارات لاسامية مثل "الموت لليهود" من قبل بعض المتطرفين المسلمين الذين اندسوا فى المظاهرة، وهو أمر رفضه مولود أونيت فى المساء ذاته.

غير أن غلاة الموالين لإسرائيل سيحاولون إيهام الناس بأن صرخات الحقد هذه لها صلة مباشرة مع منظمى المظاهرة. وهؤلاء أنفسهم سيكونون

١- نظرة "اللاسامية، حقيقة أم كذب" ابريل (٢٠٠٢)

منزعـجين، عن حق، إذا قام أحـد بتحـميل مـسئـول (كريف) مـسئولـية الاعتداءات العنصرية التى ارتكبتها جمـاعة البيتار، أو رابطة الدفاع اليهودية بعد ٧ إبريل (٢٠٠٢)، وهم أنفسهم الذين ينسبون، بلا حياء، إلى المراب MRAP الانزلاقات اللفظيـة غير المـقبولة والتى قـام بها بعض الأفراد غـير المسئولين والخطرين. لقد أراد البعض الإيهام بأن صرخات "الموت لليهود" تنتشـر فى الطرقات البـاريسية بصـورة روتينية، وكـما لو كانت صـرخات تهيمن على المظاهرات الجـماهيرية، وكما لو كـانت صرخة طبيعيـة لتجمع الموالين للفلسطينيين.[١]

لقد عرض أرنو كلارسـيفلد هذا الاتهام بصورة صارخة، فـأثناء حديثه إلى برنامج كارل زيرو، فى ٢١ يناير (٢٠٠٢)، تسـاءل: "(. . .) أليست تلك الجمـعية هـى التى صرخ من خلالهـا البعض "الموت لليـهود"، منذ وقت ليس ببـعيد؟ ". وقـامت المراب MRAP برفع قضـية قـذف ضده، وسيصدر حكم بادانته.

وفقا لحيثيات حكم المحكمة "يستخلص من المصطلحات التى استخدمها المتهم بالقـذف، ومن السيـاق التى استخـدمت فيه، أنـها توحى أن المدعى بالحق المدنى رغم إنكاره (. . .) قـد سمح بالتـعبيـر العام عن آراء مـعادية للسامية بشكل عنيف".[٢] وقد ثبتت تهمة القذف.

١- يمكن للمرء أن يقرأ فى رسائل القراء لمجلة الاكـسبريس فى ٣٠ أكتوبر (٢٠٠٢): "مظاهرات شبه يومـية كانت تهتف "الموت لليـهود" و "الموت لإسرائيل"، هنا، فى فرنسا، فى (٢٠٠٢) !".

٢- الفيجارو ٢١ يونيه (٢٠٠٢).

وقدمت مجلة مرصد العالم اليهودى نموذجا آخر عن سياسة الخلط هذه، والمتمثل فى إقامة توازى بين المظاهرات المساندة للفلسطينيين من جهة والمساندة للشعب الإسرائيلى من جهة أخرى "هناك مئات من الأعمال اللاسامية المتعمدة من قبل أغلبية ساحقة من العرب المسلمين، الذين يطلق عليهم "شباب" أو "شباب مندمج اجتماعيا"، أو "بلطجية"، ولا توجد أعمال ضد العرب أو ضد المسلمين ارتكبها يهود. وهناك مظاهرات للموالين للفلسطينيين، وفقا لمصطلحات منظميها، حيث كانت تظهر أحيانا أعلام حزب الله أو حماس، وحيث كانت تردد هتافات "الموت لليهود"، وحيث كانت تقارن نجمة دواد بالصليب المعقوف... ومظاهرة أخرى موالية لإسرائيل، وفقا لمصطلحات أجهزة الإعلام، حيث كانت تظهر الأعلام الفرنسية وحيث كان المتظاهرون ينشدون المارسييز وحيث لم ترتفع أى شعارات تمتلئ بالحقد."[1] (!!!). نحن هنا أمام منطق الأخيار والأشرار بشكل ما. فمن جهة تتم المماثلة بين المسلمين الراديكاليين وبين غالبية المتظاهرين. ومن جهة أخرى يتم إسدال ستار من الصمت التام على الاعتداءات التى ارتكبتها رابطة الدفاع اليهودى. لكن ماذا يمكن أن يقال، لو أن أنصار حماس، على غرار رابطة الدفاع اليهودى، لم يكتفوا بترديد شعارهم الحاقد، وإنما انطلقوا فى مطاردة خصومهم، أو لو أنهم طعنوا مفوضا من رجال الشرطة؟

بالنسبة لتيوكلاين فإن أحداث الشرق الأوسط قد أثارت شعوراً بالقلق والرغبة فى الإعلان عن تضامن مع إسرائيل لا يشوبه تردد: "أخشى من

١- كاترين لوفيشر، "ماذا تعلمنا من الاعلام؟ أجهزة الاعلام الفرنسية، هل هى موضوعية؟ "مرصد العالم اليهودى، (٢٠٠٢) ص٤٩.

"عقدة الجيتو"،[1] تلك الفكرة التى ترى أن العالم الخارجى معاد لنا. ومن اللحظة التى يرى فيها المرء عداوات فى كل مكان تنشأ هذه العداوة"[2].

أثار تيوكلاين مشكلتين أساسيتين. وعقدة الجيتو التى يخشى منها هى قائمة بالفعل لدى بعض أفراد الطائفة اليهودية.

وأحيانا تخلق هذه العقدة، التى ينميها بذكاء بعض قادة الطائفة اليهودية، بعض ردود الأفعال المنزعجة. ويقارن العرب أو المسلمون الفرنسيون أوضاعهم بأوضاع يهود فرنسا، ويجدون أنه قد يكون لديهم من الأسباب ما يدفعهم للشكوى أكثر من اليهود. وكثير من الذين لا ينتمون لاحدى الطائفتين يلاحظون بكل بساطة أن اليهود لا يعانون من أى تمييز. ويشعر المرء أكثر فأكثر بالضجر تجاه هذا الادعاء بوضعية الضحية الذى لم يعد مقبولاً، لاسيما عندما يصاحبه إدانة لـ "انزلاق يستند على الشفقة" يهدف إلى جعل الفرنسيين يميلون إلى كفة الفلسطينيين.

١- فى مقابلة له مع المجلة الدولية والاستراتيجية سيعود تيوكلاين إلى هذه المسألة: "مشكلة أخرى أعطيها أهمية كبيرة هى ظاهرة إضفاء طابع الجيتو على الحياة ghet-toisation. فالتاريخ اليهودى يذكرنا، منذ أكثر من ألفى عام، أن أفراد الطائفة اليهودية قد خضعوا لكل المخاطر التى يتعرض لها المنبوذون. وأصبح لديهم ردود فعل تتسم بالنزعة الدفاعية والحذر. وعلى اليهود أن يخرجوا من هذا الجيتو. فاليوم الظروف اختلفت تماماً لكن اليهود أبقوا على ردود فعل تلائم أوقاتا سابقة. لابد من الاعتراف بأن "الشوا" فى أوربا ونظام فيشيى فى فرنسا يمكن أن يفسرا عودة هذا التفكير الذى يتسم بالشك والتشنج." المجلة الدولية والاستراتيجية رقم ٤٧ خريف (٢٠٠٢) ص٢٤

٢- لوموند ٤ ديسمبر ٢٠٠١، متحدثا عن "الأعمال المعادية لليهود" صرح تيوكلاين "لسنا أمام لاسامية وإنما أمام أعمال يقوم بها بلطجية يعكسون على طريقتهم ما يشعرون به إزاء الشرق الأوسط" ليبراسيون ٣ ابريل (٢٠٠٢).

وقد وجد روجـيه كوكيرمـان، رئيس الـ (كريف)، تفسيـراً لـ"الأعمال اللاسامية"، والسلبية المفترضة للسلطات إزاء هذه الأعمال "لأن هذا العنف الأحادى الجانب مرتبط مباشرة بـصراع الشرق الأوسط، ولأنه جرى كثيراً، فى الغالب، الخلط بين اليـهودى والإسرائيلى"(١). ولا يمكن للمـرء إلا أن يصفق بكلتا يديه لهذا التصـريح. والمشكلة أنه يأتى ليتناقض تماماً مع أقوال أو أعمال أخرى لروجـيه كوكيرمان ذاته، والذى لم يتـوقف عن اتهام يهود فـرنسـا بأن مـا يـحـركـهم هو الحـقـد على الذات إذا كـانـوا مـعـادين لشارون". (٢)

كـما يختلف مع تصـريح آخر له: "أنا أعـيش فى فـرنسا، وأسـاند إسرائيل ولا أريد أن يطلب منى أن أختار بين أبى وأمى."(٣) وهو أخـيراً فى تناقض مع بعض الأعمـال لروجيه كـوكيرمان ذاته الذي أرسل مـذكرة سرية لوزير العدل دومـنيك بيربن، طالبا منه ملاحقـة أولئك الذين يدعون إلى مقاطعـة المنتجات الإسرائيلية. (٤) وهو فى تـناقض دائم عندما يصرح كوكـيرمان لـ"الاكتـيواليتـه اليهودية" بشـأن الـ (كريف): "تظل مهـمتنا الرئيسية هى مكافحة العداء للسامية ومساندة إسرائيل فى بحثها عن السلام والأمن."(٥)

١- " مع مخاطرة إغضاب الآخرين" لوموند.

٢- وفى تناقض أيضا مع تصريح جان كاهن، رئيس المجمع المركزى، الذى يدعو يهود فرنسا إلى التوحد مع دولة إسرائيل.

٣- ليبراسيون ٨ ابريل (٢٠٠٢).

٤- "مقاطعة العلماء والمنتجات الإسرائيلية" لوموند، ٢. أكتوبر (٢٠٠٢).

٥- الاكيتواليته اليهودية ١٦ أكتوبر (٢٠٠٢).

وكوكيرمان ذاته هو الذى سيتهجم - مع الاحترام الواجب لمرتبته - على سابقه تيوكلاين الذى تحدث فى خطاب مفتوح إلى شارون عن " الواجب الأخلاقى فى الاعتراف للفلسطينيين بالحق فى المطالبة بدولتهم "(١) وسيذهب الرئيس الحالى لـ (كريف) إلى الرد على سابقه: "أشعر بالأسف لأنه كتب فى لوموند. وإذا كان قد أراد توجيه رسالة إلى شارون فكان الأجدر أن يرسلها إلى صحيفة معاريف أو هاآرتس أو يديعوت أحرنوت، وعندما يعيش المرء فى باريس حتى ولو كانت له المواطنة الإسرائيلية فليس من الأمور الملائمة التعبير بالصورة التى عبر بها. فهناك خطر إضعاف صورة إسرائيل لدى المجتمع الفرنسى، وهو أمر غير ضرورى هذه الأيام. وأرى أنه أرسل رسالة إلى العنوان الخطأ، فلا ينبغى أن نكتب لـ ٤٠٠ الف من قراء لوموند لنقول أن السياسة الإسرائيلية "عبثية وحمقاء ووحشية". هذه الكلمات لها ثقل كبير وليس من السهل قبولها خاصة إذا كانت موجهة إلى الرأى العام الفرنسى، أى وزارة الخارجية والنقابات وأحزاب اليسار واليمين "(٢)

هل هناك إذن موضوعات لا ينبغى أن تناقش إلا بين يهود ولا تتعلق بالفرنسيين الآخرين؟ يمكن أن يدرك المرء ذلك فيما يتعلق بالشئون الدينية والثقافية والاجتماعية الخاصة بالطائفة، لكن أليس الصراع فى الشرق الأوسط صراعاً سياسيا؟ ألا يمس بدرجات مختلفة كل الفرنسيين؟ ألا يضع

١- " أرييل شارون وشرف إسرائيل" لوموند ٥ سبتمبر (٢٠٠١) "ينبغى حتى الذهاب بعيدا والمطالبة بأن يكون لإسرائيل الامتياز فى أن تكون الدولة الأولى التى تعترف بشرعية هذه الدولة الفلسطينية التى ينبغى أن تشترك معها إسرائيل فى اقتسام الأرض المشتركة. سيقولون لى وماذا عن الأرهاب؟ أنتم تعرفون أنه لا يمكن مكافحة الارهاب إلا داخل كل شعب - عندما لم يعد هذا الشعب يعتبر هذا الارهاب شكلاً من أشكال الكفاح. أما إذا كان الشعب يساند الإرهابى فإنه يصير مكافحا".

٢- ٢٠ سبتمبر (٢٠٠١).WWW.ACTUS.COM

كوكيرمان فى حسبانه نتائج ما يقوله عندما يترك الانطباع بأن هذا الأمر لا ينبغى أن يثار إلا بين يهود؟

وعندما يحرض خمسة عشر برلمانيا على المتابعة القضائية للأشخاص والجمعيات التى تنادى بمقاطعة المنتجات الإسرائيلية، نجدهم يدينون "الخلط الذى يمارسه البعض بين شارون وإسرائيل واليهود والرأسمالية العالمية"(١) غير أنهم هم الذين يقيمون هذا الخلط لأن نداء المقاطعة لا يخص سوى المنتجات الإسرائيلية ولا يتحدث بأى شكل عن يهود فرنسا.

ومن جانبه يؤكد الكسندر أدلر، وهو معلق فى مجال الشؤون الدولية ربما الأكثر شهرة فى فرنسا، والذى لا يعرف خياله ومساندته لإسرائيل أى تردد، "اعتقد بالفعل أن إسرائيل التى هى فى الوقت ذاته شيئ عظيم جداً ودولة صغيرة فى حاجة لأن تزود بعمق وبعد جديد بالتعاون إلى حد ما مع الدياسبورا (. . .) شخصياً سأكون مجنداً لوجود شكل ما من مجلس للشيوخ، كمجلس ثان إلى جوار الكنيست يتكون من إسرائيليين وأفراد من الدياسبورا ويكون له دور استشارى. وينبغى أن تختار له شخصيات رفيعة وأرى أنه يمكن لإنسان مثل إيلى فيسل أن يرأس مثل هذا التنظيم، سأكون مع وجود جهاز دائم يجسد تضامن كل شعب إسرائيل".(٢) إنه يقترح ببساطة شديدة أن يتمكن يهود العالم، على الرغم من جنسياتهم، من تشكيل هيئة تشريعية لإسرائيل؟

ونشرت صحيفة لوموند، فى ١٢ ابريل (٢٠٠٢)، بيانا يطالب الموقعون عليه بحق إسرائيل فى الدفاع المشروع عن نفسها، وبعد عشرة أيام

١- الفيجارو ١ نوفمبر (٢٠٠٢) "مقاطعة شائنة".

٢- إذاعة راديو جودايكا ٢٠ سبتمبر (٢٠٠١).

على ذلك احتلت إسرائيل جنين. وكان من بين هذه الأسماء الموقعة بيير-أندريا تاجييف وسيرج كلارسيفلد والكسندرل فال وميشيل تريبلا، وقد أدانوا السلطة الفلسطينية التى "أطلقت حربا من نوع جديد يتحول فيها أجساد البشر وأوراحهم. إلى قنابل موت مبرمجة كى تزرع اليأس فى السكان المدنيين الإسرائيليين".

"إن النظام التعليمى الفلسطينى، الممول برغم أخطائه من الاتحاد الأوربى، من غاياته، على سبيل المثال، تجنيد الشباب الفلسطينى فى ألوية الموت هذه، مع احتمال تقديم الجنة لهم كأفق وحيد... ونحن ننادى كل الديمقراطيين اليوم وغداً للوقوف أمام حملة التزوير الضخمة التى يقوم بها اللوبي المؤلف من الجمعيات الموالية للفلسطينيين !".

وهكذا يلتزمون التزاما شاملاً بالدفاع عن إسرائيل، ولا تجد نقدا واحداً بينما هناك الكثير من الإسرائيليين لا يترددون من جانبهم فى إظهار اختلافاتهم. بالطبع لم تكن هناك "مذابح" فى جنين كما ادعى الفلسطينيون. ولو كانت إسرائيل قد قبلت أن تزور لجنة الأمم المتحدة جنين لكان هناك تكذيب أكثر سرعة، لكنها رفضت ولم يحتج أحد. فهل سيحدث رد فعل غير مبال مثل هذا لو أن ميلوسيفتش هو الذى رفض لجنة التحقيق الدولية فى كوسوفو؟ هل كان سيترك بدون عقاب؟

ستضع الأمم المتحدة بعد ذلك تقريراً يقر بأنه لم تكن هناك مذابح بل انتهاكات خطيرة لحقوق السكان المدنيين.

ماذا يمكن أن يقال عن عريضة تجمع توقيعات وتدافع باسم التضامن الطائفى غير المعلن، عن دولة ترتكب جرائم حرب؟ووفقا للجنة تحقيق مشتركة قادتها الفيدرالية الدولية لحقوق الإنسان وجمعية أطباء العالم، فى

مدينة نابلس فى الفترة من ٢٨ إبريل إلى ٥ مايو (٢٠٠٢) فإن إسرائيل مذنبة أثناء عملية "جدار الحماية" بـ "انتهاكات خطيرة للقانون الدولى الإنسانى وحقوق الإنسان" كما أشار التقرير الذى أذيع فى ٣ يوليه. "ووفقا للائحة محكمة الجزاء الدولية فإن هذه الانتهاكات يمكن وصفها بجرائم حرب"(١)

وسيعترف عدد من المثقفين اليهود الفرنسيين بفرضية تصدير صراع الشرق الأوسط إلى فرنسا، غير أنهم سيذهبون إلى تحميل المسؤولية الأولى على قادة المؤسسات المدنية والدينية التى يعيبون عليها أنها تريد جعل التضامن مع إسرائيل فى كل الظروف، العمل الأساسى فى نشاطهم. ووفقا لهم، فلأن هؤلاء المسؤولين لم يجرؤا أبداً على الابتعاد عن السياسة الإسرائيلية، فإنهم قادوا إلى خلط بين يهود فرنسا وإسرائيل فى الفترة التى صارت فيها شعبية سياسة هذه الدولة تتجه إلى مزيد من التدنى.(٢)

ومن جانبه أكد إيال سيفان، وهو سينمائى إسرائيلى وينتقد بانتظام سياسة شارون، أنه "داخل المعابد ومراكز الطائفة اليهودية هناك اتجاه إلى أن يحل العلم الإسرائيلى وجمع المال لصالح إسرائيل محل الرموز الدينية التقليدية.

١- لوموند، ٥ يوليه (٢٠٠٢).

٢- يرى دانيل بن سعيد، أحد قادة الرابطة الشيوعية الثورية "فيما يتعلق بكراهية اليهود، فإنه منذ اللحظة التى يدعى فيها المتحدثون الرسميون للمؤسسات الطائفية الحديث باسم اليهود بشكل عام، ويسلكون كحراس حدود لدولة إسرائيل ويحولون المعابد اليهودية إلى ملحقات لسفارة إسرائيل، فإنه يمكن للمرء أن تساوره مخاوف بالفعل فى أنهم لا يساهمون إلا إلى تحويل الصراع السياسى ضد الاحتلال الإسرائيلى للأراضى الفلسطينية إلى كراهية عنصرية لليهود. ومن شدة تكرار التماثل بين اليهودية والصهيونية ينتهى هؤلاء الذين يشبهون "رجال مطافئ يشعلون النار" إلى أن تؤخذ كلماتهم حرفياً . مجلة ماريان ٢٨ يناير (٢٠٠٢).

"وهكذا يفتح الطريق أمام انتقال المجـال السياسى نحو الدينى. وعندما يتم النظر إلى المعابد ومراكز الطائفة اليهودية على أنها مماثلة لمؤسسات تدعم إسرائيل فإنها تصـير أهدافاً لاعتداءات إجرامية، ينبغى أن تـعاقب بوصفها كذلك."(١)

أيضا تم انتقاد موقف بعض أعضاء الحكومة الإسرائيلية الذين يتخاطبون مباشرة مع يهود فرنسا.(٢)

١- "الالتباس الخطير ليهود فرنسا" لومـوند ٨ ديسمبر (٢٠٠١). وتابع إيال سيفان قائلاً: "لقد حان الوقت لكى ينهض يهود فرنسا ليـعلنوا بصوت عال وقوى إنهم فرنسيون، وإن بلدنا هى فرنسا، وإن ثقـافتنا فرنسية وإن مسـتقبلنا أوروبى. وإن العزف على وتر البارانويا الجـماعية لإقناع البعض بأنهم معرضون لكل أشكال الأخطار، هو عمـل سيئ. وعندما تمارس شخصيات من الطائفـة اليـهودية الخلط والإرهاب الفـكرى لكى تفرض تأيـيداً بدون تردد لأريبل شـارون وأوزى لاندو، فإنهم يـشجعـون، أكثر من أى شـخص آخر، على الاعـتقاد بـأنه يوجد داخل الجالية اليهودية شعور بالولاء المزدوج والانتمـاء المزدوج، وهو أمر ليس فى مصلحة يهود فرنسا ولا الجماعة القومية. وهذه المؤسسات اليهـودية الطائفية الفرنسية تلعب بالنار، وتصير هى ذاتها من عوامل العنف، عندمـا تصف باللاسامـيـة المواقف اللاصهيونيـة والنقد الموجه إلى السـياسة الإسرائيلية وبنزع المصداقية عن وجهة نظر سياسية بخلطها مع أقوال عنصرية."

٢- وقد سـار فى الاتجاه ذاتـه هنرى إسرائيل، وهو نائب أول لعـمدة فـرسنيس Fresnes ومنتخب عن الحزب الاشتراكى "كمواطن فـرنسى لا أقبل أن يتجرأ وزير دولة أجنبية ويقول لى ما ينبـغى أن أكون عليـه، وما ينبـغى أن أفعله، وأين ينبـغى لى أن أعيش. وأعـتقـد أيضا أن المساعدات من الوكالة اليهودية من أجل استقـبال هؤلاء المفترض أنهم ناجون جدد من اللاسامية تسمح لهم بالعثـور على مكان فى مستوطنات غزة أو الـقدس الشرقية... لا، حقـا لقد حان الوقت لنقـول لحكومة إسرائيـل كفى لقد طفح الكـيل" لوموند ١٦ يناير (٢٠٠٢). ويعـتـرف جوليان دراى بذلك أيضـاً: "ينبغى إدانه الاعتداءات اللاساميـة إذ لا ينبغى أيضا أن نخلط كل شيئ. ولا ينبغى أن توضع الطائفـة كرهينة لمساندة شارون. منذ عدة أشهـر ونحن نتشاجر مع (كريف) حـول هذا الأمر." لومـوند ٩ إبريل (٢٠٠٢). وتثبت هـذه الإجابة أن تنوع الجـالية اليهودية يمتد أيضا إلى داخل الحزب الاشتراكى.

فى مجلته ماريان، فى ٢٩ أكتوبر (٢٠٠١)، كان جان-فرانسوا كاهن أكثر وضوحاً أيضاً: "تماما لأننا نعتبر أنفسنا أصدقاء إسرائيل" نشعر بالضرورة الواجبة علينا فى إدانة سياسة شارون ومتعصبيه (الأكثر راديكالية منه أيضا) والتى فى طريقها لإيقاع الأذى بالدولة العبرية أكثر من عشرات السنين من الدعاية العربية. وهذه السياسة يصعب علينا تأمينها بوصفنا جمهوريين ديمقراطيين أو ليبراليين، وبوصفنا إنسانيين ومعادين للعنصرية والفاشية والستالينية، ومدافعين عن حقوق الشعوب فى تقرير مصيرها واحترام القانون الدولى، ولاسيما أن هذه السياسة تبدو لنا مناقضة بصورة جذرية للمصلحة العامة، بما فيها مصلحة إسرائيل من حيث أنها تقوض أمنها، وتهدد عافيتها الاقتصادية والأخلاقية، وتضع موضع شك استمراريتها وتدمر صورتها بصورة لا يمكن إصلاحها.[١]"

وفى أعقاب نشر هذه المقالة تلقت مجلة ماريان رسائل كثيرة وعنيفة دفعت جان-فرانسوا كاهن أن يكتب: "أقول نكتشف لدى بعض المناضلين اليهود الفرنسيين الموالين لشارون، إضافة إلى سوء الطوية الذى لم يعد له حدود، وإضافة إلى عدم القدرة على الإنصات والفهم الذى يصل أحيانا إلى حد البارانويا، اللجوء أكثر فأكثر إلى لغة من نمط لوبينى[٢] (نسبة إلى جان مارى لوبن - زعيم اليمين الفرنسى المتطرف).

١- " والحال أن ما هو خطير فى هذا الانحراف هو أن" أصدقاء إسرائيل" هؤلاء، دون أن يدركوا، والمفتقرين إلى الوعى بالمصالح الحقيقية لإسرائيل، ينتهون، ابتداء من هوس مركزية يهودية، إلى إعطاء مشروعية بل وحتى ادماج كل الأساطير اللاسامية القديمة. ألا يؤدى ذلك إلى تشجيع عقدة الجيتو بإعطاء مصداقية للقول الشائن "شعب واثق من نفسه ومهيمن"، وتقليص تنوع العالم إلى مانوية ثنائية حيث تشكل "المسألة اليهودية" بالضرورة ودائما أحد مصطلحاتها" التى لا يمكن التحكم فيها " تماما كما فعل فرانسوا إدوارد درومونت، المؤلف الحزين لـ"فرنسا اليهودية".

٢- إفتتاحية مجلة ماريان ٣ ديسمبر (٢٠٠١).

وكان ميشيل روكار، من جانبه، قد أكد فى رسالة مفتوحة إلى شارون أن الحوادث اللاسامية التي تتكاثر "تجد مصدرها فى الحقد الذى تزرعه".

"أنت فى طريقك، أيها السيد رئيس الوزراء، إلى إنتاج نزعة معادية لإسرائيل فى العالم كله، والناس مثلى الذين قاوموا اللاسامية منذ فترة شبابهم الأولى هم اليوم عاجزون عن إيقاف تيار الغضب والحقد الذى فتحت مساراته... فلتخش اللحظة التى يختفى فيها المنع بعد "الشوا" أمام الأخطار التى يدفع بها صراعك الحيوى والمحلى إلى كل أنحاء العالم. لا يمكنك أن تقوم بكل شيئ دائما. وستصل العقوبات فى النهاية."[1]

وإذا كانوا مصممين على إدانة المماثلة بين يهود فرنسا والإسرائيليين، فإن بعض المسؤولين الثقافيين لم يترددوا فى القيام بنمط آخر من التحليل نجد فيه العرب= المعادون لليهود. ويقول أرنوكلارسيفليد: "لم أسمع أبداً فى مظاهراتنا هتافات تقول الموت للعرب..."[2] فى باريس فقط، بالتأكيد، ومع ذلك فإن الحقد على العرب لم يعد يعرف كيف يخفى شكله أكثر فأكثر فى بعض الخطابات وفى بعض مواقع الإنترنت.

١- ميشيل روكار: "رسالة مفتوحة إلى السيد شارون" الفيجارو ٥ إبريل (٢٠٠٢).

ومن المنطلق ذاته كتبت إشتير بنباسا " العودة باستمرار إلى موضوع اللاسامية والادانة الدائمة لكل خطاب يخرج عن المطلوب، والملاحقة بلا كلل لأدنى مؤشرات الحقد والرفض أى اللامبالاة فقط، قد أدى كل ذلك بلاريب إلى طائفة ذات معاناة قائمة على الاستيهام لهذا المرء فى الأغلب القرابة مع إسرائيل والتضامن مع إسرائيل. وهى قرابة سيشعر بها بعمق هى ليست غير شرعية فى حد ذاتها لكنها فى مأزق، مهما يقال، بسبب صراع يتأبد ويرسل عن هذا البلد صورة دائمة ليس من السهل التعامل معها" لوبوان ١٩ أكتوبر (٢٠٠٢).

٢- لوبوان ١٨ يناير (٢٠٠٢).

ووفقـا دائما لأرنوكلاسيـفلد فإن القادة العـرب لا يمكنهم القول أن لا مسؤولية لهم عن "الشوا" حتى بصورة غـير مباشرة، إذ لو تمكن اليهود فى أوروبا من الهجرة بحـرية إلى فلسطين "وقد كان المكان اللازم لاستـقبالهم مـتوفـراً، لربما كـان عدد اليـهـود، الذين أبيدوا أقل بـكثيـر مما تم بدون شك"[١]

ومع هذه الرؤية للماضى التى تمزج التحريف التاريخى مع الاستيهامات الأيدولوجية ينظر هذا المحامى إلى المسـتقبل أيضا: "الطريق إلى السلام يمر عبر إسقاط ياسر عرفات، وحتى لو أدى هذا إلى حرب أهلية."[٢]. ولو أن أحداً كتب أن طريـق السلام يمر عبر الإطاحة بأريـيـل شارون، حتى لو أدى هذا إلى حـرب أهليـة فى إسرائيل لكان قـد تعـرض بدون شك إلى محاكمة كبيرة.

ولا يتـردد غلاة الموالين لإسـرائيل فى أبلسـة المسلمين على الصـعيـد الدولى والقومى بغـرض منح شارون الشرعـية على الصعـيد الدولى. من المهم إيضاح أن التمييز بين المسلمـين المعتدلين والراديكاليين غير قائم، وأن الاسلام يمـثل مشكلة فى حـد ذاته، وانه يفرخ الإرهاب بصـورة تلقائـية. وهذه الفرضيـات على سبيل المثال هى فرضـيات الكسندر ديل فال[٣]، أو فريدريك انسيل[٤] الذى يقدم كبروفيسور فى ENA مع نسيان الإشارة إلى

١- "إسرائيل - فلسطين : الأسباب الحقيقة للصراع" لوموند ٥ ديسمبر (٢٠٠١).

٢- "إسرائيل فى مواجهة البربرية" لوموند ٤ أغسطس (٢٠٠٢).

٣- مؤلف "الشموليـة الإسلامية" دار les Syrtes (٢٠٠٢). وفقـا له "نحن أمام شمولية ثالثـة: حركة ذات بعد عالمى ودائم وطموحها إخـضاع المعمورة للإسلام" الفيجارو ١٦ أكتوبر (٢٠٠٢).

٤- جيوبولتيك نهاية العالم. دار فلاماريون (٢٠٠٢).

علاقاته مع جماعة البيتار Betar وعلى المستوى القومى يتعلق الأمر بترك الانطباع بأن الشباب من أبناء المهاجرين هم جميعاً منحرفون بالفطرة ومستعدون، فضلا عن ذلك، لارتكاب أعمال لاسامية.

ويمكن للمرء أن يكون فيلسوفاً وعضواً فى هيئة تحرير "الأزمنة الحديثة"، ولا يتردد فى ممارسة الخلط الذى نادراً ما كان له صلة مع الديالكتيك. وهكذا بالنسبة لروبرت ردكير: "إنهم ضحايا العنصرية أبناء المهاجرين المغاربة الذين يمارسون اللاسامية. ويعبرون بذلك عن رفضهم للجمهورية، وهو ما أمكننا التحقق منه فى استاد فرنسا أثناء مباراة الجزائر وفرنسا عندما سخروا من النشيد القومى الفرنسى."[1]

هل نجعل كل العرب الفرنسيين مسؤولين عما حدث فى استاد فرنسا؟ لقد كنت هناك مع أطفالى، ويمكننى أن أشهد، أننا لم نشعر فى لحظة واحدة فى الاستاد أو فى المترو بأننا مهددون[2]. بل شاهدت على العكس عدداً كبيراً من مشجعى الفريق الجزائرى وهم فى حالة صدمة ويعتذرون عن سلوك المتهورين الذين أفسدوا الاحتفال. إن موقف الذين صفروا أثناء النشيد القومى غير مقبول. غير أن الخزى ينبغى أن يوجه إليهم، وإليهم وحدهم وليس إلى كل الجالية.

١- مجلة ماريان ٢٨ نوفمبر (٢٠٠٢).

٢- يمارس جاك تارنيرو خلطا، دون أن يهتز له جفن: "لقد شاهدنا جيداً صور مظاهرات الفرح الفلسطينى مع إعلان عمليات ١١ سبتمبر فى نيويورك، ويمكن أن تشهد على ذلك وكالات الصحافة والصحفيين. ليس من قبيل الفاشية أو كره الاجانب أن يستاء المرء من التصفير عند سماع المارسييز أثناء مبارة كرة القدم بين فرنسا والجزائر" "وراء أسامة بن لادن هناك اللاسامية الجديدة" ٢٤ أكتوبر (٢٠٠١)، وهنا يحرف تارنيرو، عن قصد، الواقع. بالطبع قدم التليفزيون صورة لخمسة عشر شابا فلسطينيا يعربون عن فرحهم بعد انهيار البرجين ولم يكن هذا الرقم، مع ذلك، كبيراً. وكان عرفات قد أدان أحداث ١١ سبتمبر لكن تارنيرور مرر ذلك تحت ستار من الصمت.

وفى ساحة الباستيل، فى ٧ إبريل (٢٠٠٢)، نجد أحد الشعارات المرفوعة أثناء مظاهرة "نحن نغنى المارسييز، نحن لا نصفر عند سماع المارسييز"[١] "آه، يعنون مباراه فرنسا-الجزائر ! لقد كانت هدية للمدافعين بشدة عن شارون. لكنهم نسوا أنه فى أكتوبر (١٩٩٣) وأثناء مباراة فرنسا-إسرائيل فى إطار التصفيات المؤهلة لكأس العام (١٩٩٤)، كانت هناك أعلام إسرائيلية أكثر من الأعلام الفرنسية فى الاستاد، بدون أن يكون هناك مع ذلك انتقال مشجعين كثيرين من إسرائيل إلى فرنسا لمشاهدة المباراة.[٢]

هناك هذا الخوف المنقول: خوف من الجمهور العربى الذى يراه البعض منتفضاً ومعاديا لما حدث، والخوف من أن تتم التغطية عليهم من قبل هذه الكثافة السكانية. وهنا أيضا يمكن أن يتفهم المرء ذلك، فاليهود الذين لم يتجاوز عددهم خمسة عشر مليونا فى العالم ولا يمارسون التبشير هم إذن بالضرورة أقلية. لكن أليس من الأفضل تأسيس علاقة قوة تسمح بتوازن مع هذا الخلل الديموغرافى، أو تأسيس علاقات متناغمة مع الطوائف الأخرى؟

وتحدث الحاخام سيتروك عن واقع جديد، وحساب لاواعٍ لكنه حقيقى للسلطات العامة» «وعندما يوجد فى فرنسا خمسة أو ستة ملايين مسلم

١- ليبراسيون ٨ ابريل (٢٠٠٢).

٢- وسيصل الأمر إلى درجة شبة كوميدية، للذين يعرفون قليلاً كرة القدم، عندما نجد صحفيا فى راديو الطائفة اليهودية يذهب إلى حد اعتبار مباراة فرنسا والجزائر هى سبب هزيمة الفريق الفرنسى بعد ذلك فى كأس العالم (٢٠٠٢) «الذى هزم الفريق الفرنسى» الفيجارو ١٦ نوفمبر (٢٠٠٢).

(. . .) وستمائة ألف يهودى فقط فإنه من الواضح أن الجالية المسلمة توضع فى الاعتبار بصورة أفضل» [1]

ويسير فى الاتجاه ذاته روجيه كوكيرمان : «نحن نواجه خطراً فعليا، فثلاثة ملايين من الفرنسيين قد صوتوا لصالح لوبن، وخمسة ملايين من العرب (على الأقل قطاع من بينهم) يعلنون تضامنهم مع الفلسطينيين. نحن فى القارب ذاته مع الإسرائيليين وتضامننا شامل» [2]

وإضافة إلى أن كوكيرمان ذاته أعلن، بعد عدة أشهر، عن سعادته بالنسبة التى حققها لوبن فى انتخابات الجولة الأولى لرئاسة الجمهورية، التى نظر إليها على أنها تحذير موجه للعرب.

يمكن للمرء أن يندهش من منطق خطاب قريب جداً ، فى نهاية المطاف، من خطاب حرب الحضارات الذى يزعم الجميع رفضه. فإذا تابعنا جيداً منطق كوكيرمان فإن يهود فرنسا والإسرائيليين يقتسمون المشاكل ذاتها لأنهم يواجهون العرب المهاجرين والفلسطينيين الذين يعلنون تضامنهم. من الفرخة ومن البيضة؟

فى ٧ إبريل ترك ثلاثة من لاعبى كرة القدم المسلمين نادي As Menora فى ضواحى استراسبورج وكان النادى الذى يحمل اسم «الشمعدان ذو الفروع السبعة للشعائر اليهودية» ، قد أسسه عام (١٩٦٣) جان كاهن، وهو الرئيس الحالى للمجمع الدينى المركزى. ولا يمارس هذا النادى اللعب يوم السبت وهو يوم الشبات، غير أنه مكون فى الوقت ذاته من لاعبين يهود ومسيحيين ومسلمين. فلماذا صار هذا التناغم

١- مقابلة بالفيجارو ٣٠ نوفمبر (٢٠٠١).

٢- المنبر اليهودى ٢٩ نوفمبز (٢٠٠١).

السعيد مستحيلاً؟ وعندما نشرت الصحف هذا الخبر بدون مزيد من التعليقات، فإن الاستنتاج الذى يستخلصه القارىء كان سريعاً. فالمسلمون، بتشددهم يرفضون التعايش الذى كان متناغما من قبل مع مواطنيهم من اليهود. غير أن الأمر لم يكن بهذه البساطة التى تبدو للوهلة الأولى. ويقول نور الدين بن ناصر، وهو فرنسى من أصل جزائرى، وأحد هؤلاء اللاعبين الثلاثة الذين تركوا النادى «عندما رأينا أن المجلس التمثيلى للمؤسسات اليهودية فى فرنسا يدعو إلى التظاهر فى آن واحد ضد اللاسامية فى فرنسا، وهو أمر طبيعى، ومساندة سياسة شارون، وهو أمر غير طبيعى، أدركنا أنه علينا أن نأخذ موقفاً. وأردنا بخروجنا من النادى أن نسجل عملاً سياسيا ورمزيا ضد هذا الخلط الذين كانوا هم المبادرين فى القيام به . !»[1]

وبعد الحريق الذى شب فى أحد فصول مدرسة يهودية في ٣١ ديسمبر (٢٠٠١)، تم تنظيم تجمع فى كريتاى لإدانة صعود اللاسامية. وحضر لوران كاتلا وهو عمدة المدينة (ينتمى للحزب الاشتراكى) وقدم نفسه أولاً بوصفه «صديق الجالية اليهودية بل وحتى صديق إسرائيل» وقد صُفِقَ له كثيراً، لكنه أضاف «وذلك حتى لو لم أوافق على سياسة شارون».

وهنا هاج المجتمعون وانطلقت هتافات «إسرائيل ستنتصر» «عاش شارون» «شارون بطل» . . . وأراد اثنا عشر شخصاً فى قلب المعبد

١- لوموند ١٣ إبريل (٢٠٠٢) «فى استراسبورج ،نادي رياضى متعدد الثقافات يتعرض للتفكك بسبب أزمة الشرق الأوسط».

اليهودى رفع علم إسرائيل ونجحوا فى منع العمدة من إكمال كلمته. [1]
هل يمكن أن نطلب التضامن مع الجالية اليهودية التى اعتدى عليها - وهو تضامن ليس موضع شك، وفى اللحظة التى نعبر فيها عن هذا التضامن يتم تحويله إلى تضامن مع بلد أجنبى يرى كثير من الفرنسيين أن سياسته قابلة للنقد؟ وهل يمكن أن نعتبر أن الذى لايسير فى هذا الاتجاه ليس فقط معاديا للحكومة المعنية وإنما معاد للجالية فى فرنسا؟

فى إبريل (٢٠٠٢) كتب ميشيل توبيانا إلى روجيه كوكيرمان رئيس المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية فى فرنسا يقترح عليه القيام برد مشترك على الاعتداءات اللاسامية التى وقعت مؤخراً، لكن كوكيرمان فضل الإعلان عن نداء للتظاهر يوم ٧ إبريل «ضد اللاسامية، ضد الإرهاب، ولدعم الشعب الإسرائيلى ومن أجل السلام». بالتأكيد الدعم هنا لن يذهب مباشرة إلى حكومة شارون لكن إلى الشعب الإسرائيلى. لكن هل يكفى هذا التمييز؟ وإذا كان السلام هو الهدف الرئيسى ألا ينبغى أن ندعم الشعبين الإسرائيلى والفلسطينى؟

وفى رسالة لاحقة يذكر ميشيل توبيانا أن رابطة حقوق الانسان قد تأسست منذ مائة وأربعة أعوام نظراً لوقوع «ضحية لأنها يهودية من قبل تعسف الدولة» «وهذا يسمح بأن أقول لك بصراحة إنك ضللت الطريق بإنكارك عالمية الكفاح ضد العنصرية وبمزجك المعركة ضد اللاسامية بمساندة أحادية الجانب لدولة. وبرفضك مشاركة منظمات أخرى غير المكونة لمنظمتك فى المظاهرة فإنك جعلت من معركة هي بالضرورة عالمية مسيرة

١- ليبراسيون، ١٤ يناير (٢٠٠٢) « قلق أمام كراهية اليهود».

طائفية، ونافيا بذلك مبادئ الجمهورية. وأنت بذلك تدعم الانطواء على الذات بتصريحاتك، ومبادراتك لم تتوقف عن تشجيع ذلك، بينما لابد من أجل تجفيف منابع الأعمال اللاسامية، أن يشارك كل المواطنين فى هذا البلد فى التعبير عن رفضهم، ولا أن يتجمعوا فى أعمال طائفية محضة.»

وكانت إجابة كوكيرمان، وهذا أقل ما يمكن أن يقال فيها، إنها كانت بدون التباس:

«أود أن أعرف أى قسم فى نداء المظاهرة بدا لك غير متفق مع مبادئك: هل هو النداء إلى إنهاء الأعمال اللاسامية والإرهاب؟ أو رسالة الدعم للشعب الإسرائيلى من أجل السلام والأمن؟ على أية حال أنا أشكرك على دروسك فى التسامح والسلام التي أقدرها، لأنها كذلك جاءت من يهودى نجح فى التسامح مع الرسائل المتفجرة من قبل حماس والجهاد الإسلامى والجناح المسلح لحركة فتح إلى يهود آخرين».

«وأعتقد أنه من الصعب الجمع بين المتظاهرين الموالين للفلسطينيين والكفاح ضد اللاسامية ومساندة الشعب الإسرائيلى. وأتمنى أن يأتى اليوم الذي يتوقف فيه الإرهابيون عن ممارسة عملهم المؤذى وأن يكون مقبولا منك آنذاك أن تفكر فى مصير اليهود. [1]

وينسى كوكيرمان أنه من أجل تحقيق السلام لابد أن يكون هناك طرفان، وأنه إذا كان الإرهاب مداناً فإن القمع الإسرائيلى، الذى يعتدى على المدنيين، ينبغى أن يدان أيضاً. لايمكن أن ندين طرفاً فى الصراع وندعم طرفاً آخر دون أن نبتعد عن احترام المبادئ العالمية.

١- رسالة من روجيه كوكيرمان موجهة إلى ميشيل توبيانا بتاريخ ١٨ إبريل (٢٠٠٢)

وبدلا من أن تُكَرس جهودك لإدانة اللاسامية والاعتداءات التى تعرضت لها الجالية اليهودية نظمت مظاهرة ٧ إبريل لصالح الشعب الإسرائيلى. باختصار انزلق الكفاح ضد اللاسامية إلى مساندة لشارون.

وكثير من اليهود، من قلب الجالية ذاتها، لم يقبلوا هذا المنهج السياسى: «نحن لم نرغب فى أن تتحول هذه المظاهرة إلى استعراض موال لإسرائيل أو لأمن إسرائيل، وكان قسم كبير منا لايود أن يحدث هذا تحت لواء العلم الإسرائيلى.[1]»

«على الصعيد السياسى فإن مظاهرة ضد اللاسامية كان من الممكن أن تكون أكثر تأثيراً إذا كان كل رؤساء الأحزاب والجمعيات معنا، كما يقول كوكيرمان، لكن على الصعيد الأخلاقى أراد اليهود إظهار تضامنهم مع الشعب الإسرائيلى والمائة وخمسة وعشرين الذين ماتوا فى شهر مارس» [2]

«وقد يكون هناك جمع غفير، كما يقول كوكيرمان، كثير من اليهود وقليل من غير اليهود، وهذا يخيفنى، وسيقتصر الحديث على اللاسامية، وسيكون هناك إجماع لكن قضية الدفاع عن إسرائيل لن تحقق هدفها . . .»[3].

ويتأسف أحد مسؤولى المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية بفرنسا، والذى رفض مع ذلك الإفصاح عن نفسه، فيما يتعلق بمظاهرة ٧ إبريل:

١- ليبراسيون ٣ إبريل (٢٠٠٢) «تحرك حرج للجالية» يشير إلى أحد المنظمين الذى لم يوفق فى دعوته.

٢- الفيجارو ٤ إبريل (٢٠٠٢) «التظاهر من أجل إسرائيل أم ضد اللاسامية؟»

٣- نوفيل أوبسرفاتور ٤-١٠ إبريل (٢٠٠٢).

« لقد أمضينـا وقتا كبيراً فى « ضرورة عـدم نقل صراع الشرق الأوسط إلى هنا أى ينبغى الفـصل بين الاعتداءات اللاسامـية فى فرنسا والسـياسة الإسرائيلية بيد أننا مع أول مناسبة نخلط كل شيىء» (١)

وسيكتب إيلى بارنافى، بعـد أن انتهى عمله كـسفير، بخـصوص هذه المظاهرة، أنهـا تظهر جـيداً أن الأمـر «بالنسبـة لمعظم يهود هذا البلـد فإن الوقت الآن هو وقت الانسحاب إلى داخل القوقعة الطائفية» (٢)

١- الفيجارو ٤ إبريل (٢٠٠٢) «التظاهر من أجل إسرائيل أم ضد اللاسامية»

٢- نوفيل أوبسرفاتور ١٧ أكتوبر (٢٠٠٢) «خطاب مفتوح إلى يهود فرنسا»



الفصل الخامس

اليمين المتطرف والعداء للسامية

يصرح غلاة الموالين لإسرائيل بأن العداء للسامية قد تغير. ولم يعد، بصورة رئيسية، كما كان فى السابق، من عمل اليمين المتطرف، وإنما صار يكتسى بملامح اليسار.

هكذا كتب تارنيرو: "لقد حل العداء للسامية كأيدولوجية محل النموذج الثورى. وأخذت فلسطين مكان البروليتاريا فى خيال سياسى تنقصه الحماسة. فالعداء للصهيونية والعداء للسامية يشكلان اليوم رحمين لتقدمية جديدة للحمقى."(١)

فلنمر سريعا على هذا الاتجاه العام لغلاة الموالين لإسرائيل، الذين لا يمكنهم أن يمتنعوا عن تقديم حجة بدون أن يصحبوها بشتيمة. وإنه لمن الأفضل أن نذهب إلى ما هو جوهرى. لقد تغير رأى اليسار، بصفة عامة، تجاه إسرائيل. وكان دعمه يستند إلى تصور إسرائيل كبلد ديمقراطى صغير، مؤسس على القيم الديمقراطية، وعليه أن يواجه نزاعات مع بلاد عربية غير ديمقراطية، ولا تعترف بحقه فى الوجود. وجاء هذا ليضاف إلى تضامن تقليدى لليسار مع الطائفة اليهودية كان قد نشأ مع قضية دريفوس بعد

١- "أى متعة فى إضفاء الطابع النازى على إسرائيل" ليبراسيون ١٣-١٤ إبريل (٢٠٠٢).

رعب النازية. واليوم تبدو صورة إسرائيل أكثر من أى وقت آخر كصورة بلد يحتقر القانون الدولى ويحتل أراضا ليست له ويقمع بقوة الشعب الفلسطينى الذى قبل قادته، برغم ذلك، حق إسرائيل فى الوجود. ويشجع اليسار اليوم (ليس كل اليسار وليس وحده) هدف إنشاء دولة فلسطينية ويطالب بأن يُعامل الفلسطينيون معاملة إنسانية. على كل حال، كيف يمكن للمرء أن يعلن انتسابه لليسار إذا كان لا يحترم القانون الدولى ولا يحترم كرامة الكائن البشرى؟ وهذا لا يجعل اليسار معاديا للسامية ومعاديا للصهيونية وإنما يفسر معارضته لسياسة شارون، الذى يزداد تباعده فى كل يوم عن هدف إنشاء هذه الدولة الفلسطينية، ويعمل على إدامة معاناة السكان الفلسطينيين التى صارت مرفوضة أكثر فأكثر، ودون أن يُحَسنٌ فضلا عن ذلك أمن الإسرائيليين.

لقد قاد العداء للسامية إلى تحول قطاع من اليمين المتطرف إلى أن يصير مواليا للعرب. وهذا التيار موجود دائما. غير أن هناك قطاعا آخر من اليمين المتطرف تحول إلى مساندة قوية لإسرائيل التى تبدو له كأفضل خصم للعرب. وهذا الحقد علىٰ العرب جعل هذه الشريحة السياسية تعمل لصالح إسرائيل بعد أن كانت تجسد فى الماضى أكثر صور معاداة السامية غباوة.

ويعتبر الكسندر ديل فال واحداً من ممثلى هذه الشريحة من اليمين المتطرف التى انضمت لقضية إسرائيل عبر معارضة شديدة لـ "اليسار" والمسلمين على حد سواء، ويسمح الانحياز إلى إسرائيل بضرب عصفورين بحجر واحد. ويقول "يتوجه اليسار المتطرف واليسار الدولى اليوم باتجاه ينحو إلى أبلسة اليهود، عبر دولة إسرائيل والصهيونية والذين يتضامنون معهم، وهم بذلك ينضمون إلى فرضيات الدعاية لبن لادن، الذى لم يكن أبداً، مع ذلك، مهتما بمصير الفلسطينيين".

"المزايدة الإعلامية السياسية مؤخرا ضد دولة إسرائيل والصهيونية بل وضد اليهود باختصار، باتهامهم بأنهم متضامنون مع السياسة "الفاشية" لشارون، سمحت، على الأقل، بتوضيح وكشف الخداع الكبير وخلفيات أفراد اليمين المتطرف فى عدائهم لليهود والصهيونية، كأول متواطئين إيديولوجيين مع الشمولية الإسلامية الجديدة، التى تهاجم الديمقراطيات الغربية، وكأساتذة كبار فى النفاق طالما أن ديماجوجياتهم التكتيكية والموجهة عن محبة اليهود تخفى فى الواقع كراهية لليهود "معدلة وخبيثة." [1]

وقد اشتهر الكسندر ديل فال بكتاباته المتضامنة مع صربيا ميلوسيفتش وبمعارضته للسياسة الغربية فى البلقان، متهما إياها أنها تلعب لعبة المسلمين. وكان فى هذه الفترة معادياً بصورة واضحة لأمريكا. وإضافة إلى ذلك فقد اتخذ من نفسه مديراً لمركز جيوبوليتكى وجوده غير مؤكد.

وقد كشف رونيه مونزات، وهو أحد المتخصصين فى اليمين المتطرف، بعض المعلومات الهامة عن الكسندر ديل فال، واسمه الحقيقى هو مارك دانا. وقد ظهرت هذه الدراسة فى إبريل (٢٠٠٢) فى مجلة حركة رالفون Ras L'front. وكشفت الدراسة أن مارك دانا قد تعاون بصورة منتظمة مع مطبوعات تعود إلى اليمين الجديد الوثنى فى الفترة بين بداية (١٩٩٤) وسبتمبر (٢٠٠١). وفى يوليه - أغسطس (١٩٩٦) تحدث تحت اسم مستعار هو جيلدو ديل فال فى جامعة صيفية لشبكة أوربية ذات اتجاه وثنى جديد هى "الائتلافات الأوربية الجديدة" التى انعقدت فى اللومباردى. ومن بين الأسماء الأخرى المشاركة نجد كلوريوموتى وهو الناشر الإيطالى

١- الفيجارو، "الوجوه الحمراء والخضراء للعداء للسامية".

لكتاب "بروتوكولات حكماء صهيون". وتقول الدراسة أيضا أن مارك دانا كان محاضرا أثيـراً فى دوائر اليمين المتطرف ولدى الكاثوليك المتشددين فى الأخوة الكهنوتية للقديس بى العاشر[1].

وسـيصـير الـكسندر دى فال مـحـاضرا أثيـراً لدى قطاع من الطائفـة اليهـودية، ومتحمـسـاً لإعطاء إضاءة استـراتيجيـة وهمية على خوفـها من العـرب[2]. وهو يدعو من خلال حجـة مماثلة لحجة بن لادن إلى تحالف يجمع كل الذين ينبـغى لهم أن يواجهوا العرب من إسـرائيل وأمريكا لكن أيضـا روسيـا والهند الخ. وسيكتب حـتى فى صفـحات مـرصد العـالم اليهودى.

ويقول: "الإسلام شمولى"، "العملية الراهنة من الاستيطان والإسكان والتى يطلق عليـها بإسـراف "ظاهرة هجرة" ترتبط بالـفعل بحـرب غزو، وغزو مقنع"[3]

ومـا هو أكثـر دلالة، وأبعـد من المسيـرة الشخـصـية لديل فـال، هو الاستقبال الذى يحظى به فى دوائر طائفية معينة.

١- إكزافييه ترنسيان، "أخطار كراهية الإسلام" لوموند ١١ مايو (٢٠٠٢).

٢- سيـدافع عنه بشراسة: جـان إيف كانوى "العالم والطائفـتان. أجهـزة الإعلام الفرنسـية هل هى موضوعـية؟" مرصـد العالم اليهـودى ص٩١. يعيب على إكزافيـيه ترنسيان أنه أنطلق فى " نقد الشخص" على الكسندر ديل فال "الذى يحكم بجرأة على أخلاقيـات العمل فى صحـيفة لوموند" كل هذا لأنهـا وضعت فى المقدمة عـلاقاته مع اليمين المتطرف! بالنسبة لأناس لا يتوقفون عن اتهام من ينتقدون شارون بالعداء للسامية بإضافة أحكام تنزع عنهم بشكل عام خصائصهم المهنية: نرى حقا أن أى حياء قد وُضعَ جانبا.

٣- إكزافييه ترنسيان "أخطار كراهية الإسلام" لوموند ١١ مايو (٢٠٠٢).

ولم يتردد مارك كونبل، وهو باحث فى مركز سيمون فاينستال[1]، فى التوقيع على مقالة مع الكسندر ديل فال اسـمها "تقارب الشموليات."[2] ويعرف المـرء منها أن المحـور "الأحمر والبنـى والأخضـر"، (الحـركات المعـادية وتحالف اليـسار الـراديكالى والإسلامـيين) يطبع بطابعـه الحـوار الفكرى.

لقد ذهلت شخصـيا من كل الرسائل العادية والالكترونية التى تلقـيتها بعد نشر مقـالى فى جريدة لوموند[3] فى أغـسطس (٢٠٠١)، عن عنف الأقـوال التى يسـتـخدمـها كـثـير من غـلاة الموالين لإسرائيل إزاء العـرب والمسلمين. ولم يتـردد كـثيـر من المؤلفين، فى الغـالب بدون أن يذكـروا أسماءهم، فى استخدام تعبيرات صريحة فى عنصريتها وقذارتها.

فى صـيف (٢٠٠٢) كشفـت صحيـفة ليـبراسـيون، عن مـوقع على الإنترنت لليمين المتطرف "النجدة ضد الأوباش" "Sos Racaille" كان قد نادى بالتصويت لصالح لوبن، وحتى هذا الحد ليس هناك ما يدهش، لكن الأكثـر إثارة للانتـباه هو إحدى الحـجج المستـخدمـة من قبل مـؤلفى هذا الموقع. وهى انه ينبغى التصويت ضد "بن شيراك"[4].

وكان من بين العـلاقات الصـديقة للموقع مـوقع آخر مـوال لإسرائيل L'AIJP ويشاركه الحقد على العرب.

ولم يكتف مـوقع "amisrealhai. org" بتقديم قائمة بـأسماء "اليهود" كما رأينا سـابقا، بل قدم أيضا دلائل على قرابتـه الإيدولوجية المربكة مع

١- كان يعمل فى الواقع فى سفارة إسرائيل بباريس.

٢- الفيجارو ٢٢ ابريل (٢٠٠٢).

٣- انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

٤- ليبراسيون، ٩ اغسطس (٢٠٠٢) "على خط النداء للقتل".

اليمين الفرنسى المتطرف. فى ١٥ يـوليه نشر نصا معنونا بـ"شيـراك وعملية المرصد[1]؟" بشأن عملية الاعتداء على رئيس الجمهورية من قبل شاب من اليمين المتطرف. ويمكن للمـرء أن يقرأ إنه من بين الذين قاموا بتحـييد هذا الأخيـر " سيظهر قريـبا، اسم محمـد شلح وهو من أصول تعود لشـمال أفـريقيـا، فى عـيون الفـرنسيـين، كبطل أنقـذ الرئيس من مـوت محـقق برصاصات متعصب من "اليمين المتطرف". وسيكون من نتائج هذه الحادثة إكمال عملية أبلسة اليمين القومى وتبرير كل الإجراءات التى يمكن أن تتخذ مقـدما إزاء المتعـاطفين معـه. (. . .) وتقديم نموذج بطل جـديد من أصل مغاربى للسكان الفرنسيين كما لو كان نموذجا للمدنية"[2].

وسنجد أيضـا الإيطالى فينى Fini، الذى يعرف نفسـه بأنه يمثل ما بعد الفاشية، مرحبا به فى إسرائيل وفقا لشيمون بيريز[3].

من جهة أخـرى صارت حكومة بيرلسكونى (الذى لم يتـردد فى تمجيد تفوق الحـضارة الغـربية، فى ٢٠ سبـتمبـر (٢٠٠١)، ووقف بذلك خلف نظرية صدام الحـضارات) أكـثر حكومات أوربا مـساندة لإسـرائيل، بهدف إرضاء أمـريكا أساسـا، لكن أيضا، كـما برهن عليـه نجاح كـتاب أوريانا فالاتشى، لأن العدواة مع المسلمين صارت شعوراً متزايداً فى هذا البلد.[4]

بيد أن هذا يـبدو محـدود الأهميـة مع تطور زعيم الجـبهة الوطـنية فى فرنسا، جـان مارى لوبن. وكرست يديعوت أحـرونوت، الصحيفـة الأكثر

١- اتهم فرانسوا مـيتران من قبل خصـومه بأنه قد نظم بنفسـه، فى (١٩٥٩)، عملية اغتيال له أمام حديقة مرصد باريس.

٢- لومـوند ٢٣ أغـسطـس (٢٠٠٢)"مـوقع على الإنتـرنت يربط بـين الصـهـاينة الراديكاليين واليمين المتطرف".

٣- IHT، ١٠ مايو (٢٠٠٢).

٤- ليبراسيون، ٢٤ ابريل (٢٠٠٢).

انتشاراً فى إسرائيل، عنوانها الرئيسى "ذهول" لوصف المكانة الثانية التى حققها المرشح "العنصرى والمعادى للسامية" تماما كما فعلت "معاريف" أثناء الجولة الأولى من انتخابات الرئاسة الفرنسية. ويقول وزير الإعلام الإسرائيلى روفين ريفيلان، وهو راديكالى من الليكود "لقد فكر الفرنسيون دائما مثل لوبن لكنهم لم يتجرأوا على قول ذلك بصوت مرتفع". وصرح تيزبى ليفينى، مساعد وزير الخارجية الإسرائيلى: "إن النتيجة التى حصل عليها لوبن هى تعبير عن محاولات إنكار الهولوكوست ليس فقط فى فرنسا وإنما فى كل أوربا"(١).

وهكذا فإن وصول مرشح اليمين المتطرف إلى الجولة الثانية من انتخابات الرئاسة، والذى تحدث مرات عديدة بأقوال لها ملامح معادية للسامية، يثبت الفرضية المزعومة عن حدوث انحراف فى فرنسا.

لقد ابتهج بصورة شبه علنية أولئك الذين كانوا يريدون نزع مصداقيته ومنعه من أن يلعب أى دور فى الشرق الأوسط. ولا يريدون أن يأخذوا بالاعتبار التعبئة الضخمة التى قام بها الفرنسيون ضد اليمين المتطرف بين جولتى الانتخابات. يمكن للمرء أن يرى مفارقة فى موقف أولئك الذين لا يقولون شيئا عن وجود اليمين المتطرف ليس على الساحة السياسية وانما فى قلب الحكومة الإسرائيلية ذاتها، ويرفعون صرخات الرعب ضد تأثير اليمين المتطرف فى فرنسا. فى إسرائيل لم يكتف هذا التيار السياسى بتحقيق تقدم انتخابى وإنما يحتل مكانة فى الحكومة ويؤثر على سياستها.

لماذا لا يتم حينئذ التركيز على أخطار اليمين المتطرف فى إسرائيل، معه

١- الفيجارو ٢٣ ابريل (٢٠٠٢).

القسم الأكبر من القوى السياسية، بما فيها حزب العمل، يمارسون الحكم؟
وهل يمكن القول إن العداء للسامية لدى لوبن هو الذى جذب إليه الكثير من أصوات الناخبين فى ٢١ ابريل (٢٠٠٢)؟ يمكن للمرء الاعتقاد، على العكس، أن هناك عوامل أخرى كانت أكثر أهمية من العداء للسامية الذى لم يكن له سوى دور هامشى. من جهة أخرى فإن مواقف لوبن من إسرائيل هى أكثر تعقيداً مما قد يعتقده المرء. لقد نشرت صحيفة هاآرتس الإسرائيلية فى ٢٢ ابريل مقابلة مثيرة للاهتمام مع زعيم الجبهة الوطنية. عندما سئل عن الاعتداءات المعادية للسامية. لقد أقام ربطا بين السكان من أصل مغاربى فى فرنسا وأحداث الشرق الأوسط وأضاف "هناك سكان إسلاميون فى فرنسا، أغلبهم من شمال إفريقيا. ومع أن بعضهم حصل على الجنسية الفرنسية إلا أنهم لا يملكون المخزون الثقافى والبنية الاجتماعية الفرنسية. . . قيمهم مختلفة عن قيم العالم اليهودى-المسيحى. . . ويتدعمون بصورة تلقائية بالتناسل الطبيعى وبالهجرة. . . إنه عالم الإسلام بكل ضلاله". وكان ينفى برغم ذلك وجود معاداة للسامية فى فرنسا، مذكراً بأنه قبل الانتفاضة كان هناك ثلاثة أو أربعة حوادث معادية للسامية فى السنة من ضمن ١٨ مليون جريمة وأعمال خارجة عن القانون. واستمر فى تفسيره قائلاً إنه إذا كانت أجهزة الإعلام موالية للفلسطينيين فإن ذلك يعود إلى "ثقل العرب فى العالم ووجود طائفة مسلمة قوية فى فرنسا، ولواقع أن شارون من اليمين. . . وأن هذه السياسة ذاتها لو قام بها واحد من اليسار لحظيت بانتقاد أقل". وأكد جان مارى لوبن فى المقابلة ذاتها أن الإسرائيليين يمرون اليوم بالتجربة ذاتها التى مرت بها فرنسا أثناء حرب الجزائر "تقول الحكومة الإسرائيلية أنها ضحية لاعتداءات إرهابية" غير أن

هذه الاعتداءات أقل وضوحا من الضـربات العسكرية. كنت أنتمى للفرقة العاشرة المظليـة التى كان عليها أن تضع حـداً للرعب فى الجزائر. وقد بدأ هذا بعد سلسلة من الاعـتداءات ضد المدنيين فى الأماكن العـامة. وقامت الفـرقـة بإزالة هـذا الرعب غـيـر أنهـا لم تفـعل ذلك بـطريقـة ودية مع الإرهابيين. فـالحرب ضـد الإرهاب شئ وحـشى". وأضاف بعـد ذلك: "أتفهم تماما دولة إسرائيل التى تسعى لحماية مواطنيها"

ما الذى يثير الدهشـة، فى الواقع، فى هذا التقارب بين لوبن-شارون؟ الاثنان لديهما مشاعر متقاربة إزاء العرب.

كتب روجـيه كوكيـرمان فى مقال منـشور فى اليوم التالى لانتـخابات الرئاسة الفرنسية على موقع الإنترنت لصحيفة هاآرتس ذاتها أن النسبة التى حصل عليها جان مارى لوبن فى الجـولة الأولى "كانت رسالة موجهة إلى المسلمين كى يلتزموا الهدوء".

وأمام الاضطراب الذى أثارته مثل هذه التـصريحات اضطر إلى التراجع "لقد تم تحـريف أقوالى" كـما ذكـر لوكالة الأنبـاء الفرنسـية ناسـبا ذلك لأخطاء فى الترجمة.

وصحـح أقواله "أشرت إلـى النتائج الممكنة للتـصويت لصـالح لوبن وسئلـت إذا كان ذلك فى وسـعه أن يؤدى إلى انخـفاض أعمـال العنف، فوجدت نفسى مضطراً لأقول نعم". وكتب كوكـيرمان، فيما بعد، منظماً دفاعه: "إن الأقوال التى نسـبت إلى لم تكتب بطريقة تعبر عن حقـيقة ما أقـصـد، فـالتـصـويت لصـالح اليـمين المتـطرف لا يمكن أن يحـمل إلا الشقاء". [1]

١- "ألا نخدع أنفسنا" لوموند ٢٧ ابريل (٢٠٠٢).

بدون شك. لكن فلتتخيل لحظة أن مسلما فرنسيا قد أفضى لصحيفة عربية بأن التصويت الذى حصل عليه لوبن فى الجولة الأولى هو رسالة موجهة ليهود فرنسا بأن عليهم أن يلتزموا الهدوء"، فهل كان التكذيب بالغموض ذاته يمكن أن يقبل بسهولة؟ وإذا كان هذا المسلم يشغل مسؤولية طائفية فهل كان من الممكن أن يظل فى موقعه، أو يجد نفسه مضطرا إلى الاستقالة؟ وهل كان يمكن التعامل معه على أنه مفاوض ذو شرعية أمام السلطات العامة؟ ألن يتم تذكيره بأقواله فى كل مداخلة يقوم بها؟

كيف نفسر أن كوكيرمان، الذى يدين بسرعة خطابات الآخرين عندما لا تروقه، والذى لا يتردد أحيانا فى إعطائها معنى مختلفا إذا كان ذلك سيدعم حجته، يرفض أن يكون للمرء الحق فى الحكم ليس على ما يعزى إليه وانما على ما قاله حقا؟ ما يزعجه ليست الأقوال التى قالها وإنما لأنها وصلت إلى الجمهور الفرنسى.

وستؤدى هذه الأقوال إلى حدوث انقسام داخل الطائفة اليهودية، وسترتفع أصوات لإدانتها. ومن بينها ميشيل دريفوس-شميت، وهو سناتور اشتراكى ورئيس" اشتراكية ويهودية"، وهو من الذين كرسوا حياتهم البرلمانية للدفاع عن حقوق الإنسان وتقدم الحريات، وكان قد شعر باستياء من هذه الأقوال: "إذا كان قد تفوه بهذه الأقوال التى نقلتها الصحف فإن روجيه كوكيرمان غير جدير حينئذ بتمثيل الطائفة اليهودية فى فرنسا"(١)

غير أنه لم يكن هناك أى مسؤول اشتراكى قد رأى أنه من المناسب متابعة ميشيل دريفوس-شميدت فى الاتجاه الذى سار فيه.

١- ليبراسيون، ٢٣ ابريل (٢٠٠٢).

ووجد برنار أبواف، وهو مدير راديو شالوم، الكلمات الدقيقة أيضا لإدانة هذا التفسير الذى قدمه كوكيرمان: "هذا أمر زائف وأحمق فلن يقلص أبداً النجاح الانتخابى الذى حققه لوبن، من العداء للسامية. لا ينبغى أن ندخل فى المنطق العربى الإسلامى ضد اليهود"[١]

غير أنه بعد هذه الموجات من النقد سيتم نسيان هذا الأمر وسيختفى دون أن يترك آثاراً. كان يمكن الاعتقاد أن مثل هذه الأقوال الخارجة عن المعقول ستظل لفترة طويلة تلاحق صاحبها. لكن لم يحدث شئ من ذلك. على العكس، وأثناء العشاء السنوى للمجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية بفرنسا فى ٢٥ يناير (٢٠٠٣)، أعرب عن قلقه من أن هناك واحداً من كل خمسة قد توجه للتصويت لصالح لوبن أثناء الانتخابات الرئاسية وعن إدانته التحالف "البنى والأخضر والأحمر" المتهم بالعداء للصهيونية والعداء للسامية[٢].

وقد أثار برونو ميجربه، من جانبه، فى مواجهة الأصولية الإسلامية الحديث عن "اهتمامات مشتركة مع التنظيمات الممثلة ليهود فرنسا[٣]".

١- كان باتريك برويل من أنصار هذا الرأى: "هناك تائهون كثيرون فى هذه القضية. هناك من يعتقدون داخل الطائفة اليهودية أنه إذا جاء لوبن إلى السلطة فإن العديد من اليهود سيرحلون إلى إسرائيل وإذن هذا أمر جيد لإسرائيل، أو أن مجئ لوبن سيكون علامة موجهة للمسلمين.. غير أن الطائفة اليهودية تعرف فى النهاية مع ذلك ما تدين به للعنصرية والعداء للسامية والفاشية. وتطالب بواجب الذاكرة لكل الناس بالطبع وأن لا ينسى المرء شيئا كذلك، وخاصة نحن نخطئ تحديد العدو." لوموند ٣٠ ابريل (٢٠٠٢).

٢- ليبراسيون والفيجارو، ٢٧ ابريل (٢٠٠٣).

٣- صحيفة لوباريزيان Le Parisien ٢٨ أغسطس (٢٠٠٢)، استشهد بها دومنيك فيدال "باسم المعركة ضد معاداة السامية" لوموند ديبلوماتيك ديسمبر (٢٠٠٢).

وإلى جانب شارون، وشـيمون بيريز الحائز علـى جائزة نوبل للسلام. هناك فى الحكومة الإسـرائيلية وزراء عنصريون بصورة صريـحة، ويطالبون بطرد الفلسطيـنيين من الأراضى المحتـلة: وهو أمر لن يـكون سوى جـريمة حرب، ويطلقـون باستمرار تصـريحات مهينة جـداً ضد الفلسطينيين وتقع تحت طائلة القانون لو كـانت قد صدرت فى فـرنسا[1]، لتحـريضهـا على الحقد العنصرى. ومن جهة أخرى أثار وجود حزب العمال فى هذه الوزارة مناقشات فى قلب الاشتراكية الدولية.

فى ١١ ابريل (٢٠٠٢) كـتب إيليودى ربو، رئيس الحـزب الاشتـراكى البلجيكى إلى شيمون بيريز، مذكراً إياه أن كثيراً من الاشتراكيين لم يفهموا قرار حزب العمل فى مـارس (٢٠٠١) بالدخول فى حكومة يقودها رئيس الوزراء شـارون، ومكونة بشكل خـاص من أعـضـاء فى أحـزاب اليـمين المتطرف: "يبدو لنا أنه من غير المقبول أن يدخل حزب عضو فى الاشتراكية الدوليـة والحـزب الاشـتراكـى الأوروبى، فى تحـالف حكومى يضم وزراء قوميين بصورة مغالية وعنصريين بصـورة علنية. إنها مسألة مبدأ تتطابق مع الضرورة المطلقة بألا نجعل من اليمين المتطرف أمراً اعتياديا، والأسوأ إعطاءه مصداقـية، فى كل أنحاء العالم. وهذه القـاعدة من الأخلاق السيـاسية لا يمكن، فى نظرى، أن تواجه بأى استثناء."

وقد أعرب إيليو دى ربو بعد ذلك، عن استيائه وأن مخاوفه قد تأكدت بصورة كـبيـرة وأن عمل الحكومـة الإسرائيلية كـان كارثيـا على الصعـيد

١- أكـد إيلى بارنافى أنه أمـام حكومـة الاتحاد القـومى التى تأخـذ الميـاه من كل الاتجاهات وحزب العـمل الذى فى طريقة للتفكك نغامر بأن نجـد فى القدس "حكومة يمين بتكوين متطرف قد يجـعل من جنكيزخان اشتراكيـا ديمقراطيا مسالما" كـتاب فرنسا وإسرائيل، دار بيران Perrin، ص١٧

الإنسانى وعبثيا على الصعيد السياسى. وبعد أن أكد على أنه لا توجد حكومة فى العالم يمكن أن تكون فوق القانون الدولى، ولا يوجد جيش على الأرض يمكنه أن يتصرف بمعزل عن احترام الاتفاقات الدولية، قام إيليودى روبو بتذكير شيمون بيريز بصورة قاسية أن وجوده فى الحكومة لم يعد يمنع "تشدد السياسات وأن الحرب شاملة". ويخلص إلى القول: "فلتشرف مرة أخرى جائزة نوبل للسلام، واترك بدون تأخير حكومة شارون."

وبينما كان عديد من حزب العمل الإسرائيلى يأملون منذ فترة طويلة فى خروج حزبهم من الحكومة، وبينما استقال شلومو بن عامى وزير الخارجية السابق من منصبه فى البرلمان احتجاجاً على بقاء حزب العمل فى الحكومة[١] كان موقف الحزب الاشتراكى الفرنسى من هذه القضية من المحرمات دائما. وكان من اليسير التظاهر ضد حضور اليمين المتطرف فى الحكومة النمساوية أكثر من إسرائيل.

وأثناء اجتماع الحزب الاشتراكى الفرنسى حيث تم تناول هذه المسألة لم يتردد أحد المكلفين بمتابعة الشؤون الإسرائيلية فى القول إنه ينبغى مساندة شارون لأنه يمثل حاجزاً أمام ناتينياهو![٢] فى حين أن الأمر لم يكن يستدعى أن يكون هناك مثقف كبير حتى يدرك - أبعد من التراجع الاخلاقى - أن حزب العمل سيسير ضد مصالحه الانتخابية بالبقاء فى الحكومة ذاتها كشارون. وعندما قرر أخيراً مغادرة الحكومة فى نوفمبر

١- لوموند ١٠ أغسطس (٢٠٠١). "ببقائه فى الحكومة قدم حزب العمل ذريعة لليمين وسائرا نحو كارثة انتخابية" كما صرح بن عامى أثناء استقالته. ولو قدم أحد أعضاء الحزب الاشتراكى الفرنسى هذه الملاحظة لكان أثار حفيظة غلاة الموالين لإسرائيل على الفور.

٢- قيل هذا القول فى يونيه (٢٠٠٢).

(٢٠٠٢) أعرب الحـزب الاشتراكى الفـرنسى عن ترحيـبه ببيـان صدر عن المكتب القومى للحزب، ولم يجـرؤ أبداً على الإدانة قبل ذلك. وبعد ذلك سـيذهب المكلفـون فى الحزب عن الشـأن الإسـرائيلى الى الرهان على بن اليـعازر من الصـقور ضـد مـيتـزنا من الحمـائم الذى سـيكسب مع ذلك الانتخـابات الداخلية فى حزب العـمل. وقد أقرت حكومـة شارون التى تشكلت فى بداية (٢٠٠٣) مكانة متميزة لليمين المتطرف العنصرى ودون أن يعلن أحد عن استيائه.

كان ينبغى أن يخـفف كل هذا بصورة طبيعية من حـماسة أولئك الذين يدينون صعود اليمين المتطرف فى فرنسـا الذى يرون فيه الدليل على معاداة السامية المؤكدة لهذا البلد.

وبالطبع، فـإن وجـود مرشح الـيمين المتطـرف فى الجولة الثـانيـة من الانتخابات الرئاسيـة، والذى جاء ليؤكد تجذره على الخريطة السـياسية منذ عشرين سنة، هو مـوضوع اهتمام لكل جـمهورى. وواقع أن هذه الظاهرة منتشرة بقـدر كبير فى أوروبا لا يشكل عزاء. هل ينبـغى أن نستخلص من هذه الظاهرة أنها تشكل دليلاً ساطعاً على انفجار العداء للسامية فى المجتمع الفرنسى؟ لا ، لأن لوبن يتحاشى بعناية من الأن فصاعداً التفوه بتصريحات معـادية للسامـية، مبـقيا على انـزلاقاته اللفظية مع العـرب والمسلمين[١]. ويدعم علي العكـس سيـاسـة شارون، من جـهـة أخـرى وبشكل مـثيـر

١- كما أكدت الأسبوعية البريطانيـة المحافظة والليبرالية، حتى جان مارى لوبن قد أدرك "أن عليه أن يهـدئ من معـاداته للساميـة وأن من الأفضل إدانة الاعـتداءات التى يتعـرض لها اليهود، بهـدف التشهيـر بالمهاجرين المسليمن المكروهين. وقـد وضع جان مارى لوبن نفـسه فى موقع المدافع عـن اليهود الفـرنسيين ضد الأعـداء المسلمين وضد المهاجرين بشكل عام." الإيكونوميست، ٤ مايو (٢٠٠٢) "أوروبا واليهود".

للفضول، نجد أن صعود اليـمين المتطرف فى هولندا وإيطاليا قد حظى بنقد أقل من قبل إسرائيل. لقد تمت عملية توظيف سـياسى للنجاح الذى حققه لوبن فى الانتخابات بغرض محاكمة فـرنسا المعادية للسامية وحتى لايكون لها المشروعية إذن فى لعب دور فى الشرق الأوسط. وتأتى هذه الانتقادات من بلد يشـارك فـيه اليـمين المتطرف فى الحـكم. وفى فرنسـا نجـد بعض المساندين لهم يعـربون عن فرحة مـشابهة وأكثـر تكتماً من جراء التـحذير الذى تشكله هذه الظاهرة بالنسبة للعرب.

الفصل السادس

معاداة السامية فى فرنسا
من منظور إسرائيلى وأميريكى

الحوار الذى فجره المجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية في فرنسا، والمجمع الدينى المركزى، وبعض المثقفين من غلاة الموالين لإسرائيل، سيجد صدى خاصا فى بلدين هما إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. من المنطقى أن تتابع إسرائيل مصير يهود العالم بدقة وعناية فائقتين. وفى الولايات المتحدة نجد أن الاهتمام الموجه لحقوق الإنسان ذو طبيعة انتقائية أحيانا، وغالبا ما تتبع الأخلاق هناك المصالح الجيوبولتيكية. على أية حال، منذ عام (١٩٦٧) ومصير اليهود فى العالم يتابع عن قرب فى الولايات المتحدة الأمريكية. وليس هناك ما يثير الدهشة إذن فى أن هذين البلدين قد اهتما اهتماماً ملحوظاً بالنقاش الدائر فى فرنسا حول معاداة السامية. ويمكن الاعتقاد مع ذلك أنه إذا لم يكن هناك سواهما اللذان شعرا بهذا الوضع، فإن هذا يعنى أن المشكلة ليست خطيرة إلى هذا الحد الذى أراد البعض أن يصوره. وسيكون الأمر إهانة لمعظم الديمقراطيات الأخرى، ناهيك عن المنظمات الأخرى للمجتمعات المدنية التى تهتم بالدفاع عن حقوق الإنسان والكفاح ضد العنصرية، أن لا أحد منها قد اهتم بهذا الموضوع إذا كانت له خطورة نوعية وفعلية.

فى الحقيقة، وفيما يتجاوز القلق المعلن بشأن الأعمال المعادية للسامية فى فرنسا، توجد خلفية استراتيجية فى إسرائيل كما لدى الطائفة اليهودية بالولايات المتحدة الأمريكية، تتمثل فى إحراج فرنسا لأن سياستها فى الشرق الاوسط تزعجهما بشدة.

وهناك باعث آخر لدى إسرائيل وهو أنها تدعم بذلك الدعوة الموجهة لليهود الفرنسيين بالهجرة إلى إسرائيل.

وكان أرييل شارون أحد الأوائل الذين كشفوا عن الاشتعال الجديد للعداء للسامية فى فرنسا[1]. وبينما كان رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء الفرنسيين يحاولان ممارسة الضغوط على شارون حتى يعيد الحوار مع الفلسطينيين، كانت إدانة معاداة السامية المتنامية فى فرنسا وسيلة للإفلات من الإجابة على تدهور الأوضاع فى الشرق الأوسط. وكان مناحيم بيجين فى عام (١٩٨٢) قد استخدم على وجه الدقة الطريقة ذاتها[2].

ويعرف شارون أن التحدى الديموغرافى فى معركته ضد الفلسطينيين هو من التحديات الأساسية. ويظهر منحنى النمو السكانى أن الفلسطينيين سيكونون أغلبية فى معظم إسرائيل-الأراضى المحتلة من هنا إلى عشرين عاما. إلا إذا لجأت إسرائيل إلى إجراءات طرد جماعية- البعض يفكر فى ذلك-فإن الإسرائيليين سيضطرون سواء إلى التخلى عن الطابع اليهودى لدولة إسرائيل، أو التخلى عن طابعها الديمقراطى. ولكى يغطى هذا العجز حدد شارون ثلاثة أماكن ممكنة للهجرة نحو إسرائيل هى الأرجنتين وجنوب أفريقيا وفرنسا.

١- لوموند، ٨ يوليه (٢٠٠١).

٢- الاكتيواليته اليهودية، ١٠ يناير (٢٠٠٢) "تنمية هجرة اليهود من فرنسا لإسرائيل بصفة نهائية".

ولا توجد بواعث كبيرة لدى يهود فرنسا، المندمجين تماما فى المجتمع، لكى يذهبوا بصورة جماعية للإقامة فى إسرائيل. ومن المعروف أنه أثناء حصول دول المغرب على استقلالها قرر اليهود السفارديم الفرنسيون الذهاب إلى فرنسا وليس إلى إسرائيل. كما أن تزايد المخاطر ونمو الإرهاب الذى يضرب إسرائيل لا يمكن أن يدفع فى شئ إلى الهجرة نحو الدولة العبرية. لكن فى المقابل إذا حدث ذعر، ونشأ لدى بعض يهود فرنسا شعور بأنهم مستهدفون بوصفهم يهودا من قبل أعمال معادية للسامية، وأنه بسبب السقوط والتواطؤ مع الأغلبية العربية لا تفعل السلطات العامة الفرنسية أى شيئ لحمايتهم، إذن الرغبة فى الهجرة لإسرائيل يمكن أن تنبعث. ونظراً لأنهم يتعرضون للتهديد فإنه من الأفضل أن يذهبوا للعيش فى بلد تدافع حكومته عنهم أفضل من البقاء فى بلد يتركهم لمصيرهم الحزين، وخشيتهم من طائفة أخرى أكثر عدداً وذات طبيعة عدوانية تجاههم.

وأعلن وزير الاندماج والهجرة الإسرائيلى أن كل يهودى يأتى من فرنسا وجنوب أفريقيا فى (٢٠٠٢) سيتلقى بصورة تلقائية "Sal Klita" مساعدة مالية هامة تعطى منذ سنوات للمهاجرين من الاتحاد السوفيتى وبعض البلاد الأخرى غير أنها كانت تحجب حتى هذا الوقت عن المهاجرين من بلاد غربية.

والحال أن ألفا ومائتين من يهود فرنسا قد اختاروا الإقامة فى إسرائيل عام (٢٠٠١)، وهو أمر يمثل انخفاضا بنسبة ٢٠٪ بالمقارنة مع العام الفائت. وهو انخفاض يعود بصورة أساسية إلى الخوف الذى يثيره الوضع

الأمنى والاقتصادى فى إسرائيل[١]. وفى عام (٢٠٠٢) سيرتفع الرقم إلى ٢٥٦٦[٢].

وحدد بيان وزير الاندماج والهجـرة الإسرائيلى أنه من بين ستمائه ألف يهودى يقيمـون فى فرنسا يوجد ٤٠٪ يعيشون فى محـيط مسلم معادى، و٣٠٪ يستخدمون الخـدمات الاجتماعية للدولة الفرنسـية. "وتقدم الموجة المعادية للسامية المنتشرة فى فرنسا فرصة لدولة إسرائيل لكى تعود بالاف من اليهود إلى إسرائيل" كما قال الوزير.

"لقد احتفظ أرييل شارون بحقيبة وزارة الاندماج والهجرة منذ أن أسس حكومته. وأظهر اهتماما واضحا لمطالب قادة الطوائف الفرنسية بإعطاء دعم أكثر ليهود فرنسا الذين يعودون نهائيا للإقامة فى إسرائيل. ونعرف أنه أثناء اللقـاء الذى تم منذ عدة أشـهر بين قادة الطـائفة اليهـودية بفرنسـا ورئيس الوزراء الإسرائيلى، طالب جـان كاهن رئيـــــس المجـمع الدينى المركزى من آرييل شارون أن يمنـح يهود فرنسـا الذين يرحـلون لإسرائيل المسـاعدة المالية Sal Klita".

ومع مرور الوقت وتدهور الأوضاع فى الشرق الأوسط واستمرار فرنسا فى تعزيز طريق السـلام من خلال المفاوضات، وإظهار نقـدها تجاه حكومة شارون، سـتنمو فى إسرائيل الاتهـامات حول تصاعـد العداء للسامـية فى فرنسا.

١- ليـبراسـيون، ٨ يناير (٢٠٠٣)، لومـوند ٧ يناير (٢٠٠٣)، قـدمتـا رقم ٢٢٣٦ يهوديا فرنسيا هاجروا إلى إسرائيل فى (٢٠٠٢).

٢- الاكيتواليته اليهودية، ١٠ يناير (٢٠٠٢).

فى ٦ يناير (٢٠٠٢) وصف ميشيل ملشيور، نائب وزير الخارجية الإسرائيلى، فرنسا بأنها "أسوأ البلاد الغربية فيما يتعلق بالعداء للسامية"[(١)].

وفى ٢٠ فبراير، وفى خطاب أمام مسؤولى مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية أعاد آرييل شارون التأكيد على أن الطائفة اليهودية فى فرنسا قد يكون عليها أن تواجه "موجة خطيرة جداً من العداء للسامية". وأضاف قائلا إن "هناك ما يقرب من سته ملايين عربى و(اليهود) يمكن أن يجدوا أنفسهم أمام خطر كبير، لهذا نحن نعد كل الاستعدادات لاستقبالهم فى إسرائيل" أضاف شارون. هذه الأقوال تقول الكثير عن الطريقة التى يدرك بها رئيس الوزراء الإسرائيلى العرب أكثر من حديثه عن تصاعد العداء للسامية. من الظاهر كما يرى أنه منذ اللحظة التى يوجد فيها كثير من العرب فى مكان ما فإن اليهود بصورة تلقائية يتعرضون للتهديد، ولا يبدو ممكنا فى نظره أن تتعايش الطائفتان فى تناغم.

وقد أثارت هذه الأقوال عاصفة من الاحتجاجات والإيضاحات. وقد أكدت وزارة الخارجية الفرنسية فى ٢١ فبراير (٢٠٠٢) أن "إدانة فرنسا كبلد معاد للسامية شئ شنيع". وصرح إيلى بارنافى سفير إسرائيل فى فرنسا لإذاعة RTL أنه أمر "مبالغ به كثيراً" القول إن الطائفة اليهودية

١- لوموند ٢٣ فبراير (٢٠٠٢) "أرييل شارون والعداء للسامية فى فرنسا".

فى فرنسا "مهددة بالعنف" [١]. كما أكد روجيه كوكيرمان على ضرورة "إضفاء نظرة نسبية" على تصريحات شارون.

غير أن العديد من اليهود الفرنسيين لن يذهبوا إلى إضفاء نظرة نسبية على تصريحات شارون بل سيدينون حجج رئيس الوزراء الإسرائيلى[٢]. ومع ذلك، فالحملة الدعائية لم تتوقف عند هذا الحد، إذ أن إيلى إشاى وزير الداخلية الإسرائيلى، من حزب شاس" الارثوذكسيى" أثناء استقباله فى ٢٢ ابريل (٢٠٠٢) وفداً من قادة الطائفة اليهودية فى فرنسا فى زيارة للقدس، حث يهود فرنسا على "جمع حقائبهم والهجرة إلى إسرائيل".

وفى مجلة المنبر اليهودى الشهرية أكد ديفيد ليفى وزير الخارجية الإسرائيلى السابق، فى مقابلة معه، أن الصحافة الفرنسية "تتحمل مسئولية كبيرة" فى الاعتداءات على المصالح اليهودية فى فرنسا "وأن عليها أن تراجع ضميرها". وهذه التصريحات التى تماثل بين أى نقد أو حتى تساؤل وبين العداء للسامية يمكن أن تكشف عن خطر بالنسبة لأجهزة الإعلام الأجنبية فى إسرائيل، وتشبه فى الواقع حملة منتظمة من التخويف ضد الصحافة الدولية.

١- صرح للفيجارو ماغازين، ٢٦ اكتوبر (٢٠٠٢): "لقد استمعت إلى أشياء مجنونة عن اللاسامية الفرنسية المزعومة. . .الأمر الذى قد يؤدى إلى الاعتقاد بأن ناصية كل شارع فى باريس تشهد مذابح! . . .فإراك الحقيقة والحقيقة هما شيئان مختلفان"

٢- "النظر إلى أنه يكفى ليهود فرنسا الإقامة فى إسرائيل حتى يصيروا فى النهاية آمنين" ألا يعنى هذا ضمهم؟ أليس فى هذا نظرة لطائفتهم كما لو كانت من الأشياء التى تزرع كمستوطنة؟ "اختار السيد شارون لحظة غريبة ليقدم الضيافة الإسرائيلية ليهود فرنسا. وسيتساءل الخبثاء إذا لم يكن هو الذى يحتاج إليهم أكثر، ربما لسد النقص فى صفوف العسكر الشباب للجيش الإسرائيلى الذين سحقوا أثناء مهمتهم. لا يوجد عدد كبير من أفراد الطائفة اليهودية يريدون استبدال حماية شارون بقوانين الجمهورية" جورج والتر، "لا ، شكراً أيها السيد شارون" الفيجارو ٤ مارس (٢٠٠٢).

وصعدت إسرائيل من موقفها ضد فرنسا، حيث ترى أنها تعمل لصالح الفلسطينيين، وكل ذلك لأنها تصر على تدعيم فرص حل تفاوضى وتفضل حلا سياسيا وليس عسكرياً، وعلى أرضية من احترام القانون الدولى وستعمل إسرائيل كل ما فى وسعها على تحقيق أقصى تقليص ممكن لهامش المناورة أمام الدبلوماسية الفرنسية فى الشرق الأوسط. ويشكل الاتهام بالعداء للسامية جزءاً من هذه الاستراتيجية.

لقد دفع سفير فرنسا فى إسرائيل ضريبة هذه الاستراتيجية. فأثناء استقبال رئيس الدولة العبرية لأفراد السلك الدبلوماسى بمناسبة العام اليهودى الجديد، تقدم أحد الصحفيين الحاضرين من جاك هنتزنجر، سفير فرنسا فى إسرائيل، وطرح عليه سؤالا: "هل يمكن أن نقارن بين ياسر عرفات وبن لادن؟ فأجاب هنتزنجر بأن الإرهاب ينبغى أن يدان فى كل الأحوال، لكن سيكون من غير المسئول تماما المقارنة اليوم بين الوضع هنا ووضع الولايات المتحدة. هنا الإرهاب مرتبط بالصراع بين إسرائيل والشعب الفلسطينى."

وكان سفير فرنسا قد تحدث باللغة الانجليزية، لكن حدث تغيير صغير فى الترجمة العبرية "سيكون أمراً غير مسئول المقارنة بين الإرهاب هنا والإرهاب فى الولايات المتحدة". وكان هذا كافيا حتى ينطلق بعض المغرمين بالعناوين المثيرة فى ضجة صاخبة "هنتزنجر يعطى الضوء الأخضر للإرهاب" كما قال موشيه كاتساف رئيس إسرائيل. وصاح النائب شول ياهالوم (من الحزب القومى الدينى، ووزير سابق) "ينبغى إعادته إلى باريس". وبطريقة رسمية أعتبرت وزارة الخارجية الإسرائيلية فى القدس أنه

لو كـانت الطائرات المختطفـة قد ضـربت برج ايفل لكان هنتـزنجر تحـدث بطريقة أخرى. "مكانه ليس هنا" كما قالت مـصادر معينه بالوزارة لأجهزة الإعلام. وقدمت الوزارة بصورة رسمية شكوى ضد السفير. واستدعى من قبل المدير العام، افيل جيل، لتقديم إيضاحات.

وقد صرح جاك هنتزنجر إلى صحيفة يديعوت أحرونوت فى ٢٨ سبتمبر (٢٠٠١) "أنا لا أفـهم مطلقا كـيف يمكن لصـــــديق لإسرائيل مـثلى أن يصير فجأة عدواً للشعب، وهو الذى اتهم عبد الناصر والملك حسين بأنهما من الغـزاة"[١]، والذى أمضى بصورة اختيارية فى فـترة شبابه أشهراً فى كيـبوتز هوجو شـاريم. وتشير الصـحيفـة الإسرائيلية إلى أنه "فى مـقابلة تليفـزيونية قدم هنتزنجـر اعتذارات كما لـو كان أحد يصوب مسـدساً على صدغه".

ولا نتخيل فى بلد آخـر أن يوضع سفير لفرنسا مـوضع تساؤل وبطريقة تجعله يوافق على تقـديم اعتذارات بينما هو ضـحية عمليـة تزوير. وينبغى الإقـرار بأن هذا الاتهـام فى طريقه إلـى أن يصبح من الأمـور المألوفـة فى المجتمع الإسرائيلى، بما فى ذلك داخل اليسار. وهكذا، فى (٢٠٠٢)، قام رئيس حزب العمل ووزير الدفـاع بنيامين بن اليعازر بتوجيـه نقد شديد إلى نائب حزب العمـل السابق يوسى بلين، وهو أحد قادة معـسكر السلام في إسرائيل، مـعيباً عليـه أنه سبب أضراراً للحـزب ومتهمين إياه بـ "مـعاداة صرفة للسامية".

ومرة أخرى وضعت الصحيفة الإسرائيلية هاآرتس، الأمور فى نصابها،

عن طريق ما قاله عكيفا الدار "أى حكومة أجنبية تنتقد الاحتلال تتهم بصورة تلقائية بمعاداة السامية، وكذلك الأمر بالنسبة لأى صحيفة أوربية تنشر قائمة انتهاكاتنا لحقوق الإنسان. ويبدو أن العداء للسامية صار نعمة لليهود. فإذا كان العالم بأسره ضدنا فماذا يفيد إخلاء المستوطنات والانسحاب من الاراضى؟"[1]

وأضاف الصحفى "من خلال خبرتنا الماضية مع أوروبا نعرف أن العداء للسامية لا يصدر بمرسوم من أعلى. واتفاق الشراكة الذى وقع مع الاتحاد الاوروبى فى (١٩٩٥) يثبت بكل تأكيد أن موقف إسرائيل هو الذى يدفع إلى استقبالنا بحرارة أو برود.

واتفاق الشراكة هذا، الذى يسمح لإسرائيل بمنافذ ذات أولوية إلى أسواق خمسة عشر بلداً بالاتحاد الاوروبى، كان مكافأة على اتفاقيات أوسلو. وكانت سياسة حكومة ناتنياهو، بعد ذلك، هى التى دفعت برلمانات فرنسا وبلجيكا إلى تأجيل التصديق على اتفاق الاتحاد الأوروبى - إسرائيل. وإذا كانوا فى النهاية قد صدقوا على الاتفاق، فى (٢٠٠٠)، فذلك لأنهم اقتنعوا بجهود السلام التى بذلتها حكومة باراك. الآن تصف الأحزاب السياسية الإسرائيلية البلجيكيين بأنهم معادون للسامية لأنهم اتجهوا إلى إلغاء إتفاق الشراكة فى اللجنة الأوربية، باسم انتهاكات الحقوق المدنية والإنسانية فى الأراضى المحتلة."[2]

١- وكالة الأنباء الفرنسية ٨ مارس (٢٠٠٢).

٢- هاآرتس ٢٣ مايو (٢٠٠٢) "العداء للسامية هل هو "نعمة" لإسرائيل؟ ".

٣- المصدر السابق.

فى الولايات المتحدة، حظيت الاعتداءات المعادية للسامية باهتمام كبير. وبسرعة تم إثبات العلاقة بين هذه الاعتداءات والسياسة الفرنسية التى نظر لها على أنها "موالية للفلسطينيين". ويقول دبلوماسى فرنسى "واذا حاولنا تفسير أن هذه الاعتداءات ظرفية وأنها من عمل شباب مسلم من أصل مغربى من الغاضبين لأوضاع الشرق الأوسط، لا نجد استجابة أفضل ويتهموننا بأننا أسرى هذه الاقلية فى انتهاج سياستنا فى الشرق الأوسط! "(١)

ومن المفارقة أن نرى أن النقد الموجه لإضفاء الطابع الطائفى على الدبلوماسية يأتينا من الولايات المتحدة، وهو بلد تحدد سياسته الخارجية على نطاق واسع انطلاقاً من وزن الطوائف المختلفة وقدرتها على التنظيم.

بيد أن أبلسة فرنسا على هذا النحو توفر مزيتين لأولئك الذين ينتهجون هذا المسلك، فهى تسمح بالتشهير ببلد ينظر إليه فى الغالب على أنه مثير للإزعاج، لأنه يعتقد أن فى إمكانه ومن واجبه، باسم ماضيه العريق، أن يعارض الولايات المتحدة الأمريكية. فى الولايات المتحدة هناك شئ ما غير محتمل فى هذا الادعاء الفرنسى - باريس تريد أن تسافر بالدرجة الأولى وهى تملك تذكرة بالدرجة الثانية، أى أنها تتمسك بخطاب عالمى بينما وسائلها محدودة. ويسمح نقد فرنسا أيضا بتقارب فكرى مع إسرائيل. بالطبع لا توجد مؤامرة منظمة فى الولايات المتحدة بخصوص هذا الشأن، وإنما مناخ ومسلمات فرضت نفسها ولم يعد يضعها أحد موضع تساؤل. وصارت بعض الأقوال المكررة وغير الدقيقة بمثابة حقائق لا يمكن تجاوزها،

١- "اشتعال العداء لفرنسا بالولايات المتحدة الأمريكية" ليبراسيون ١٣-١٤ إبريل (٢٠٠٢).

وتطورت كراهية فرنسا فى الولايات المتحدة أولاً حول ادعاء معاداة السامية قبل أن تنطلق هذه الكراهية بشأن الموقف الفرنسى من العراق.

فى ١٠ مايو (٢٠٠٢) أظهر البرنامج الشعبى جداً "حياة ليلة السبت" Saturday night live شريطاً مصوراً على خلفية أوكورديون متلائمة مع تعليق: "فرنسا بلد أشهر الطباخين، أشهر الرسامين، وأشهر المعادين للسامية. الفرنسيون جبناء ومتشدقون، متغطرسون ومتعفنون، معادون لإسرائيل، معادون لأمريكا، ومعادون لليهود دائما. "ألم يحن الوقت - تقول المعلقة - لكى نبدأ من جديد كراهية الفرنسيين"؟.

ويؤكد نيل جولد شتاين، المدير التنفيذى للمؤتمر الأمريكى اليهودى، بشأن الحوادث الأربعمائة التى تم إحصاؤها : "نحن نعرف أن هذه الاعتداءات من عمل شباب مسلم، لكن حكومتكم تتحمل نصيبها من المسؤولية بتصويرها إسرائيل كشيطان، وبرفضها معاقبة أعمال الانحراف العنصرى بشدة كافية. "[1] وبدون أن يستعيد مباشرة مثل هذا الاتهام تحدث جورج بوش وأخذ فى الاعتبار ألا يناقضه : "ترفض أمريكا التحزب والتعصب. نرفض أى علامة على الحقد تجاه العرب والمسلمين. نرفض الشياطين القديمة المعادية للسامية، التى حركت قتلة دانيل بيرل[2]، وأولئك الذين يحرقون المعابد فى باريس" صرح بذلك الرئيس الأمريكى تحت عاصفة من التصفيق، فى ٣٠ إبريل (٢٠٠٢) فى كاليفورنيا فى إطار استعدادات انتخابات الخريف.

١- الإكسبريس ٣٠ مايو (٢٠٠٢) "كراهية فرنسا صناعة أمريكية"

٢- صحفى أمريكى أغتيل فى باكستان لأنه كان يهودياً.

وكانت المجلة الأسبوعية The Weekly Standard، ذات التأثير الكبير في الأوساط المحافظة، قد جعلت عنوانها الرئيسى مصحوباً بصورة للعلم الفرنسى مع تحـ ـ لشعار الجمهورية الفرنسية ليصير "حرية، مساواة، كراهية اليهود"(١).

وتظاهر عدة مئات من اليهود والموالين لإسرائيل، فى ٢٦ أبريل فى نيويورك، مطالبين بمقاطعة اقتصادية لفرنسا. من جهة أخرى وصفت المؤسسات اليهودية الكبرى فرنسا كبلد مخرب على غرار ألمانيا فى الثلاثينيات. "يجد يهود فرنسا أنفسهم فى حالة ضعف لم يعيشوها أبداً منذ الحرب العالمية الثانية" كما قال إبراهام فوكسمان مدير جمعية موالية لإسرائيل هى رابطة مناهضة التشهير L'anti-Defamation league. ومن لوس انجيلوس أدان مركز سيمون فايستال، من جانبه، "أكبر عملية هجوم ضد معابد يهودية أوربية وضد مدارس يهودية منذ "ليلة الكريستال"، وحاول حث السواح الأمريكان على عدم الذهاب إلى فرنسا هذا الصيف" (٢)

من المؤكد أن فرنسا تعيش مشاكل اندماج وعنصرية. لكن ليس مؤكدا أن الطائفة اليهودية هى التى تعانى أكثر من غيرها فى هذا الشأن. غير أن الولايات المتحدة (ناهيك عن إسرائيل عندما نرى المعاملة التى يعامل بها الإسرائيليون العرب) ليستا فى الموقع الافضل الذى يسمح بإعطاء دروس للآخرين حول موضوع مكافحة العنصرية. بالتأكيد سمحت سياسة

١- The Weekly Standard، ٥ يونيه (٢٠٠٢)، مجلد ٧، عدد ٣٣.

٢- الفيجارو ٢٢ مايو (٢٠٠٢)، "العداء للسامية يوقظ بوش".

الاندماج فى الولايات المتحدة بتحقيق بعض الأشياء التى لا تزال غير متخيلة فى فرنسا. على سبيل المثال نموذج كولن باول. لكن بالقدر ذاته نجد أغلبية السود فى وضع لا يحسدون عليه. وإذا أوقف البوليس الفرنسى شاباً يهوديا فإن لديه فرصا أكثر فى الخروج بدون مشاكل من شاب أسود تم توقيفه من قبل البوليس فى مدينة أمريكية. ووفقا لمنظمة "مراقبة حقوق الانسان" فقد ارتفعت الاعتداءات الموجهة ضد المسلمين بنسبة ١٧٠٠٪ (نعم الف وسبعمائة فى المائة) فى (٢٠٠١) بالولايات المتحدة فى مناخ ما بعد ١١سبتمبر.[1] ولم تجعل الصحافة الفرنسية من هذا موضوعها المفضل ! وأدان أيضا كاتب الافتتاحيات شارل كرواساهمر الموالى لإسرائيل، صعود العداء للسامية فى أوروبا، قائلاً أن الأمر الغريب لا يكمن فى العداء للسامية اليوم، وإنما لغيابه النسبى زهاء خمسين عاما، على النقيض من تراث ألفى أوروبى. فأحداث الهولوكوست جعلت الشيطان يدخل جحره أثناء النصف الثانى من القرن الماضى. وقد خرج من جديد الآن.

لكنه سيذهب بعيداً بقوله إن هذا العداء للسامية يتجه أكثر إلى أن يكون مصطنعاً وليس عداء صريحا لليهود. فاليهود، بالنسبة له، قد يتم التسامح معهم وحتى قد يقبلوا إذا ظلوا فى أماكنهم. ولا يطرح اليهود مشكلة طالما هم بدون سلطة، وسلبيون، ومنظرهم خلاب. أما غير المسموح لهم، كما يرى دائما، فهم أولئك اليهود الذين يرفضون قبول أن يكونوا ضحايا ولا شيئ يمثل ذلك أفضل من الدولة العبرية. لكن بين ألا

١- صحيفة مترو، ١٥ نوفمبر (٢٠٠٢).

يكون ضحيـة وبين المساندة الشاملة لعمل حكومـة شارون، ألا يوجد بديل آخر؟

لقد وصل الأمـر إلى حد أن منظمـة يهودية أمـريكية، المؤتمر اليـهودى الأمريكى، دعت هوليود إلى مقاطعة مهرجـان كان السينمائى مقارنة فرنسا (٢٠٠٢) بفرنسا (١٩٤٢) : "معابد ومـدارس يهودية تحرق، ويعتدى على اليهـود فى الشوارع. . ." ونشـرت إعلاناً فى variety et Hollywood Reporter معنوناً "فرنسا (١٩٤٢) - فرنسا (٢٠٠٢)".(١)

أدان السنيمائيان كلودلانزمان وكلود لولوش هذا النداء.(٢)

وفى الفـتـرة من ٦ إلى ١١ مـايو ذهب وفـد من المجلس التـمـثيلى للمنظمـات اليهـودية فى فرنسـا برئاسة روجـيه كـوكيـرمان إلى نيـويورك وواشنطن لشرح حـقيقـة أوضاع العداء للسامـية فى فرنسـا، إلى المنظمات

١- ليبراسيون، ١٠ مايو (٢٠٠٢).

٢- بعد أن تشاورا مع وزير الثقافة والاتصال جان-كلود أياجون، وكذلك ادى استيبح، رئيس التحـالف الإسرائيلى العالمى، وايريك روتشـيلد رئيس النصب التذكارى للشـهيد اليهـودى المجهول، نشروا بيـاناً يدين أقوال المؤتمر اليهودى الأمـريكى "إن المقارنة التى يؤيدها المؤتمر اليهودى الأمريكى جارحة لكل واحد منا نحن الفرنسيين، ولكل واحد منا نحن اليهـود، والأكثر خطورة أنها مهـينة لذكرى الشهداء الذين لا يمكـن حصرهم فى أحداث الشـوا." ويشدد الموقعـون على البيان "إذا كـان بلدنا قد عرف بالفـعل ولسوء الحظ عدداً مـعينا من الأعـمال المعادية للسـاميـة إلا أنه لا يوجد ما يجـعل الوضع فى (٢٠٠٢) مشابها للوضع فى (١٩٤٢)، بل يوجد ما يعارض بينهما فى كل شيئ" . هذا ما يذكره النص قبل أن يتابع "معاداة السامية (١٩٤٢) كانت من صنع الدولة، حيث آلة القتل تعمل بأمر حكومة تخلت عن الجـمهورية لصالح الاحتلال" . ويخلص النص إلى أن "الاعمـال المرتكبة اليـوم هى أعمال منعـزلة وقاومتـها السلطات العـامة بلا هوادة، وأدينت بصورة علنية من قبل كل المسؤولين السياسيين ومن قبل كل السلطات الأخلاقية والدينية فى البلد، ومن قبل معظم مواطنينا" لوموند ١٤ مايو (٢٠٠٢).

الأمريكية. وصرح كوكيرمان لصحيفة لوموند "كان المسؤولون الأمريكيون يميلون إلى حد ما إلى الاعتقاد بأننا لا نعرف كيف نتناول الأحداث، وأن اليهود الفرنسيين لا يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم". وقد شرح زعماء المجلس التمثيلى لمحدثيهم أن مقاطعة فرنسا "ستكون عملا غير مفيد." وأنه كان ينبغى الانتظار "لرؤية ما اذا كانت الحكومة الجديدة ستظهر حزما أكبر من سابقتها" فى البحث عن مرتكبى الأعمال المعادية للسامية ومعاقبتهم.[1] ويمكن للمرء، مع ذلك، أن يطرح تساؤلات حول قدرة المجلس التمثيلى على التأثير. كيف لم يتمكن قادته من زرع الطمأنينة فى نفوس أبناء عمومتهم الأمريكيين. فالتحذير من انتشار العداء للسامية فى فرنسا، والتشهير بسلبية السلطات العامة فى مواجهة هذه الأحداث، والحديث، كما يفعل المجمع الدينى المركزى، عن ليلة كريستال، كل هذا قدم حججا للمنظمات الأمريكية. وبإدانته موجة العداء للسامية فى فرنسا وقع المجلس التمثيلى فى الفخ الذى نصبه بنفسه.

بيد أن هناك حسابات ظاهرة أبعد من انفلات العاطفة غير المتحكم بها (واللاعقلانى قد تنشأ عنه ظواهر حقيقية). ففرنسا، فى الشرق الأوسط وأماكن أخرى، هى أحد البلدان التى تقاوم أكثر من غيرها الأحادية القطبية الأمريكية مهما تعرض له هذا الموقف من صعوبات متزايدة فى الشرق الأوسط. وتدافع عن حل تفاوضى كاشفة وهم الحلول العسكرية الخالصة التى يميل إليها شارون. وباتهامها بالعداء للسامية يمكن بذلك تفسير معارضتها لشارون، ويتم نزع مصداقيتها فى ملف الشرق الأوسط أمام المؤسسات الدولية.

١- لوموند ١٤ مايو (٢٠٠٢).

من جهة أخرى، فـإن أصدقاء إسرائيل الأكثر قربا لن يحـرموا أنفسهم من نقد السياسة الخارجية الفرنسية عندما تعارض الولايات المتحدة. وبما أن بوش قد صـار أفضل حصن لشـارون، فإنهم يصطفون كـتلة واحدة خلف الاقتـراحات والمواقف الامـريكية. وإذا كـان من سوء الطالـع لفرنسـا أنها وقفـت عاليـة الرأس أمام الولايات المتـحدة، فـإن غلاة الموالين لإسـرائيل يشهرون بها بعنف ويحملون دعـمهم إلى العم سام. وسنجد الافتراق ذاته بشـأن الحـرب ضـد العـراق وسنجـد أن المسـؤولـين المناصـرين للحـرب والمعـارضين للسـياسـة الفـرنسـية فى هـذا الشأن هم أيضـا غـلاة الموالين لإسرائيل.

كثـير من يهود فـرنسا أدانوا بشدة، من جـانبهم، هذه الحملة الدعـائية القـادمـة من وراء الأطلـنطى. ويرى هنرى هاجين برج، الـرئيس السـابق للمجلـس التمثـيلى أن "المؤتمر اليهـودى الأمريكى ليس جـاداً والقول بأن فرنسا بلد لاسامى هو قول ينقصه على الأقل التمييز والتحليل...وباستثناء قـادة اليمين المتطرف فـإن كل المسؤولـين السيـاسيين الفـرنسيين قـد أدانوا وحاربوا العداء للسامية"(١)

واكـد إدجـار برونغـمـان، رئيس المؤتمر اليـهـودى العـالمى، أن تجـدد الاعتداءات اللاسامية لا يسمح مع ذلك بالقول إن فرنسا بلد لاسامى "وأن يكون الفرنسـيون قد صـوتوا لصالح لوبن، رمز العـداء للسامية، فـهذا لا يعنى أن الفرنسيين لاساميون."(٢)

وفى السبت الحادى عشر من مايو (٢٠٠٢)، ووفقاً للمتحدث الرسمى بالأليزيه، كـاترين كولونا، فقد أعـرب الرئيس الفرنسى جاك شـيراك أثناء

١- "يهود فرنسا بين نارين" لوموند ١٧ مايو (٢٠٠٢).

٢- الفيجارو ٢٩ ابريل (٢٠٠٢).

محادثة تليفـونية مع آرييل شارون عن "استيائه صـراحة من الحملة المعادية لفرنسا فى إسرائيل، التى تهدف إلى تقـديم فرنسا كبلد لاسامى فى الوقت الذى أعرب فيه الفرنسيون بصورة جمـاعية عن رفضهم للعنصرية وكراهية الأجانب واللاسـاميـة، وأن هذه الحملة مـرفوضة" و "أنهـا لن تمر بدون عواقب". (١)

وفى الواشنطن بوست، وفى الوقت الذى اعـترف فيـه بوجود أعـمال لاسامية غيـر مقبولة، أعاد المفوض البريطانى المحافظ كـريس باتن التذكير بأن هناك اعـتداءات أخـرى نالت من أماكن العـبادة الإسـلامية، وتـساءل "عندما تعرضت بعض الكنائس التى يرتادها الـسود إلى حرائق، منذ عدة سنوات، هل كـان ينبغى علينا فى الحـال أن نستنتـج من ذلك أن جمـاعة الكلوكلوكس كلان تزحف إلى البيت الأبيض. (٢)

وفى الكتـاب الذى أصدره عندمـا ترك وظائفه كـسفـير لإسـرائيل فى باريس أقـر إيلى بارنافى: "والحال وبالقـدر نفسـه وكمـا رأينا فإن فـرنسا ليست بلداً لاساميا وكذلك ليست معادية لإسرائيل. (٣)

لقد رأينا حقا أنواعاً مختلفة من التضليل فى الولايات المتحدة وإسرائيل تدعم خـرافة فرنـسا لاسامـية. ويرى المرء طـابعها الخـاطئ تماما والمـشوه والأحـمق. ومع ذلك حـدثت وتطورت بدون صـعوبات مـن خلال قـوة التضخيم الإعلامى.

١- لوموموند ١٤ مايو (٢٠٠٢).

٢- الواشنطن بوست ٢٣ مايو (٢٠٠٢).

٣- فرنسا وإسرائيل مرجع سبق ذكره، ص١٥٥، وتابع قائلا: "أكثر من عاصمة أوربية اليوم تظهر نقداً أكثر من باريس وأكثر من مسئول سياسى أوروبى يسمح بأحكام لو صدرت من فرنسى لكانت مثيرة للفضـيحة. ويكفى المرور على الصحف الأسبانية واليونانية والاسكندنافيـة ليدرك المرء أن الصحافة الفرنسية مـازال أمامها طريق فى الحقد على الدولة اليهودية".

الفصل السابع

الكيل بمكيالين

يرى غلاة الموالين لإسرائيل أن العداء للسامية يعيث فساداً فى فرنسا. ويرى أغلب الفرنسيين أن هذا الداء اذا لم يكن قد اختفى تماما فهو قد صار مستقرا. وليس كما هو حال العداوة مع العرب والمسلمين. فالطائفة المسلمة تتعرض أكثر من الطائفة اليهودية إلى الاستهداف بسهولة كبيرة وبدون محاسبة على صعيد النشر والحياة الفكرية.

هكذا نشرت الصحفية أوريانا فلاتشى كتابا بيع منه أكثر من مليون نسخة فى إيطاليا. وترجم[1] إلى اللغة الفرنسية وبيع منه ٧٥ ألف نسخة، وهذا ما جعله من أفضل مبيعات الكتب البحثية فى العام. وسرعان ما أثار جدالاً. فهو عنيف بشكل خاص مع المسلمين، وينظر لهم كأنهم كتلة متناغمة وسلبية بشكل خاص. وتسمح بعض الاستشهادات بتكوين فكرة عن الفلسفة العامة للكتاب: "...المساجد التى(...) تعج حتى الغثيان بالإرهابيين والطامحين لأن يكونوا إرهابيين (...) وبصورة أو بأخرى فإن الأئمة هم المرشدون الروحيون للإرهاب".

ولا ينظر البعض إلى المؤلفة ككاتبة عنصرية بما أنها "تنظر إلى دين وليس إلى عرق" وكما تقول "لنا قضية مع حرب صليبية معكوسة"

١- العاصفة والكبرياء، دار Plon ،(٢٠٠٢).

إن أبناء الله هم "أناس بدلاً من أن يسهموا فى تقدم الإنسانية يمضون وقتهم وأردافهم فى الهواء للصلاة خمس مرات فى اليوم !"

وتأسف بالمقابل فى أن "الروس الذين - بفضل المسلمين الشيشان- حصلوا مسبقا على حصتهم من المذابح". واستمراراً لهذه المختارات من الاستشهادات تتحدث عن "أفراد يرتدون ملابس الانتحاريين الفلسطينيين الذين يبيعون أمهاتهم فى أسواق الحريم من أجل رؤية اليهود وقد عادوا إلى معسكرات الإبادة وغرف الغاز وأفران حرق الجثث (. . .) إن أبناء الله يتكاثرون كالفئران (على نقيض الإيطاليين والأوربيين). إنهم إذن لا يشكلون هجرة بقدر ما يشكلون غزوا ينطلق تحت رمز الوقاحة. . . ويكفى من أجل طردهم أن يتم وضعهم فى صفوف واقتيادهم حتى الموانئ والمطارات وإرسالهم إلى بلادهم".

وكتبت أوريانا فالاتشى، ضمن حفاوات أخرى، أن القرآن لم يعظ أبداً إلا "الكذب والعداوة والنفاق". وترى أن الاعتراف للعرب بدور فى ابتكار الرياضيات هو كذبة قديمة، وأن المهاجرين المسلمين هم "عشائر دموية تحول المدن العظيمة كجنوه وتورين إلى قصبات(*)... هناك شيئ ما فى الرجال العرب يثير اشمئزاز النساء ذوات الذوق الرفيع". وتدين انتشار محلات الجزارة الحلال الخ. ويتجاوز هذا الموقف إدانة عمليات ١١ سبتمبر والإرهاب الاسلامى. يمكن بالتأكيد القول إن أوريانا فلاتشى لا تمثل إلا نفسها. لكن ما هو مثير للحيرة هو هذا الاستقبال الذى حظى به هذا الكتاب. وقد صرحت أوريانا فالاتشى أنها بعد نشرها مقالا عن العداء للسامية فى المجلة الأسبوعية بانوراما بميلانو تلقت آلاف الرسائل

(*) القصبة: قلعة يقيم فيها أمير أو زعيم فى البلاد العربية، وهى أصلاً فى العربية بمعنى وسط المدينة أو القرية - قاموس روبير - (المترجم).

والشهادات من يهود عبر العالم يشكرونها. وأن "نيويورك بوست" حيتها بوصفها "الإجابة الوحيدة والأكثر بلاغة على الهوس المشين الذى تمارس به أوروبا دعايتها المعادية لإسرائيل. أما صحيفة وول استريت جورنال (صحيفة لها خط يميل إلى المحافظين الجدد وموال لإسرائيل) فقالت: "وصفتنى بأننى أمثل ضمير أوروبا"[1]

وفى فرنسا خصصت مجلة لوبوان عشر صفحات وموضوعها الرئيسى فى منطقة PACA (بروفانس - ألب - كوت دازور). "طريقة فى التسويق لناخبين لوبنيين مفترضين"[2]،كما تقول صحيفة لوكانار انشنيه. هل يمكن أن نعتبر أن النشر حر، وأن حق كتابة مثل هذه الحماقات الحاقدة ينبغى أن يعترف به لكل فرد، وأن نقول إن كل ما هو مفرط متجاوز للحدود ليس له إلا أهمية قليلة. ولم لا ؟! هل نتخيل مع ذلك أن مجلة لوبوان تكرس المساحة ذاتها لكتاب يتحدث بعنف أيضا تجاه اليهود؟ هل نتخيل ببساطة إمكانية نشر مثل هذا الكتاب فى فرنسا؟ لأن هناك أمرين: إما أنه لا ينبغى أن يكون هناك أى عائق أمام حرية التعبير، وأن ذكاء القراء وحده هو الذى سيعاقب المؤلف، أو أنه لابد من الانتباه إلى ما ننشره وألا نتسامح مع كتب يمكن أن تكون مهينة لطائفة أيا كانت. والموقفان المختلفان لكل منهما منطقه. لكن ما هو غير منطقى أن يختار المرء الموقف الأول فى بعض الحالات والثانى فى حالات أخرى.

ومن الطبيعى أن يثير كتاب أوريانا فلاتشى العنيف استنكاراً بين المثقفين سواء المهمومين بتحاشى أى خلط أو المعادين للانحرافات العنصرية. وكان

١- "حول العداء للسامية" الفيجارو، ٧ يونيه (٢٠٠٢).

٢- "La voix aux chapitres" ٥ يونيه (٢٠٠٢).

يجب على الذين يدينون صعود العداء للسامية أن يتدافعوا إلى الصفوف الأولى.

كان الاستثناء الشهير هو برنارد هنرى ليفى الذى لم يجد أعذاراً لهذا الكتاب وأدانه جملة "هل ينبغى أن نناقش مثل هذا الكتاب؟ بدون شك لا. وإلى أولئك الذين يحاولون أن يجدوا فى هذا الكتاب شيئا صحيا يحرك المياه الراكدة، والذين يقرون له بمزية كسر الصمت ضد سياسة الإجماع الذى يرضى الجميع، وأنه يخترق أحد المحرمات المزعومة فى الحديث عن الإسلام، أريد أن أقول شيئاً: إن أسوأ طريقة لخوض هذه المعركة (ضد التشدد الإسلامى) سيكون الخلط والمزج فى سيل الاتهامات ذاتها بين السادات وقتلته، بين مسعود وطالبان، بين المسلمين المستنيرين بسرايفوا وأنصار بن لادن"[1]

غير أن هذا الاتساق الأخلاقى والفكرى الذى يجب تحقيقه، كان مع الأسف حالة منعزلة. آخرون لم تكن لديهم مثل هذه الروح. وبدلاً من أن ينتقدوا بشدة كتاب فالاتشى نجدهم يقدمون له ظروفا مخففة.

هكذا نجد بيير-أندريا تاجييف، الذى يدين كثيراً كراهية اليهود لم يغضب بدرجة كبيرة من هذا الكتاب المعادى للمسلمين والعرب.

"المستهدف من هذا الكتاب، إذا أردنا التلخيص، هو الرعب الإسلامى، وهو الأمر المستهدف من قبلى أيضا وأنا أشارك الكتاب إذن الأرضية ذاتها. واعتبر كتاب أوريانا فالاتشى إذن كتابا شجاعا وواضحا. وأشاركها أيضا القيم التى تدافع عنها، التى هى قيم الحرية الفردية

١- "أوريانا فالاتشى والإثارة غير المقبولة" لوبوان ٢٤ مايو (٢٠٠٢).

والعلمانية. ولايستخدم هذا الكتاب الصيغ السياسية التى ترضى الجميع. ولا تهتم أوريانا فالاتشى كثيراً بصيغ التوافق. وتجتهد فى قول حقائق مزعجة بشكل رهيب، عن بن لادن على سبيل المثال الذى صار بطلا فى العالم الإسلامى.

"أعتقد إذن أن أوريانا فالاتشى كانت صائبة تماما حتى لو كانت بعض تعبيراتها صادمة. وهنا أبدى بعض التحفظات إزاء بعض العبارات التى لم أكن أكتب مثلها، ولم أكن استخدم بعض الصياغات التى يمكن أن توصف بأنها مفرطة وصادمة ولاسيما غير مفيدة. نقدى يتعلق أساساً بأسلوب الكتاب الهجائى إلى حد ما، وليس بجوهره."(1)

ماذا كان سيقول تاجييف لو أن كتابا مشابها نشر عن اليهود؟ هل كان نقده سيتعلق بمجرد نقد الأسلوب وليس قيم الكتاب؟

وأضاف: "لقد ركزت على أن الاتهام بالعنصرية يستخدم كوسيلة لإسكات العقول الناقدة وتحجيم حرية التعبير. فاليوم يتم توظيف معاداة العنصرية من أجل منع نقد تسييس الاسلام."(2)

لقد كُتِبَ كل هذا من قبل مثقف يدين أى نقد لعمل حكومة شارون على أنه معاد للصهيونية وإذن معاد للسامية وفقا لمنطقه.

يؤكد ألان فينكلكروت، من جانبه، أن "أوريانا فالاتشى لها مزية عظيمة فى أنها لم تخف أمام الكذبة الورعة. وذهبت إلى أعماق القضية واجتهدت فى مواجهة الواقع مباشرة". ويعترف مع ذلك أنها "ذهبت

١- actuj.com، ٢٥ يونيه (٢٠٠٢).

٢- المرجع ذاته.

بعيداً وخضعت للتعميمات"[1]. لقد عرفناه أكثر عنفا وخاصة أكثر عمومية في تقييمه النقدى.

وترى الصحفية اليزابيث شملا، والتى أنشأت موقعاً على الانترنت لمساندة الحكومة الإسرائيلية (proche. orcent. info) أن كتاب أوريانا فالاتشى متطرف إلا أنها مع ذلك ترى أن الذين يدينونها ليست لديهم الشجاعة فى " فتح مناقشة كبرى من أجل مستقبل كل المجتمعات اليهودية المسيحية والآسيوية، فهؤلاء وأولئك مستهدفون من قبل المتشددين... وإذا كانت لديهم الشجاعة-بدلاً من أن يمارسوا الازدواجية باستمرار بقولهم أشياء إيجابية إلزامية عن الإسلام حتى يتمكنوا من قول ما هو أسوأ عن الإسلاميين عندما يفعلون ذلك - لم يكن كتاب أوريانا فالاتشى ليحظى بهذا النجاح الذى حققه. فكتاب فالاتشى الحاد، بعيداً عن أن يكون عرض لشعبوية ما قد يساعد على فهمها، هو كتاب يعبر أكثر عن صرخة غير محتملة ضد انحرافات الانهيار"[2]

هل كان ينبغى توفر الشجاعة حقا لنشر هذا الكتاب ؟ بالطبع لا. فالاتشى تتزلج على موجة كراهية الإسلام، والتى لم يفعل ١١ سبتمبر سوى أن دعمها. وبهجومها العنيف على المسلمين انطلاقا من العالم الغربى فإن لها شجاعة الهجوم على الضعفاء[3].

١- لوبوان ٢٤ مايو (٢٠٠٢).

٢- "إرهابى فى مانهاتن" الفيجارو ٨-٩ يونيه (٢٠٠٢).

٣- ليبراسيون ١٤ يونية (٢٠٠٢)، "بدون عاصفة وبدون كبرياء" رد عليها إدريس جبالى : "أنا لن أوجه إليك شتائم ولا إهانات، أتوجه إليك ببعض الحرج. لكن أرفض ما يقال عن الشجاعة فى كتابك، عملك لا يمكن أن يسجل إلا فى نطاق موضة بارزة حيث صار من الشائع ومن الأمور الاجتماعية التشنيع بالمسلم والعربى والشرقى والمهاجر وابن المهاجر."

طالبت منظمة المراب. MRAP بعزض الأمر على المحكمة لمنع الكتاب بسبب "إثارة التميز والحقد والعنف العنصرى". وفى البداية لم تكن منظمة ليكرا Licra ترغب فى الاشتراك فى الشكوى إلا أنها غيرت رأيها بعد ذلك وطالبت بمنع الكتاب.

المفاجأة، من الذى سيظهر كمدافع عن أوريانا فالاتشى ؟ إنه وليام جولدنادل ! رئيس منظمة "محامون بدون حدود" المحارب للعنصريين اللاساميين والمطارد لكل من يتجرأ على نقد حكومة أرييل شارون. فهل نتخيل ماذا سيكون عليه رد الفعل إذا كان هناك محام ملتزم فى الكفاح ضد العنصرية أو مساندة الفلسطينيين يظهر كمدافع عن كتاب عنيف فى معاداته للسامية؟

وفقا لوليام جولدنادل : "نعم، الكتاب لعنة على المسلمين، ويمكن أن يعاب على مؤلفته أنها تمارس نزعة بدائية فى العداء للمسلمين، كما كان يعاب عليها سابقا عداؤها البدائى للشيوعية. وماذا بعد، ألم يكن ما فعلته بالأمس وما فعلته اليوم هو إطلاق ردود فعل السلطات العامة والمجتمع المدنى قبل أن يحدث كل شيئ ؟". إلى أن يصل جولد نادل بطريقة صارخة إلى أن "الخطر اليوم هو خطر الفاشية الخضراء التى يريد البعض أن يمنع النقد الموجه إليها !"[1]

يجب إدانة الحركة الإسلامية الراديكالية والإرهاب، لكن هل بممارسة مثل هذا الخلط؟ وهناك مجرد تساؤل. فلنتخيل أن صحفيا أعد كتابا مشابها لكتاب فالاتشى وكان يتناول اليهود كما تناولت المسلمين !

هل كان كتابنا العظماء سيجمعون على ألا ينقدوا سوى الأسلوب

١- http/www.proche.info ١٩ يونيه (٢٠٠٢).

"المبالغ به إلى حد ما" للكتاب ؟ ولنترك الآن مجال الكتب البحثية لنتعرف قليلاً على بعض ما تقوله الصحف.

فى مجلة ليـر الفرنسية، سبتمبر (٢٠٠١)، نجد فى مـقابلة مطولة مع ميشيل هولبيك التالى :

سؤال : "بالنسبة للإسـلام، لم يعد مـا تعبـر عنه هو الاحتـقار وانما الحقد؟"

جواب : "نعم، يمكن الحديث عن الحقـد فالدين الأكـثر غـباوة، مع ذلك، هو الإسلام. وعندما يقرأ المرء القرآن يشعر بالصدمة. . .والانهيار ! فالكتاب المقدس، على الأقل، كتاب جـميل، لأن اليهود لديهم ملكة أدبية عجيبة. . ."

سؤال : "شـخصيـتك الرئيسـية فى الرواية وصلت إلى حـد قول هذه العبارة : "فى كل مرة يصلنى خبر أن إرهابيا فلسطينيا أو طفلا فلسطينيا أو امرأة حامل فلسطينيـة قد تم قتلهم بالرصاص فى غزة ينتابنى شعـور كبير بالحماسة" . . ."

جواب : "لم تكن لدى أبداً الفـرصة لمعايشة شعـور الانتقام. لكن فى الظروف التى يوجد فيهـا، من الطبيعى أن ميشيل (شـخصية الرواية) تكون لديه الرغـبة فى قـتل أكبـر عدد ممكن من المسلمين. . .نعم. . .نعم يـوجد الانتقام. الإسلام دين خطر وهذا منذ ظهوره ولحسن الحظ أنه قد أدين"

وفى العدد اللاحـق من مجلة لير أكـد بييـر أسولين أن هولبـيك جاءته مناسبات كثـيرة لتكذيب الأقوال التى نسبت إليه ولم يفـعل لأنها تطابق ما يفكر به وما كتبه.

لو أن هولبيك قد قال عشر هذه الأقوال على الطائفة اليهودية، هل كان

يمكنه الاستمرار فى الكتابه بحرية؟ بالتأكيد لم يحصل على جائزة الكونكور كما اعتقد البعض فى لحظة ما، غير أنه خرج مستفيداً من هذه القصة. ورفعت ضده دعوى قضائية من قبل عدد من الجمعيات الإسلامية لكنهم خسروا القضية. وقد ترافع عن الحق فى حرية التعبير. ولم لا بالفعل؟ من الحقيقى أن حرية التعبير فى فرنسا كانت تكافح فى المقام الأول ضد الملك والكنيسة. وأنه من المؤسف دائما أن نرى محاكمة لكتاب. وما هو أكثر إزعاجا ليس أقوال هولبيك وانما تأكيد البعض أن هذا النمط من الأقوال ينتمى إلى مجرد الإثارة عندما يكون الاعتداء على المسلمين، وينتمى إلى الحث على الحقد العنصرى إذا كانت هذه الأقوال تتعلق بطوائف أخرى.

إلى أى مدى يمكن أن تذهب حرية الفنان؟ وهل للإبداع حدود ينبغى أن يتوقف عندها؟ إنها مناقشة بلا نهاية حيث تتغلب الذاتية بالطبع. لكن ينبغى أن تكون المعايير ذاتها سواء كانت متساهلة أو متشددة، مطبقة بطريقة موحدة. لنست مقتنعا - بعيداً عن ذلك - أن مناقشة الأفكار يمكن أن تمر عبر المحاكم. وأرى أن ما هو مفرط لن يكون له مدى بعيد فى الأغلب. لكنى أقول أيضا لنفسى إذا كنت مسلما، وإذا كنت عربيا قد تكون لدى القناعة أن دينى وهويتى يعتدى عليهما أكثر من الآخرين، وبسهولة أكثر وبدون مساءلة أكبر - على الصعيد القضائى والأخلاقى - وأن هذا لا يؤدى إلا لتدعيم مركز المتطرفين الذين يستفيدون من هذا الشعور بالرفض لكى يسبحوا فى مياه مواتية.

الفصل الثامن

أخطار تأثير الطوائف
على السياسة الفرنسية

يعتبر فرانسوا ميتران بدون شك أكثر الرؤساء الفرنسيين محبة لليهود والأكثر قربا من إسرائيل، إلى درجة أن صعوده إلى الأليزيه قد أقلق إلى حد بعيد العواصم العربية فى (١٩٨١). كما أن البعض قد تحدث فى هذه الفترة عن وجود تصويت عقابى من قبل الطائفة اليهودية ضد جيسكار ديستان - المرشح المنافس لميتران - لأنه اعتبر معاديا لإسرائيل.

وعندما انتخب ميتران ألغى قراراً كان قد اتخذ قبل عام بموجبه قبلت فرنسا الخضوع للمقاطعة العربية.[١] وكان أول رئيس دولة فرنسى يذهب إلى إسرائيل. وفى خطابه الشهير بالكنيست، فى مارس (١٩٨٢)[٢]، الذى أعلن فيه أنه سيلتزم باللغة ذاتها فى باريس أو القدس أو فى العواصم العربية، وأنه يؤيد مبدأ حق إسرائيل فى العيش فى أمن وداخل حدود آمنة ومعترف بها، وحق الفلسطينيين فى امتلاك دولة. وكان هذا - ينبغى الاعتراف بذلك - استشرافا للمستقبل فى هذه الفترة. وهذا لم يكن ليغفره له أبداً اليمين واليمين المتطرف فى إسرائيل.

١- كانت الدول العربية تستثنى من معاملاتها التجارية الشركات التى لها علاقات اقتصادية مع إسرائيل.

٢- انظر النص الكامل فى فرانسوا ميتران - تأملات حول السياسة الخارجية - دار فايار (١٩٨٦) ص ٣٣٥-٣٤٦.

فى العام ذاته، ويوم العملية التى جرت فى شارع روزيه، وبينما ميتران ينتقل إلى موقع الحادث ليعلن تضامنه مع يهود فرنسا، كان أعضاء فى حركة البيتار Betar يستقبلونه بصرخة "ميتران قاتل !".

وصرح مناحيم بيجين، رئيس الوزراء الإسرائيلى الذى بدأ غزو لبنان فى يونيه (١٩٨٢)، وهو الغزو الذى أدانه ميتران : "إن الجريمة التى ارتكبت فى قلب باريس هى نتيجة للإشارة والتلميح إلى Oradours (*) ومواقف معادية لإسرائيل عن عمد - وهى أيضا معادية لليهود - فى الصحف وفى معظم وسائل الإعلام الفرنسية. ومن جديد تتردد فى شوارع باريس هتافات الموت لليهود كما كان عليه الأمر فى زمن قضية دريفوس. أنا فخور أننى رئيس وزراء إسرائيل الديمقراطية لكننى قبل كل شئ يهودى، وإذا لم تتدارك السلطات الفرنسية مظاهرات النازيين الجدد، وقتل اليهود لمجرد أنهم يهود فقط فلن أتردد - كيهودى - فى دعوة شباب شعبنا فى فرنسا للدفاع عن حياة اليهود وكرامتهم !"[1] وهى لغة تشبه بشكل غريب اللغة التى سيستخدمها شارون فيما بعد بعشرين عاما تقريبا، فى أعقاب انطلاق الانتفاضة الثانية.

لن يغفر هذا اليمين واليمن المتطرف فى إسرائيل لميتران أنه نظم رحيل عرفات من بيروت المحاصرة فى (١٩٨٢).

وعندما أقر هذا الأخير فى (١٩٨٨) بوجود إسرائيل، لم يكن هناك موانع لدى ميتران لكى يستقبل قائد منظمة التحرير الفلسطينية فى باريس. وستتحرك المؤسسات الرسمية اليهودية لمنع هذه الزيارة.

(*) اسم مدينة فى فرنسا تم حرق ٦٤٣ شخصا بها داخل كنيسة، منهم ٥٠٠ امرأة وطفل، كإجراء إنتقامى من قبل الألمان. وظل إسم المدينة شاهداً على الوحشية والبربرية النازية - قاموس روبير (المترجم)

١- ذكره بيير باين فى: الإرادات الاخيرة والمعارك الاخيرة، دار بلون (٢٠٠٢) ص٧٩-٨٠.

ونشر المجلس التمثيلى للمنظمات اليهـودية فى فرنسا نصا يدين استقبال "الإرهابى" عرفات، وناقدا لفرنسا التى تفقـد روحها فى مبادرات إعلامية ربما تكون بلا مستقبل. "أليس من حق الفرنسيين أن يستعلموا عن السياسة الخارجـية التى تدار باسمهم ؟ نعم، نحـن مستاؤون كـمواطنين لمدننا التى تعرضت لعمليـات إرهابية تم التخطيط لها طويلاً فى مـعسكرات فلسطينية تحت مسئولية مباشرة لمنظمـة التحرير الفلسطينية. فهل باريس، التى أدميت كثيراً، سـتستقبل ياسر عرفات قـبل أن ينطق كلمة أسف واحدة وبدون أن يستمع إلى كلمة إدانة واحدة ؟"(١).

ونشـر بييـر باين محـضر اللقـاء الذى تم بين ممثلى المجلس التـمثـيلى وفرانسوا ميتران فى ١١ مايو (١٩٨٨) وحـيث صرح الأخير : "أنتم جئتم لرؤيتى بوصفكم مـواطنين فرنسيين. حـقا سيـصوت اليهود كـما يريدون. وأرى جيداً أن هناك رد فعل غـير مؤيد لى أو للسياسة التى انتـهجها. أنتم تفعلـون ما يحلو لكم، لكن دعـونى أقل لكم إن هذا الأمر لا أهمـية له، ففرنسا شئ آخر، إنها تشمل قطاعات أخرى كثيرة غير الطائفة اليهودية(٢).

وحتى قـبل الكشف عن علاقـاته السابقـة مع رونيه بوسكيـه، تعرض ميتران الرئيس الأكثـر محبة لليهود إلى هجوم شديد لأنه ابتـعد عن سياسة اليمين الإسـرائيلى. وكان يعـاب عليه، إضافـة إلى ذلك، موقـفه لا إزاء الطائفة اليهودية الفرنسية وانما إزاء الحكومة الإسرائيلية.

١- ذكره بييـر باين المرجع السابق ذكر ص٨٣. المؤلف يشـدد على: "عندما يكون قطاع كبيرا من الطائفة مـستعدا للانخراط فى معركة ضد رئيـس منتخب بصورة قانونية لكى تجعله يغير سـياسته، لماذا لا يكون من غير الملائم وصفـها باللوبى ووصف عملها بأنه عملية لوبى؟ هل تتحرك المنظمات التمثيليـة اليهودية بدافع من التشكيلات السياسية الرئيسية الإسرائيلية؟ ولا يخفى القطاع الأكثر نشاطا روابطه القوية مع الليكود."

٢- بيير باين، مصدر سبق ذكره، ص٨٩.

وأنشأ المجلس التمثيلى تقليد العشاء السنوى فى وسط الثمانينيات. وصار مع الوقت موعداً ملزما للطبقة السياسية الفرنسية. قد يحدث أن يطلب منها تأكيد تضامنها مع يهود فرنسا. وسيطلب منها أيضا أن تؤكد تضامنها مع إسرائيل ومع السياسة التى تنتهجها حكومتها، وهما ليسا شيئا واحداً.

ولم يكن هذا الأمر يطرح مشاكل تذكر عندما يكون هناك التزام بعملية السلام. ويطرح هذا الأمر مشاكل أكثر عندما تكون عملية السلام فى مأزق أو فى طريقها لأن تهدم. ليس هذا مزعجا عندما تكون سياسة الحكومة الفرنسية والإسرائيلية متقاربة، ويحدث الإزعاج عندما تكون هذه السياسة متباعدة. ولنلاحظ فى هذه الحالة أن مسئولى المجلس التمثيلى دائما ما يطلبون من الحكومة الفرنسية تغيير موقفها، ولم يفعلوا ذلك أبداً مع الحكومة الإسرائيلية. من المشروع تماما لدى يهود فرنسا أن يطالبوا - وهو ما يتمناه كل المواطنين الفرنسيين - بألا ينقل صراع الشرق الأوسط إلى فرنسا. لكن لماذا إذن، أثناء العشاء السنوى للطائفة اليهودية فى فرنسا توضع فى القائمة باستمرار قضية صراع الشرق الأوسط ذاته، ويُشار على قادة البلد بالسياسة الحسنة التى ينبغى عليهم اتباعها، أى فى الأغلب الانحياز غير المشروط إلى مواقف الحكومة الإسرائيلية؟

هكذا، على سبيل المثال، فى نوفمبر (٢٠٠٠)، أثناء العشاء السنوى احتج هنرى هاجين، الذى ينظر إليه اليوم على أنه معتدل ومكروه من قبل اليمين فى الطائفة اليهودية لأنه ساند عملية السلام الإسرائيلى - الفلسطينى، ضد دعم فرنسا لقرار الأمم المتحدة بإدانة إسرائيل لـ "الاستخدام المفرط للقوة" فى قمعها للانتفاضة الفلسطينية. وموجها كلامه إلى رئيس الوزراء الفرنسى، ليونيل جوسبان: "أنت ساهمت شخصيا فى

إعادة التوازن للموقف الفرنسى أثناء زيارتك للقدس فى فبراير. هل يمكننا أيضا أن نأمل فى أن يكون لفرنسا سياسة أخرى غير تلك التى تتمثل فى إدانة إسرائيل فى الهيئات الدولية ووصفها كما لو كانت المذنب الوحيد للمواجهات مع المتظاهرين الفلسطينيين، وكما لو كانت هذه التمردات قد انطلقت بصورة عفوية، وكما لو لم تكن هناك مسئولية لياسر عرفات فى رفض مفاوضات السلام وحدوث المواجهات وهذا ما يذهل السيد هاجين برج. فالموقف الفرنسى السائد لا يشكل سياسة ولا دبلوماسية متوازنة. وبخروج فرنسا من الموقف المتوازن فإنها تضع نفسها من جديد خارج اللعبة."

وهكذا فإن كل ما لا يشكل انحيازاً تاما وواضحاً فإنه ينظر له ليس فقط كمعارضة وإنما كعداوة. ولم يتردد روجيه كوكيرمان، وهو الذى ينظر إليه على أنه من المقربين لحزب الليكود، حزب أرييل شارون، أمام رئيس الوزراء ليونيل جوسيان، أثناء العشاء السنوى (٢٠٠١)، فى التهجم على السياسة الفرنسية : "أولئك الذين يعملون فى القنصليات، وينتقدون انتهاكات إسرائيل للحق الإنسانى سيجدون أمامهم أفقا واسعا إذا بذلوا جهداً فى توسيع مجال رؤيتهم."(١)

ومضى يقول: "ما الذى يأمله المجلس التمثيلى فى هذا الشأن من الحكومة الفرنسية؟ أن تكون سياستها فى الشرق الأوسط متوازنة". والتوازن كما يراه كوكيرمان يميل إلى حد ما لصالح إسرائيل. فى الواقع يتضمن هذا القيام بضغط على عرفات (لكن ليس على شارون بالطبع!).

١- الفيجارو، ٣ ديسمبر (٢٠٠١).

ويعنى أيضا قبول إسرائيل فى الفرانكوفونية[1]. و "الاعتراف رسميا بواقع بسيط وحقيقى هو أن القدس عاصمة دولة إسرائيل". وهذا الواقع البسيط والحقيقى لم يعترف به لا القانون الدولى ولا أى دولة ولا حتى الولايات المتحدة الأمريكية[2]. فضم القدس وإعلانها من طرف واحد عاصمة لدولة إسرائيل قد أدانته الأمم المتحدة. باختصار فإن رئيس المجلس التمثيلى يدعو بهدوء رئيس الوزراء الفرنسى للقيام بمبادرة يكون من شأنها عزل فرنسا تماما باعترافها بإجراء غير قانونى لم تعترف به الجماعة الدولية.

وأثناء عشاء ٢٥ يناير (٢٠٠٣)، وفى الوقت الذى كانت فيه فرنسا تعارض واشنطن حول آفاق الحرب على العراق، كان روجيه كوكيرمان يحض فرنسا على القيام بـ "كفاح منتصر ضد التعصب".

"والذين يخشون أن الكفاح ضد الإرهاب لا يعرض حرياتنا للخطر يخطئون فى الأولويات كما كان الأمر فى السابق مع دالدييه وشمبرلين"، كما قال إشارة إلى رئيسىّ الوزراء الفرنسى والبريطانى اللذين وقعا فى عام ١٩٣٨ اتفاقيات ميونيخ مع المانيا النازية، معتقدين أنهما بذلك يتجنبان الحرب العالمية الثانية[3].

وهذا الموقف الفرنسى المهموم بتجنب حرب ضد العراق، والمنطلق من احترام سيادة مجلس الأمن بالأمم المتحدة، والذى ينطلق من إرادة فى

١- الموافقة ينبغى أن تتم بالإجماع، ليس إذن فرنسا وحدها التى تغلق باب الانضمام أمام إسرائيل.

٢- اعترف الكونجرس الأمريكى بالقدس عاصمة لإسرائيل، لكن البيت الأبيض لم يتبع الكونجرس فى هذه النقطة.

٣- وكالة رويتر ٢٦ يناير (٢٠٠٣).

العمل من أجل ألا يشـتعل الشرق الأوسط، قدمـه روجيه كوكـيرمان إذن كموقف يميل إلى التخاذل.

فى الواقع كوكيرمان يرفع صوته ضد الدبلومـاسية الفرنسية. بالنسبة له ليس هناك منذ نصف قرن وزير خـارجية كان لديه تعـاطف مع إسرائيل. "وذلك نتيجة التعليم المعـادى لإسرائيل، وهو تعليم يمينى كاثوليكى ومعاد للسامية ويرضعه الدبلوماسيون من أثداء أمهاتهم"[1].

وإذا كان من المشروع تماما وجود مثل هذه اللحظات من اللقاء والأخوة كالتى يوفرها العشاء السنوى للمجلس التـمثيلى، فهل من المبرر أن يتحول إلى موعد للسياسة الخارجية؟ وألا توجد مخاطرة فى المدى القريب أن تريد طوائف أخـرى أيضا القـيام بعـشاء سنوى على قـدم المساواة مع الطائـفة اليهودية، ويدعـون بدورهم مختلف المسئولين السيـاسيين ويحددون بذلك (ومعهم ما يهددون به) من هو العدو ومن هو الصديق لهذه الطائفة المعنية؟ ولماذا لا ينظم غداً الكاثوليك والبـروتستانت والمسلمون أو البـوذيون حدثا من هذا القبيل؟ ولم لا ! وبعد ذلك، العلمانيـون والماسونيون وكل العقائد مجتمعة؟

وسيذهب الصـحفى الكسندر أدلر، الملتزم بشدة بقضـية إسرائيل، إلى حد كتابة "فرنسا هى العدو المعلن لإسرائيل."[2] هل نقول إن فرنسا هى العدو المعلن لكل بلد آخر عندما تنتـقدها وهو نقد يقع، فضلا عن ذلك، ضمن حدود المطالـبة باحترام قواعـد القانون الدولى. فيمـا عدا ذلك فإذا كانت فرنسا حقا هى العدو المعلن لإسرائيل فما هى النتائج الشخصية التى يستخلصهـا أدلر ذاته؟ فيما يبدو فإن تضـامنه الأول لن يذهب إلى فرنسا.

١- هاآرتس، ٢٨ سبتمبر (٢٠٠١).

٢- الكسندر أدلر، شاهدت نهاية العالم القديم، دار جراسيه (٢٠٠٢) ص٣١٣

ألم يدرك أنه اذا أخذ كلامه حرفيا قد يضع عديداً من يهود فرنسا المرتبطين بإسرائيل فى وضع مستحيل؟ وأن هذه الحجة يمكن أن تستخدم بدون صعوبة من قبل المعادين للسامية، والذين يمكن أن يؤيدوا بدون خجل فرضية الطابور الخامس؟ لا، إسرائيل وفرنسا ليستا أعداء. يمكن أن يوجد بينهما مع ذلك تباعدات، وحدث أن تعارضتا مرات عديدة منذ عام (١٩٦٧).

أما بالنسبة للحملة التى تعرضت لها[١] شخصيا فإنها تجعلنى أتساءل ماذا كان سيحدث لو تجرأت وكتبت "إسرائيل هى العدو المعلن لفرنسا".

وعندما نرى الحملات التى يقودها اليمين الإسرائيلى ضد الحكومات الفرنسية المختلفة والتى لم تؤيد لسوء حظها احتلال الأراضى الفلسطينية، هل يمكن القول أن إسرائيل هى العدو المعلن لفرنسا؟ فرنسا لم تضع أبداً موضع تساؤل وجود إسرائيل وحدودها المعترف بها دوليا وحقها فى الأمن.

ليس هناك صوت يهودى فى الانتخابات[٢]. فالتنوع الاجتماعى والسياسى والاقتصادى للطائفة يجعلها توزع أصواتها بالطريقة ذاتها كبقية الفرنسيين، باستثناء أقلية صغيرة من الأصوات تعود لليمين المتطرف. غير

١- انظر الفصل التاسع من هذا الكتاب.

٢- انظر سيلفى استرودل، الصوت اليهودى، مطبوعات العلوم السياسية، (١٩٩٦)، ص٣٧٣. كرست أطروحتها فى العلوم السياسية لهذا الموضوع. تقول: "على اختلاف مع التصورات المعادية للسامية المعبر عنها فى اتفاقات "بروتوكولات حكماء صهيون" أو فى "النقابة اليهودية"، فإن فكرة الصوت اليهودى التى تم انبعاثها فى فرنسا بمبادرة من جماعات أو تيارات يهودية منظمة يمكن التعرف عليها تقريبا، وتسعى إلى نقل أشكال من التبشير الدينى إلى التبشير السياسى. وبعد ذلك استعاد اللاساميون بوعى أو بدون وعى فكرة الصوت اليهودى التى وجدوا فيها تعبيراً جديداً عن القدرة اليهودية السرية والغامضة." مرجع سبق ذكره ص٣٦و٣٧.

أن الممثلين الرسميين للطائفة لايـعكسون هذا التنوع . هكذا يؤكد روجيه كوكـيرمـان : . . هناك الحرب في إسرائيـل ،هناك الخطر لكل يهود فـرنسا . . . أعتقد اننا اليوم نتحدث بصوت واحد وموحد خلف إسرائيل . ، ،[1]
يمكن ان نشـير الي نماذج أخـري عديدة لـهذا التـداخل بين النقاش حـول الشرق – الأوسط والحياة السياسية الفرنسية .

لقد هنأ شارون الطائفة الـيهودية الفرنسية لأنها "الأكـثر نضالا لصالح إسرائيل" في أوربا. " (٢)

ولم يتردد حاييم موزيكان، مدير المجلـس التمثيلى، فى القول: "نحن قادرون على تأكيد إخلاصنا لإسـرائيل حتى عندما يكون ذلك على نقيض مع السياسة الفرنسية" .(٣)

وأكد الأميرال ميشيل دارمون، رئيس جمعية فرنسا إسرائيل، أنه " منذ عشر سنوات والطائفة اليهودية قد ضلت معركتها، فليس لوبن عدونا وإنما السياسة الخارجية الفرنسية.(٤)

كمـا أعتـرف إيلى بارنافى: "لدينا فى المجلسين أصـدقاء مخـلصون، والبعض منهم منظم فى جمـاعات صداقة نشطة"(٥). أكثر مـن جماعات الصداقـة فى طول البلاد وعرضهـا نجد عضـواً برلمانيا اقترح مـؤخراً على زملائه اليهود فى كل الأحزاب أن يشكلوا جـماعة ضغط مؤيدة لإسرائيل. ولحسن الحظ تم رفض هذا الاقتراح من قبل كثير من البرلمانيين اليهود.

١- آرش، عدد ٥٢٠ يونيه (٢٠٠١)

٢- يوشا شيستر "Jewish telegraphic Agency, French Ties" أغسطس (٢٠٠٢)

٣- المرجع ذاته

٤- الشهادة المسيحية، ٦ يونيه (٢٠٠٢) أستشهد بها دومنيك فيدال "باسم المعركة ضد العداء للسامية" لوموند ديبلوماتيك ديسمبر (٢٠٠٢)

٥- ايلى بارنافى ولوك روزين فايج، فرنسا وإسرائيل مرجع سبق ذكره، ص٦٣.

وأعرف شخصيا عدداً كبيراً من النواب المنتخبين يفضلون تجنب الحديث عن الشرق الأوسط، أو تأكيد تضامنهم من حيث المبدأ مع إسرائيل بسبب حذرهم الانتخابى أكثر من قناعتهم. فهم يخشون رد فعل سلبى - ناهيك أنهم يبالغون بشأنه - لقطاع محدود من الطائفة اليهودية لكنه ذو تصميم وفعالية. نموذج آخر "Proche-orient-info" وهو موقع إعلامى على الأنترنت عن الشرق الأوسط ومؤيد لحكومة شارون، يعرب عن سعادته لانه "ساهم فى مدينة استراسبورج فى إسقاط روبير جروسمان، الرجل القوى فى حزب التجمع من أجل الجمهورية فى الإلزاس، أثناء الانتخابات التشريعية الاخيرة"، فى اللحظة ذاتها التى كسب فيها اليمين الانتخابات بصورة كبيرة فى فرنسا نظراً للروابط المفترضة مع مسئول حزب المسلمين فى فرنسا[1].

كيف نفسر أن موقعا الكترونيا للإعلام الذى يدعى أنه يريد تقديم معالجة موضوعية للمشكلة - يعرب عن فرحه لأنه تدخل فى العملية

١- فى ١٣ مايو الماضى، يوم انطلاق موقع proche-orient.info، قدم بورتريه للأطرش مسؤول حزب المسلمين فى فرنسا ومشيراً إلى تجرؤ الصحافة المحلية على إعلانه، أى العلاقات السياسية بين هذا الإسلامى وروبير جروسمان. وقد تم تداول ورقة الموقع هذه فى استراسبورغ، وفى راديو جوديكا. وقد استعاد إرمان يونج هذه المعلومة وقام بتوزيعها بنفسه فى اليوم التالى فى صورة منشور.

ولم يتردد محرر الموقع فى إضافة: "هذه القرابة غير العادية تكشف مفاجآت أخرى. فاليمين المتطرف كان يشك فى أن روبير جروسمان من المؤيدين لبناء المساجد. وعن هذه الحجة نشر بياناً مشتركا مع الجبهة الوطنية و MNR واليمين المتطرف الإقليمى داعين لهزيمته فى ١٢ يونيه. "الجلوس على المائدة مع الشيطان حتى لو كانت معنا ملعقة كبيرة سنخسر الانتخابات" "www.proche-oricent.info": ٢٧ يونيه (٢٠٠٢). فيما يبدو لا يحتاج هذا الموقع إلى ملعقة كبيرة ليجلس على مائدة كبيرة مع الجبهة الوطنية وMNR واليمين المتطرف الإقليمى.

الانتخابية الفرنسية ! المخاطرة بالطبع هى الانحراف على الطريقة الأمريكية حيث سيكون وزن الطوائف[1] هو الذى يحدد السياسة الخارجية على نطاق كبير.

" الغموض يكتنف بصورة متزايدة الحدود بين المواطنة والطائفة. وتم تجاوز هذه الحدود عندما اعتبر مسئولو الطائفة اليهودية بفرنسا أن المسلمين بصورة جماعية بمثابة خصوم لهم. وعندما يتجمعون، كما فى سارسيل لتشكيل قوائم انتخابية، أو عندما يحاولون الدفاع عن أنفسهم فى مواجهة العداء للسامية.

"وتم تجاوز هذه الحدود أيضاً عندما ينشأ حزب للمسلمين فى فرنسا ينشد الاقتراع الانتخابى وفقا لمعايير طائفية وينشر هجائيات أكثر عنفا فى معاداتها للسامية".

لقد كان زعيم اتحاد الطلاب اليهود بفرنسا محقا فى ملاحظته السابقة. فالتنظيم الطائفى للبعض يفضى بالضرورة إلى التنظيم الطائفى للآخرين.

يقف النائب الاشتراكى الأوروبى فرانسوا زيمارى، طواعية إلى جانب

١- تشير افتتاحية بصراحة، فى Information juif (١٨ مارس ١٩٧٧) إلى نقل النموذج الأمريكى لفرنسا: "إن الناخب اليهودى فى هذا البلد الذى يشعر بأنه مهتم بإسرائيل له الحق وعليه الواجب فى أن ينظم نفسه لكى يعطى صوته إلى أولئك الذين يساندون البلد الذى يشكل نموذجه وطموحاته وتوحدا مع نموذجه الخاص وطموحاته الخاصة. وهكذا اكتسب الصوت اليهودى أهمية خاصة فى الولايات المتحدة والذى ينبغى أن يؤخذ كنموذج فى كل البلاد الديمقراطية، وفى المقام الأول فرنسا حيث لا يكون التضامن مع إسرائيل مجرد ذكرى فقط مع الماضى وإنما ضمان للحاضر والمستقبل خاصة." استشهدت به سيلفى استرودل مرجع سبق ذكره ص٣٦.

رأى الحاخام الأكبر سيتروك. وفى حالة من الانزعاج، حتى لا نقول الوجوم، لدى النواب الآخرين فى مجموعته، كرس زيمارى الأساسى من نشاطه البرلمانى الأوروبى فى الدفاع والمناوبة عن سياسة شارون. ولم يتوقف عن نقد بل وإنهاء علاقة الاتحاد الأوروبى بالسلطة الفلسطينية. ومن حق زيمارى كمناضل أن يعبر بحرية عن دعمه لحكومة يمين أو يمين متطرف وحتى وإن كان ذلك مزعجا على الصعيد الأخلاقى بالنسبة لشخص يقول إنه ينتسب لليسار. وكمنتخب، فينبغى عليه أن يلتزم باحترام قواعد العمل الديمقراطى. وهذا هو الحد الأدنى الذى ندين به للناخبين والحزب الذى بفضله انتخبنا. وزيمارى قد تجاوز ذلك بنشاط ودون أن تعيده الهيئات الحاكمة بالحزب إلى قواعد العمل. وإذا كان ينبغى أن يظهر من جديد فى الانتخابات الأوربية فى (٢٠٠٤) على قائمة الحزب الاشتراكى، فإن هذا يعنى أن هذا الأخير قبل عن معرفة بالأمر إرسال مناصر لشارون فى مقاعد البرلمان الأوروبى باستراسبورج.

وبيير لولوش الذى يقدم نفسه كمدافع لا يلين عن إسرائيل يرى أن "للطائفة اليهودية المنظمة دورا عليها أن تلعبه. فالنموذج الجمهورى، شئنا أم أبينا، والبوتقة الجمهورية التى ينصهر فيها الجميع قد تعدلت من الآن فصاعداً. نرى هذا جيداً فى الضواحى. فقد نمت على أرضنا، على مدار عشرين سنة، طائفة مسلمة تمثل فى الوقت الراهن ما يقرب من ستة إلى ثمانية ملايين من الأشخاص، منهم أربعة ملايين هم من الفرنسيين. هذا واقع. وأمام ظهور الطوائف على هذا النحو ينبغى أن نعيد التفكير فى النظام. وقد يتضمن ذلك أن تقوم الطائفة اليهودية بتنظيم نفسها أيضا

وإعادة هياكلها بصورة تسمح لها بالدفاع بطريقة أفضل عن مصالحها أمام هذا المعطى الجديد. "(١)

نحن أمام انقلاب فى المنظور مثير للفضول من قبل بيير لولوش المقتنع بأن الحزب الاشتراكى قد كسب بلدية باريس فى (٢٠٠١)، لأنه عرف كيف يكسب بصورة أفضل الصوت اليهودى. وأن استعادة هذا الصوت من جديد هو أحد المفاتيح الأساسية فى تحقيق انتصار اليمين فى العاصمة الفرنسية فى انتخابات (٢٠٠٧). ويبدو أنه يعتقد أن الطائفة اليهودية غير منظمة، وانه ينبغى بصورة ضرورية أن تعيد تنظيم هياكلها حتى تستطيع مواجهة الطائفة المسلمة الأكثر عدداً (وهو أمر لا جدال فيه) والتى تعرف تماما كيف تسمع صوتها (وهو أمر بعيد عن الحقيقة). إن التشنج الطائفى لا يحمل شيئا. وليس له من نتائج إلا تنظيم مماثل للطائفة المسلمة. وهكذا أسس محمد الأطرش حزب مسلمى فرنسا والذى يضم الفين من المنتسبين له. ومع تزايد الانفعال الذى نتج عن أحداث الشرق الأوسط قام بتنظيم مظاهرات سمحت لحزب الله وحماس أن يعلنا عن أنفسهما بصورة علنية. وقال فى تفسير أسباب إنشاء حزبه "لكى نحرر المسلمين فى فرنسا من تأثير الحزب الاشتراكى المتصهين"(٢)

وتدريجيا يتم نقل صراع الشرق الأوسط إلى فرنسا، والدخول فى الدائرة الجهنمية لعمليات بروز تأثير الطوائف. وهو أمر لن يكسب منه أحد، الطائفة اليهودية أكثر من غيرها. لأن قانون العدد فى النهاية لن يكون فى صالحها بصورة آلية. وأبعد من ذلك ستكون الجمهورية هى

١- المنبر اليهودى، عدد ١٥٢٤، فى ٣١ يناير (٢٠٠٢).

٢- لوبوان، ٢٤ مايو (٢٠٠٢).

الخاسر عندما تصير مجرد حاصل الطوائف. لهذا ينبغي تغليب لا وزن كل طائفة وإنما المبادئ العالمية. وبسبب تأكيدي على هذه البديهية العادية كنت موضوعاً لفتوى من جانب غلاة الموالين لإسرائيل.

الفصل التاسع

فتوى(*) فى باريس

إذا كنت قد أثرت فى هذا الكتاب مسألة شخصية، فليس هدفى من ذلك الحديث عن نفسى، وإنما لإظهار أى انحرافات وأى تشويهات للحقيقة وأى أحقاد يمكن أن يثيرها فى فرنسا الملف الإسرائيلى - الفلسطينى.

فى أبريل (٢٠٠١) كنت قد حررت مذكرة سياسية عن الصراع الإسرائيلى-الفلسطينى، وأرسلتها إلى فرانسوا هولاند وهنرى ناليه، وهما على التوالى السكرتير الأول والسكرتير الدولى للحزب الاشتراكى.(١) انطلقت هذه المذكرة من تساؤل واجهنى منذ زمن طويل: لماذا لا نطبق فى الشرق الأوسط المعايير والمبادئ ذاتها كما فى الصراعات الأخرى؟ لماذا نقبل الانتهاكات المستمرة للقانون الدولى واتفاقيات جنيف وقرارات الأمم المتحدة وعدم احترام مبدأ التقرير الذاتى للحقوق الفلسطينية؟ وألا يوجد تناقض إضافى بين واقع الانتساب لليسار ووضع المبادئ العالمية جانباً فى هذا الصراع ذى الطبيعة الخاصة؟ ولماذا نتدخل عسكريا لصالح الكوسوفيين بينما نقر مع ذلك سيادة يوغسلافيا على كوسوفو، ونرفض ممارسة ضغوط فعلية على الحكومة الإسرائيلية، عندما ننكر على إسرائيل السيادة على الأراضى

(*) من الضرورى التنويه هنا بإن المؤلف يستخدم كلمة فتوى بالمعنى الشائع لها فى الغرب بعد فتوى الخمينى ضد سلمان رشدى، وليس بالمعنى الفقهى للكلمة فى الثقافة الإسلامية - المترجم. ١- أنظر نص المذكرة فى ملحق هذا الكتاب.

المحتلة؟ كيف يمكن تفسير هذا فى لحظة يتم الابتعـاد فيها عن عملية السلام وحيث القمع يتزايد أكثر فأكثر ضد الفلسطينيين بدون أن يجلب مع ذلك - بل على العكس - الأمن لإسـرائيل؟ باخـتصـار هل يمكن أن ننتـسب إلى اليسار ونتقاعس عن نقد سياسة حكومة شارون؟

وأنا أقر بالعـوامل التاريخية لهـذا الاستثناء، وبالأخطاء التى وقع فـيها الفلسطينيـون. ومن البـديهى أنه لا يوجـد هنا، ولا فى أى مكان آخـر، طرف يملك الصـواب بصورة مطلقـة، وآخر يتحـمل كل الأخطاء. وكنت أؤكد مع ذلك أن هذا لا يبرر الإبـقاء على سياسة الكيل بمكيـالين بالمقارنة مع الصراعات الأخرى. أو يبرر هذا التوازن الزائف المتمثل فى المساواة بين مسئوليات المحتل والذى يتعرض للاحتلال.

وأثناء مـحادثاتى عن هذا الموضـوع، وعندمـا كنت أواجه فى الغـالب بالحجة ذاتها - كل هذا ليس من قبيل الزيف لكن لا يمكن أن نتحرك لدواع انتخابيـة - كنت أشدد على أنه فى مرحلة معينة من انتـهاك المبادئ، على البواعث الانتـخابية أن تزول. بل وأكـثر من ذلك فإن الفجـوة بين المبادئ المعلنة وعدم احترامها قد يصير غيـر مفيد على الصعيد الانتخابى، وأنه فى النهاية ينبغى معالجـة صراع الشرق الأوسط لا من زاوية الوزن الذى تتمتع به الطائفة وإنما انطلاقا من المبادئ العالمية.

وبوصفى مدرساً للعلاقات الدوليـة كنت أشعر أيضا بالدهشة من تطور وعى الطلاب. فعندما كـان يثار موضوع الشرق الأوسط منذ عشـرين عاما كانت الآراء تتـجه مناصـفة بين أنصار طـرفى النزاع. أما اليوم فـالغالبـية العظمى تحمل المسئولية الرئيسية - وليست الوحيدة - على إسرائيل[1].

١- إيلى بارنافى ذاته أقـر ذلك حيث أعـلن استـياءه من أنه يواجـه صعـوبات فى الحـديث أمـام جمـهـور الطلاب. فى كـتـابه فـرنسـا وإسرائيل مـرجع سـبق ذكـره ص١٠٥-١٠٧.

باختصار كانت هذه المذكرة تجمع عدداً معينا من النقاط، وليس فيها فى النهاية ما يشكل انقلابا كما سيلاحظ القارئ عند قراءته لها فى ملحق الكتاب. ومع ذلك ستحدث ضجة كبيرة وستوزع بكثافة بدون علمى. غلاة الموالين لإسرائيل، والذين يفضلون تضامناً طائفيا شاملا على حساب المبادئ العالمية، فى حالة من التأثر خشية أن يغير الحزب موقفه فى هذا الشأن. وعلى نقيض الموقف التقليدى للحكومات الفرنسية من اليسار أو اليمين، بل على نقيض موقف فرانسوا ميتران ذاته، لم يكن الحزب الاشتراكى يرغب أبداً فى الابتعاد عن حكومات إسرائيل، على الأقل فى الحالات التى كان فيها حزب العمل الإسرائيلى فى السلطة. وما كان يمكن أن يستوعب تماما عندما كانت إسرائيل تسعى لتأسيس السلام مع الفلسطينيين، صار عصيا على الفهم عندما شارك حزب العمل فى حكومة يقودها آرييل شارون. ولم يخف أبدا هذا الأخير معارضته لعملية السلام، وسيثبت بعد ذلك كم كان متسقا مع نفسه.

وكان وجود أعضاء من اليمين المتطرف أو من غلاة المتدينين فى الحكومة يجعل مسار حزب العمل أكثر استغلاقا على الفهم. ويؤكد كثير من الإسرائيليين من اليسار، بالطبع أقلية، إن هذه المشاركة لا يمكن أن تكون إلا عملاً موجهاً لتدمير عملية أوسلو (مرة أخرى أيضا حتى إذا كانت كل المسئوليات لا تقع على عاتق إسرائيل وحدها)، وتحرم الإسرائيليين بالإضافة إلى ذلك من بديل سياسى واضح.

وستثير هذا المذكرة ضدى غضبا وحتى حقداً. وسأصير موضوعاً لحملة منظمة. إنها فتوى فعلية أطلقت ضدى. كيف يمكن أن نفسر أن التذكير بالمبادئ الأولية يمكن أن يطلق مثل هذه الردود من الأفعال؟ ومع التأمل وجدت عدة تفسيرات لذلك.

التفسير الأول هو أننى وضعت الإصبع على شئ ما مزعج، أى التفكير الطائفى. وكان هذا من المحرمات، وينظر له على أنه يستند إلى التمييز بين اليهودى وغير اليهودى. ولا شيئ أكثر زيفا من ذلك، لأن هناك كثيرا من اليهود المعارضين لسياسة شارون فى الحزب الاشتراكى. والحال أن المسافة بين المبادئ السياسية لليسار أو المبادئ الإنسانية ببساطة ووضع الشرق الأوسط هو الذى يدفع إلى تشنج مواقف البعض. ولاسيما أنهم كانوا لايشعرون بالراحة عندما يرون أن سياسة إسرائيل صارت موضوعا للنقد أكثر فأكثر . كما أن المسافة التى صارت أكثر وضوحاً بين المبادئ العالمية وسياسة إسرائيل قد عرت طابعهم الطائفى.

والتفسير الثانى أننى لست عربيا أو مسلما. وإذا كنت هذا أو ذاك لاعتبر البعض أننى ألعب دورى كمدافع عن الفلسطينيين. وهكذا كان موقفى سينظر له على أنه سلوك طائفى يتكيف معه الكثيرون، غير أننى تدخلت فى هذا النقاش دون أن تكون هناك أى مصلحة خاصة أدافع عنها، تحركت فقط انطلاقاً من قناعة، وهذا لم يغفر لى.

والتفسير الثالث أننى طبقت على هذا الصراع المبادئ العالمية (احترام القانون الدولى، حق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها، احترام حقوق الإنسان) بينما كان يريد أولئك الذين يملكون رؤية طائفية أن يعالج الصراع وفق مبدأ الاستثناء. ويرفضون تطبيق المبادئ ذاتها التى نطبقها فى الصراعات الأخرى على الصراع الإسرائيلى، وينوعون فى البواعث التى تعطى هذا الصراع ملمحاً استثنائيا، وهكذا يتوقف المبدأ العالمى بوضوح على أبواب الصراع الإسرائيلى-الفلسطينى.

وأخيراً، أعتقدت أننى أدركت أن التفسير الرابع يكمن فى أن هذه

المذكرة قد وصلت إلى ليونيل جوسبان، وأنه ربما قد أعرب عن موافقته على خطوطها الرئيسية. وليونيل جوسبان اعتبر دائما كواحد من أكثر الأصدقاء المخلصين لإسرائيل بين الإشتراكيين الفرنسيين. فعندما كان يشغل منصب السكرتير الأول للحزب الاشتراكى أعرب فى الثمانينيات عن موافقته على النقل المحتمل لسفارة فرنسا من تل أبيب إلى القدس؟ وهو أمر يعنى اعتراف بضم إسرائيل للمدينة، وهو ما لم تكن دولة قد فعلته حتى هذا الوقت. وبرغم مساندته الدائمة لإسرائيل وربما بسبب هذه المساندة - أدرك بدون شك المأزق، حتى لا نقول البئر، الذى قاد إليه شارون شعبه.

شرعت فى هذه الفترة فى حوار عبر البريد الألكترونى مع مراسلين إسرائيليين كانوا قد حصلوا على نص المذكرة دون أن توجه إليهم وأرسلوا لى حججا مضادة.

قررت أن أنشر مقالاً انطلاقاً من هذه المذكرة، مستعيداً منطقها العام ومستبعدا للعناصر التى كانت تشكل تساؤلاً مباشراً لقادة الحزب الاشتراكى.

أرسلت المقالة فى منتصف شهر يوليه ونشرت فى ٤ أغسطس على أعمدة صحيفة لوموند. وكنت أعتقد أنها ستمر فى صمت فى عز الصيف. ولم يحدث شيئ من هذا. وكنت قد أخذت معى الكمبيوتر المحمول أثناء الإجازة، وفوجئت على الفور بغزارة الرسائل والشتائم والاحتجاجات والتهديدات. وأجبت على أغلبها بادئا فى حوار مع البعض منهم. وحدث الشيئ ذاته فى موقع الاتصالات بمعهد العلاقات الدولية والاستراتيجية حيث تم تلقى العديد من المكالمات، وقام بعض المتهورين

بإهانة بعض المتعاونين معى. وفى ٨ أغسطس نشرت جريدة لوموند رداً من إيلى بارنافى سفير إسرائيل فى باريس، الذى هاجمنى بشدة ومشككاً فى المذكرة الداخلية التى أرسلتها للحزب الاشتراكى، زاعماً أن هناك وراء تقديمى المغرض وعلامات تشير إلى رغبة فى نزع المشروعية عن دولة إسرائيل، وأننى كنت أقف على "حدود العداء للسامية". لا يمكن الشك فى أن إيلى بارنافى مثقف بارز وتقدمى. لكنه كان أنذاك، على الأقل، ومهما كانت علاقاته مع اليسار الفرنسى، سفير بلد أجنبى.

وأكد لى كثير من الأشخاص بعد ذلك أن النزعة الخطابية فى مقال بارنافى هى التى جعلتهم يكتشفون مقالى، وأنه كانت لديهم صعوبة فى إدراك العلاقة بين المقالين، وأن عنف الرد لا يتطابق مع فحوى مقالى.

هل كان ذلك تنفيذاً لأوامر تل أبيب بتشديد اللهجة فى مواجهة النقد الذى تتعرض له إسرائيل؟ هل أراد بارنافى إظهار أنه كسفير وفى لحكومته الجديدة (كان قد عين من قبل حكومة يسار فى فترة باراك) وأنه يمكن أن يقوم بأشياء لا يمكن للمؤرخ أن يتجرأ على القيام بها[١]؟ هل كان ينبغى تجنب اتساع المسافة بين الحزب الاشتراكى والحكومة الإسرائيلية، والتصويب على شخص لا يشغل أى مسئولية؟ لقد أثار مقالى ورد بارنافى عاصفة صغرى.

١- فى كتابه "فرنسا وإسرائيل"، مرجع سبق ذكره ص١٤ أقر أنه عين من قبل حكومة حزب العمل وسيجد نفسه بعد ذلك مع حكومة اتحاد قومى. واقترح عليه أصدقاؤه من اليسار فى إسرائيل وفرنسا أن يستقيل "حتى لا يؤمن على سياسة يعرفون مسبقا أنها كارثية". لكنه لن يفعل ذلك لأسباب من بينها " تجنب السخرية الناجمة عن ترك منصب شغله منذ شهرين فقط" فى فترة كانت هزيمة باراك، كما يرى، متوقعة. ويصف فى كتابه صورة قاسية لشيمون بيريز الذى عاب عليه أنه كان متمسكا دائما بالسلطة. وقامت الحكومة الإسرائيلية بإقالته ولم تكن له فرصة أن يقدم هو استقالته.

ابتداء من ٦ أغسطس كتب كليموفايل-راينال، رئيس جمعية الصحفيين اليهود بفرنسا[١] إلى سيرج فاينبرج، رئيس مجلس إدارة معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية IRIS، مؤكداً له أن مقالى كان شائنا ومطالبا بأن يجد تقريره المعارض وتقرير وليام جولدنادل صدى داخل الهيئات المديرة للمعهد.

ويعتبر فايل راينال أن "خطابى قد أثار انفعالاً كبيراً داخل الطائفة اليهودية التى تجد نفسها على هذا النحو موضع تساؤل بصورة جماعية، وترى أنها حرمت من حق مشروع فى مساندة إسرائيل ضمن الحوار الديمقراطى". وهو يرى، إذا فهمنا جيداً، أن الحوار الديمقراطى ينبغى إذن أن يسمح بمساندة إسرائيل وليس نقدها. بدون شك لقد أخطأت فى استخدام مصطلح الطائفة اليهودية، لكن الذين يرفضون بصورة راديكالية هذه الفكرة هم تماماً أولئك الذين ينتقدون ممثليها الرسميين. هؤلاء الأخيرون لم يترددوا فى استخدام مصطلح الطائفة الذى هو بدون شك غير علمى تماما لكنه يشيع فى اللغة الدارجة. على أى حال لم أقدم فى شئ هذه الطائفة بوصفها طائفة متماسكة أو تشكل كتلة واحدة.

اتهمت أيضا بـ "جعل الطائفة اليهودية مسئولة مسبقاً عن موجة جديدة من العداء للسامية التى يمكن أن تصيبها إذا، لم توافق على القيام "بتوبة" جماعية بالوقوف إلى جانب حججى الباطلة، وأن هذا الانحراف وهذا الاعتداء عبر اللغة المستخدمة لا يمكن إلا أن يكون ضاراً بسمعة المعهد داخل مجلس الإدارة الذى تشرفون عليه. ونحن نعلم أيضا أننا يمكننا دائما اعتباركم من بين أصدقاء إسرائيل فى فرنسا. ولكل هذه الأسباب نعرب

١- الجمعية لا تجمع أغلبية الصحفيين اليهود بفرنسا، الذين لم توجه إليهم أى دعوة للانضمام إليها ولا تمثل سوى بعض الأصدقاء حول رئيسها.

لكم عن تأثرنا فى الوقت الذى نـأمل فيه أن يـجد هذا الأمر صـدى داخل الهيئات المشرفة على معهد (IRIS)".

ترى ماذا كان يـقول السيد كليـموفايل-راينال إذا كتـبت جمعيـة موالية للفلسطينيين إلى إدارة القناة الثـالثة للتعبـير عن تأثرها فيمـا يتعلق بالمواقف التى يدافع عنها بصورة متكررة، بتقديم نفسه تارة كرئيس جمعية الصحفيين اليهود بفرنسا، وتارة كصحفى بالـقناة الثالثة؟ سيرى أن هذا من الأمور غير المقبولة ! مـاذا يمكن أن نرى فى هذا الأسلوب المتمثل فى عـدم الرغبة فى إجراء حوار مع شـخص ما، والتوجه مـباشرة إلى من يعتـبر أعلى منه فى سلم العـمل، ليطلب منه توقـيع عـقوبات؟ وسـألاحظ بعـد ذلك أن هذا الأسلوب يعتبـر من المقومات الراسخة فى عـمل غلاة الموالين لإسرائيل من اليمين أو من اليـسار. ولا يتوجهون أبداً إلى من يتهـمونه، لأنه غير جدير فى نظرهم، وبشكل خاص لأنهم يخشون المـناقشة العلنية التى لا يمكن أن تسير فى صالحهم.

ويفضلون البـقاء فى نطاق عمل غـير مباشـر يتجه نحـو أطراف أخرى يمكنها أن تعـاقب متهـماً ليس له الحق بالطبع فى الدفاع عن نفـسه. وهذه الاسـاليب غـيـر الجـديرة بالاحـتـرام تكشف الـكثـيـر عن أولئك الذين يستخدمـونها. وتذكرنا هذه الأساليب واللغة المستخـدمة بها بشكل غريب بأساليب اليمين المتطرف فى الثلاثينيات.

وسأكـتشف بالإضافة لذلك أن السـيد كليمـوفايل-راينال ذاته ليس من عاداته أن يربك نفسـه بمهارات غير مفـيدة. فقد كتب، فى الشـهر السابق لذلك، إلى جان بيير الكباش يتهمه بشأن تعليق له على المكاهابيد[1] الذى لم يرق له، بأنه يقف إلى جوار أسوأ أعداء إسرائيل والسلام.

١- لقاءات دولية مخصصة للأندية الرياضية اليهودية الموزعة عبر أنحاء العالم.

وعبر التليفون وعبر الكمبيوتر المحمول لم تتوقف الرسائل عن الظهور بالمئات. بعضها تهانى وبعضها الآخر نقد والكثير من الإهانات المتزايدة والحافلة ببعض التهديدات لتشكل إجراءاً رادعاً. ولم يكن لردود الأفعال هذه شئ من العفوية، وكانت تظهر بصورة منظمة. وامتلأ موقع التليفونات بمعهد العلاقات الدولية بالمكالمات أيضا، وتكدست أكوام الرسائل البريدية وكان من بينها طلبات عديدة موجهة إلى سيرج فاينبرج حتى يأخذ موقفاً رافضاً لى أو يستقيل من مجلس إدارة المعهد.

وهناك طلبات أكثر تحديداً أرسلت إلى أعضاء بـ مجلس الإدارة ينتمون إلى الطائفة اليهودية الفرنسية. رد فعل غريب. أكان ينبغى على أن أحصى أعضاء مجلس الإدارة الذين ينتمون الى الطائفة اليهودية؟ بالتأكيد لم أدرك الأمر أبداً على هذا النحو، ولم أقم أبدا بإحصاء لهؤلاء أو أولئك. وسيكون دائما هذا الأمر بالنسبة لى غير وارد على الإطلاق. بيد أن الأساليب التى يستخدمها غلاة الموالين لإسرائيل، كما نراها، قد تدفع بالبعض للقيام بذلك. ولا يعدو الأمر فى النهاية سوى واحدة من اثنتين. إما أن تكون أقوالى معادية للسامية حقاً، وحينئذ يكون على كل أعضاء معهد العلاقات الدولية أن يتبرأوا منها، فمكافحة السامية لا تقع على عاتق اليهود فقط. وإما أن تكون أقوالى ليس فيها شيئ من هذا، وأن الأمر حقا، من جانب الذين يديرون حملة ضدى، هو إجراء طائفى يؤدى منطقه، مرة أخرى، إلى انحرافات غاضبة.

ومن غريب الصدف أن العضو الذى أعرفه أكثر فى مجلس الإدارة، ومنذ وقت بعيد، والذى عملت معه أكثر من غيره، ونشرت معه كتاباً فى عام (١٩٨٥)، فرانسوا هيسبورج، هو الذى سيفتح النار.

فى خطاب أرسل فى ٢٠ أغسطس إلى سيرج فانيبرج، والذى وصلت منه نسخة إلى كل عضو فى مجلس الإدارة، ويتهمنى أننى جعلت يهود فرنسا مسئولين عن سياسة إسرائيل. ولم ير من المناسب أن يتحاور معى مباشرة عن اتهام على قدر كبير من الخطورة.

كيف نفسر أن صديقاً منذ عشرين عاما تقريبا قد اكتشف فجأة بين ليلة وضحاها أننى كنت معادياً للسامية، ولم يبحث حتى فى تبديد شك خطير بهذا القدر من خلال اتصال مباشر؟

لقد أجاب عليه سيرج فاينبرج بطريقة جافة بما فيه الكفاية مندهشا من "إجراء قليل الاحترام" يتمثل فى القيام بمحاكمة نوايا لى بالعداء للسامية مؤكداً له أن محاولته تنتمى بالأحرى إلى موقف عام سلبى إزاء معهد العلاقات الدولية[1] والاستراتيجية.

نشرت لوموند فى ١٣ أغسطس رداً على مقالى كتبه المحامى بيير-فرانسوافايل. وكان يعيب فيه على أننى أصدرت تهديداً "بالإزاحة خارج الجماعة الوطنية بتهمة جماعية لإبداء الرأى" للجماعة اليهودية الفرنسية. وأرسلت له خطابا شخصيا محاولا تفسير موقفى.

بالتأكيد كنت مندهشا وقلقا من هذا الاتهام بمعاداة السامية، وأنا الذى كافحت باستمرار ضد كل أشكال العنصرية طوال حياتى، وكنت ألاحظ، مع ذلك، أن كثيراً من اليهود كانوا يرسلون لى رسائل مساندة، وأن أغلب أصدقائى ومعارفى من اليهود سواء كانوا متفقين معى أم لا لم يستخلصوا مثل هذه النتائج. وكنت أعتقد مع ذلك أننى كنت واضحاً فى ورقتى ولم أتناول الطائفة اليهودية ككتلة واحدة، مظهراً على العكس أنها يمكن أن

١- من الصحيح أن الأسلوب المتمثل فى استخدام خطاب إدانة لإقصاء منافس محتمل يظهر الصفات الأخلاقية التى لا يجمع عليها أحد، والتى تذكرنا بلحظات حرجة فى تاريخنا .

تحتوى على وجهات نظر مختلفة وطالبت، على وجه الدقة، بتجنب مخاطر الانحراف الطائفى. هل واقع أننى غير يهودى يمنعنى من القيام بذلك؟

نشرت لوموند، فى ١٩-٢٠ أغسطس، رسالة من رونالد بشمان تعيب على إيلى بارنافى فى رده أنه أسدل ستاراً من الصمت على مشكلة المستوطنات اليهودية فى الأراضى المحتلة. "اليهود، أو الذين صنفوا كذلك، والذين عرفوا فى فرنسا فترة الاحتلال، والذين دخلوا، مثلى، فى صفوف المقاومة لا يمكنهم أن يؤيدوا مثل هذه السياسة التى تقود إلى كارثة محتومة. ولا أعتقد أن غالبية أفراد الطائفة اليهودية المتباينين، عندما يسألون بصورة فردية، يوافقون على هذه السياسة. وليس هذا فقط لأنها تغذى العداء للسامية، الذى يمكن أن يعانوا منه، لكن ببساطة لأن هذه السياسة تسير فى خط مناقض لقيم التسامح واحترام الإنسان والديمقراطية والانفتاح، والتى جعلت من فرنسا منذ بعيد بؤرة جذب لكثير من الأشخاص من أصول أجنبية."

فى بداية سبتمبر، وبعد محادثة تليفونية مع إيلى بارنافى نظمها سيلفان أتال على موجات إذاعة RMC أنفو، والتى تمت بصورة ودية تماما، أرسلت له دعوة لإلقاء محاضرة فى IEP بمدينة ليل حيث أقوم بالتدريس هناك. وتمت المحاضرة فى قاعة مليئة عن آخرها، وأمام طلاب جلسوا حتى بين الممرات وصولاً إلى منبر المتحدثين. وألقى بارنافى محاضرة رائعة، وتحدث عن السلام، وتجنب اللغة النمطية، ولم يتهرب من أى سؤال حتى الأسئلة الأكثر إحراجاً. وكانت هذه المحاضرة بدون شك إحدى اللحظات الهامة أثناء العام الدراسى، وكذلك بالنسبة للطلاب الذين توافدوا إليها.

لاحظت أثناء المحاضرة أن هناك شخصا فى الصفوف الأولى لم يتوقف عن تصويب نظرات حادة لى. وفى حفل الاستقبال الذى أعقب المحاضرة

قدم نفسه كمسئول إقليمى للمجلس التمثيلى للمنظمات اليهودية فى فرنسا (كريف). وصرح لى بأنه جاء لأنه لا يمكنه القيام بغير ذلك، حيث إن الأمر يتعلق بسفير إسرائيل، غير أنه شعر بالصدمة لأننى تمكنت من إدارة هذا اللقاء بعد مقالى فى شهر أغسطس.

وحاولت مرة أخرى أن أفسر اتهامى بالعداء للسامية، موضحا له أننى مستعد لأى مناقشة حول هذا الموضوع. لكنه أجابنى بشكل أكثر غضبا، وقال إن هذا النقاش ليس وارداً على الإطلاق بالنسبة له، وانطلق فى مرافعة طويلة أمام نظرات إيلي بارنافى المتزعجة.

لقد كان ملكيا أكثر من الملك، ولم يفهم كيف يبادلنى بارنافى الحديث.

بعد عدة أسابيع دعانى ديديه باريانى لإلقاء محاضرة أمام أعضاء حزب الاتحاد من أجل الديمقراطية الفرنسية، حول انعكسات أحداث ١١ سبتمبر. ولم أكن أنتمى إلى هذا الحزب لكننى وجدت أنه من الطبيعى تماماً أن أتحاور مع مناضلى حزب سياسى. فهذا هو جوهر الحوار الديمقراطى. كنت أعرف ديديه باريانى، لأنه كان رئيسا لنادى باريس لكرة القدم، حيث يلعب أبنائى هناك، وصرت عضوا فى مجلس إدارة النادى. وفى نهاية العشر دقائق الأولى من محاضرتى لاحظت توزيع نسخة من مذكرتى التى أرسلتها إلى فرانسوا هولاند بين الحاضرين، ويبدو أن أحدا أراد تفجير الموقف. وأثناء فترة توجيه الأسئلة نهض شخص على الفور طالباً الكلام، واتهمنى بأننى تفوهت بأقوال معادية للسامية. فطلبت منه أن يذكر لى أمثلة محددة على ذلك وأن يقدم نفسه للجمهور. وكان كليمو فايل-رانيال. ولم يكن فى وسعه إلا أن يكرر أننى استهدفت الطائفة اليهودية، دون أن يستخرج بالطبع جملة واحدة لها ملامح معادية للسامية. وغادر القاعة بسرعة لأنه كان قد احتكر الكلام عبر خطاب مرتبك، واضطر فى النهاية

إلى الانسحاب بشكل يدعو للرثاء أمام الاحتجاجات الموجهة له. وفى ٦ سبتمبر نشرت "الاكيتواليته اليهودية" صفحة تحت عنوان "العداء للصهيونية" وعنوان آخر على مدار الصفحة بكاملها: "قضية بونيفاس" تثير غضبا كبيراً داخل الطائفة اليهودية. فى مقال لوموند وفى مذكرة داخلية موجهة إلى الحزب الاشتراكى- يتهجم بسكال بونيفاس، مدير معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية (IRIS) على الطائفة اليهودية بشدة."

وقع على هذا المقال مارتن بيريز - وهو اسم مستعار لكليمو فايل-رانيال- ويتحدث عن "إيماءات سوداء".

لقد أدركت شيئا آثار حيرتى كثيراً، وهو أن ما ينقل من المذكرة كان تلك الفقرات التى اعتبرت أكثر عداءً لإسرائيل. ولم يظهر فى أى لحظة النقد الذى وجهته للفلسطينيين، أو التفهم الذى عبرت عنه فى بعض النقاط لوجهات النظر الإسرائيلية. يتهموننى بأننى أدنت إسرائيل كتلة واحدة، بينما نشرت قبل ذلك فى الفيجارو مقالاً عن مؤتمر الكفاح ضد العنصرية فى دربان مسانداً إسرائيل، فى مواجهة اتهامات منظمات غير حكومية كثيرة ماثلت بين الصيهيونية وبعض أشكال العنصرية. ولم يشر أحد منهم إلى هذا المقال، بما فيهم أولئك الذين تحدثوا كثيراً عن مؤتمر دربان لإدانة المؤامرة المعادية لإسرائيل التى سيطرت على هذا المؤتمر. وكذلك مرت تحت ستار من الصمت إداناتى للعمليات الفلسطينية فى إسرائيل، والاعتداءات المعادية للسامية فى فرنسا، وناهيك عن تصريحاتى المؤيدة لوجود إسرائيل داخل حدود آمنة ومعترف بها.

ومن المنطقى عندما يشعر الإنسان بتهديد أن يحاول البحث عن حلفاء، ومن المحتمل أن يقبل المرء حلفاء ليسوا بالضرورة موافقين له فى كل

القضايا، وإنما يسجل نقاط الاتفاق مع الآخرين أكثر من التركيز على نقاط الاختلاف. وهنا لا نجد شيئا من هذا، بل على العكس فإن كل عنصر من عناصر تفكيري، الذى يمكن أن يعتبر متوافقا مع مصالح إسرائيل قد تم مسحه، كما لو كان ينبغى بأى ثمن أبلستى، كما لو كان ينبغى بأى ثمن البرهنة للقارئ أن اليهود ليس لهم إلا أعداء ذو عزم، ينظرون إليهم بوصفهم كتلة واحدة، ويحملون لهم عداوة بلا حدود وبلا تردد.

والهدف من مثل هذا الأسلوب هو تعبئة الطائفة فى مواجهة الخارج بإثارة الخوف لديها. فى حالة الخطر يتجمع الناس حول قادة حماة لهم وفى فترة الهدوء لا يشعر الناس بأهمية ذلك. والحال أنه إذا كان الوضع خطيراً جداً، وإذا كان هناك خطر حقيقى بالفعل يهدد الطائفة فإنه ينبغى على العكس البحث بأى ثمن عن التضامن بأكبر قدر ممكن من الاتساع. خلافا لذلك تماما - لأنهم يشعرون بأنهم فى موقف قوة يمكن للمسئولين الرسميين أن يسمحوا لأنفسهم برفض أولئك الذين يناضلون ضد العنصرية وفى الوقت ذاته لا يقرون مائة بالمائة بمواقفهم .

وفى اليوم التالى لنشر هذا المقال فى " الاكيتواليته اليهودية" تلقيت اتصالاً هاتفيا من بيير لولوش، وكان عضوا فى مجلس إدارة معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية. وأخبرنى انه اطلع لتوه على المقال المنشور فى لوموند، وأنه يطرح أمامه مشاكل جدية[1]، وشرح لى أن الطائفة اليهودية تحست كثيراً مما كتبت، وأنه ينبغى أن نلتقى لنبحث هذه القضايا بصورة عاجلة. حددنا موعداً لكن أحداث ١١ سبتمبر حالت دون تحققه.

١- قد يبدو مذهلاً أن بيير لولوش لم يكن على علم بهذا المقال أو رد بارنافى على نحو خاص. ويضاف إلى ذلك أنه كان على علم بصورة غير مباشرة، على الأقل، عبر رسالة فرانسوا هيسبورج الذى التقاه كعضو فى مجلس إدارة المعهد، الأمر إذن يعود إلى مقالة "الأكيتواليته اليهودية" فهى التى دفعته إلى التحرك.

وبعد ذلك أرسل بيير لولوش خطاب استقالة إلى سيرج فاينبرج. ويبدو أن هذا الخطاب قد أرسل إلى جهات أخرى كثيرة حيث إن صحيفة "الإكيتواليته اليهودية" ذاتها أعلنت في عددها لشهر نوفمبر أن "بيير لولوش قدم استقالته من مجلس إدارة معهد العلاقات الدولية IRIS"[1].

وفي وقت واحد سأكون موضوعا للمساءلة في مجلتين إسبوعيتين استعادتا لحسابهما الملف الذي أعده (كريف) نهاية (٢٠٠١) بشأن الأعمال المعادية للسامية.

وقد كرست الصحافة مساحة كبيرة لهذا الملف، غير أن الاهتمام بالملف لم يكن يعني استعادة كاملة وتناول كل البراهين الواردة به. وإذا كان أغلب الصحفيين قد أكدوا أنه لا يمكن وضع الرسائل المجهولة وحرائق المعابد اليهودية على قدم المساواة. لكن الاكسبريس ومجلة القيم الراهنة لم تؤكدا على ذلك.

في الاكسبريس، عدد ٦ ديسمبر (٢٠٠١)، ملف بقلم إيريك كونان عنوانه " الأرقام السوداء لمعاداة السامية" مع صور لمعابد محترقة. وبدأ المقال الطويل بالمقدمة التالية "منذ أكتوبر (٢٠٠٠) تصاعد بشكل كبير عدد أعمال العنف إزاء اليهود في فرنسا. وأغلب هذه التجاوزات ارتكبت من قبل شباب أبناء المهاجرين العرب-المسلمين، وهي تثير مضايقات، والاكثر خطورة أنها كانت تقابل بالصمت". وتحت صورة المعبد اليهودي بـ

١- في أعقاب ذلك سيكتب بيير لولوش في كتاب "المعادون لليهود" : وهكذا نرى ظهور أشخاص يقدمون أنفسهم كـ "خبراء استراتيجيين" يقولون للطائفة اليهودية بفرنسا إن عليها أن تقلق على أمنها وسعادتها إذا استمرت في مساندة إسرائيل" ص١٦٨. وأقل ما يمكن أن يقال عن هذا الكلام هو إنه تحريف لأقوالي.

Trappes الذى أحرق فى ١٠ أكتوبر (٢٠٠٠) (والذى أثبت التحقيق فيما بعد أنه لم يكن عملا معاديا للسامية وإنما حريق عارض نتج عن حالة السكر التى كان عليها حارس المعبد) أدان الصحفى السياسيين الذين بخشيتهم من أن يضعوا الزيت على النار" يمارسون الصمت على هذه الأعمال.

وهكذا صرح الحاخام الأكبر سيتروك: "عندما يكون فى فرنسا خمسة أو سته ملايين مسلم وستمائة ألف من اليهود فقط، فإنه من الواضح أن الطائفة المسلمة تؤخذ فى الاعتبار بصورة أفضل." وتابعت المقالة: "من الحقيقى أن حادثة جرت مؤخراً فى الحزب الاشتراكى، قد شجعت على هذه الخشية. واقترح باسكال بونيفاس -عضو بالحزب الاشتراكى ومدير معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية - أثناء اجتماع مغلق للجنة الدولية بالحزب تعديل السياسة الرسمية للحزب إزاء إسرائيل، لأنه سيكون من المفيد للحصول فى انتخابات الرئاسة (٢٠٠٢) على أصوات أكبر من الجالية العربية المسلمة".

وكم كانت دهشتى-واشمئزازى- عند قراءة هذه الورقة. لقد شوهوا بصورة خطيرة وجهة نظرى، وجعلونى أقول إنه ينبغى نقد شارون ليس لأنه يمارس سياسة تستحق الإدانة، وانما لأن العرب كانوا أكثر عدداً من اليهود، ناهيك عن أنهم جعلونى مسئولاً عن الاعتداءات المعادية للسامية! أسلوب غير محتمل فى الخلط بين الامور!

لقد أرسلت رداً نشره إيريك كونان فى إسبوع القراء بعنوان محايد إلى حد ما "معاداة للسامية جديدة[1]؟" ربما كان على أن أعبر عن امتنانى لأن

١- ٢٧ ديسمبر (٢٠٠١).

هناك على الأقل عـلامة استـفهام(1) بـالعنوان. فى ٧ ديسمبـر، وبعنوان "التحقيق: لماذا يـشعر يهود فرنسا بالخوف" نشـرت مجلة "القيم الراهنة" ملفاً مسـتلهما من المصادر ذاتهـا. وفى هذا الملف يسرد ميشـيل جوزفينكل أحداث عـام من العنف المعـادى للسامـية. ويصاحـب المقال صورة تـظهر "كتب محترقة بعد الهجوم على المعبد اليهودى. ويبدو أن قطاعاً من أجهزة الإعلام قد تعود على هذا الوضع".

"نحن نشـاهد منذ عـدة سنوات مـعـاداة للسـاميـة فى أوسـاط يسـار متناغم." كما لاحظ المحامى الباريسى فرانسوا لورسا. لقد بدأ ذلك أولاً، كما يرى عالم الاجـتماع جاك تارنيرو "فى يسار اليسـار، من جوزيه بوفيه حتى مناضلى الحق فى الإسكان (DAL)

مـرورا بأنصار البـيـئة... لكنه وصل مـن الآن فصـاعداً إلى الحـزب الاشـتراكى ذاته، المعـروف منذ زمن بعـيـد بأنه موال لإسـرائيل ومـحب للسـاميـة. وقضيـة بونيـفاس فى هذا الشـأن كان لهـا وقع القنبلة. فى ٤ أغسـطس الماضى قام باسكال بونيـفاس، مـدير معـهد العـلاقات الدولـية والاستراتيـجية (IRIS) وهو هيئـة قريبة من الحزب الاشتـراكى(2)، بنشر مقـال فى صحيـفة لوموند مـعنون بـ "رسالة إلى صـديق إسرائيلى". فى الواقع كان المقـال رسالة هجائيـة موالية للفلسطينيين، غـير أن خاتمته تشير

١- فى غضون عـشرة أشهر وضعنى إيريك كونان مـوضع تساؤل أربع مرات على صفحات الاكـسبريس، فى الوقت الذى أعلمته فيـه عبر مكالمة تليفونيـة أنه قد شوه ما أقوله، لأنه ليس من خلال وزن كل طائفة أقمـت نقدى لشارون، وإنما انطلاقاً من عمل هذا الأخـير، فـأجـابنى إيريك كـونان: "نعم: لكن ليس هكذا قـد فسـرت الطائفـة مذكرتك".

٢- إذا لم أكن أخفيت أبداً قرابتى الشخصية للحزب الاشتراكى فإن مواقف المسئولين والباحثين الآخرين بالمعهد كانت كذلك تشكل أكبر تنوع فلسفى وسياسى فيما بينها.

الاهتمـام على نحو خاص: إن الطائفـة اليهودية بمسانـدتها إسرائيل كثـيراً تغامر، كما يقول، بعزل نفسها كثيراً ولاسيما أمام الطائفة المسلمة... نوع ما من التـهديد، وبالنسبة لكثـير من اليهود الفـرنسيين فإن هذا هو مـفتاح الاعتداءات التى تتعرض لها الطائفة منذ أكتوبر الماضى."(١)

وكان علـى أن أقرأ المقال مـرتين حتى أدرك مـغزاه، فـمقالى نـشر فى أغسطس (٢٠٠١)، وكان مفتاح الاعـتداءات المعادية للسامية التى انطلقت فى أكتوبر (٢٠٠٠) ! ولاحظت بدهشة مـا، وعلى مدار يوم واحد يفصل بينهمـا، قامت المجلتان الأسبـوعيتان الـلتان استندتا بصورة واضـحة على الملف ذاته الذى أعده المجلس التمثيلى (كريف)، بإدانتى بشكل خطير. أى نموذج رائع هذا من التحقيق !!

ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد.

فى مجلة آرش عدد أكتوبر-نوفمبر (٢٠٠١)، كرس مايير فاتراتر ثلاث صفحات بشكل كـريم معنونة بـ "دكتور باسكال ومستر بونيـفاس، وجهان لاستراتيجى باريسى".

١- وأضاف المقال "ولم يتـوقف الأمر عند هذا الحد، وإنكتشف بالفـعل أن مقال ٤ اغسطس لم يكن الا النسخـة المخففة من المذكرة السرية للمـؤلف ذاته والموجهة إلى قادة الحزب الاشـتراكى. فالأقوال فى هذا النص كـانت قاطعة. ويؤكـد بونيفاس أن سيـاسة التـوازن فى الشـرق الأوسـط والتى "تضع على قـدم المسـاواة الحكـومـة الإسـرائيليـة والفلسطينيين" ستعتبرها الطـائفة العربية المسلمة سياسة غير منصفة، وبالتـالى ستبتعد فى الانتخابات القـادمة عن ليونيل جوسيـان والحزب الاشتراكى. والنتيجـة: " هل تستحق مساندة شارون أن نخسر انتخابات (٢٠٠٢)؟ ولم يكن للمرء أن يحكم مسبقا على ردود أفعال اليهود الفرنسيين حينئذ. كان البعض منهم يؤكد أن تأثير الإسلام المتطرف لا يتوقف عن التصاعـد فى فرنسا وأوروبا وبالتالى ليس لهم من خـلاص إلا فى إسرائيل والبعض الآخر كان يدعو فى آن إلى تعبئة كل المجـتمع الفرنسى فى مواجهة الخطر الإسلامى وفى مواجهة التحول إلى اليمين لدى معظم أفراد طائفتها، فى (٢٠٠٢) وفيما بعد".

كتب ماير فاتراتر مشيراً إلى مقالى فى ٤ أغسطس[1]: "يقترح السيد بونيفاس، بنية خبيثة، على قادة حزبه إضفاء الطابع الطائفى على الحياة السياسية الفرنسية، أى أنه ينبغى على قادة هذا البلد أن يقيموا كشف حساب للطوائف المقيمة على الأراضى الفرنسية، ثم يشرعوا بعد ذلك فى أخذ مواقفهم من القضايا الكبرى الراهنة بالاستناد إلى ما تشكله هذه الطوائف من وزن ومن مصالح مفترضة. (لقد كتبت عكس ذلك تماما.) ومحاولة من هذا القبيل ستكون متناقضة مع الطابع العالمى الجمهورى الكامن فى قلب الوعى السياسى لغالبية المواطنين الفرنسيين، سواء كانوا من اليهود أم لا." ويمكن أن يرى المرء أنه من المفارقة، على الأقل، أن تكون مجلة آرش هى التى تشكو فرض الطابع الطائفى على الحياة السياسية الفرنسية! وإذا كانت هذه "النية الخبيثة" موجودة فإنه ينبغى رؤيتها أكثر لدى ماير فاتراتر. ومن المفارقة أن أولئك الذين أرادوا دائما دفع السياسة الفرنسية باتجاه يخدم مصالح إسرائيل يشعرون فجأة بالقلق من إضفاء الطابع الطائفى على الحياة السياسية الفرنسية.

وفى أعقاب نشر الورقة بمجلة آرش أرسلت رداً. وأرسل سيرج فاينبرج رسالة احتجاج أيضا ونشرتها المجلة فى عدد يناير-فبراير (٢٠٠٢). وبدأت المجلة هكذا "سنجد هنا خطابين، وكذلك رد ماير فانتراتر عليهما. وكان مكان هذه الرسائل زاوية بريد القراء، لكن نظراً للأهمية التى أخذها هذا الحدث وجدنا أنه من المناسب أكثر إدراجهما فى الملف ذاته."

ويحمل هذا الملف عنوان "ملف العداء للسامية" وهو عنوان أكثر من صريح. وهذه طريقة خاصة لتقديم الردود التى لا تستجيب فى شيئ إلى معايير الموضوعية التى ينبغى أن تكون القاعدة المطلقة فى كل المناقشات

١- الذى يحتوى كما يرى "وصفا للصراع الإسرائيلى-الفلسطينى لا يستحق سوى صفر لأى طالب فى السنة الأولى من دراسة العلوم السياسية".

الجـديرة بهـذا الاسم[١] .لقد قـيل لى أيضـا أننى كنت بصـورة منتظمـة موضوعاً للإشارة والشتائم بإذاعـات الطوائف. كما شوهت الكتب المختلفة عن العداء الجديد للسامية أقوالى وفكرى[٢]. وسـيبتعد نقولا فييل، بدون حياء، عن القـواعد الأخلاقيـة لجريدة لوموند التى يعمل بهـا، مكرسا لى فصلا بعنوان: "من روجيه جارودى إلى باسكال بونيفاس". [٣]

وبطريقة تريد أن تكون ماهرة، نظراً لغياب الأمانة الفكرية، يسلم بأننى طورت "إيماءات قريبـة بدرجة كافية من البـلاغة الجارودية، بالنسبـة لمسألة نفى غـرف الغاز على الأقل." إنه تـأرجح مثـير للفـضول لأن جـارودى يتطابق تماما مع الذين يقـولون بمسألة نفى ما تعرض له اليـهود. ومع مرور

١- مجلة آرش عدد ٥٢٧ - ٥٢٨، ص٥٩.

٢- رافائيل دراى، "تحت رمز صهيـون" ميشالون، ص٢١٩، وجى كونو بوتسكى "الخطأ على اليهود" مـرجع سبق ذكره صفحات ٩،٢٥،٢٦،١٥١،١٥٢. وجـان بيير اللالى "الأشكال الجديدة للعـداء للسامية" مرجع سـبق ذكره، كرس لى فصـلاً كاملاً بعنوان "ستـه ملايين مسلم وسـتمائة ألف يهـودى": "نشر الباحث باسكال بونيـفاس مذكرة داخلية مـوجهة للحزب الاشتراكى، ويقـترح فيها التخاطب بود أكـثر مع الجالية العربية-المسلمـة، باعتبارها أكثر جذبا وأكـثر فائدة على الصعيد الانتـخابى من الطائفة اليهودية، أثار جدلاً وحرك المعادلات الأكثر تنوعا من اليمين كما من اليسار".

وكما نرى لقد شوهت أقوالى بصـورة كبيرة... ويتابع المؤلف "ما الذى يجب أن نسـتخلصـه من ذلك؟ هل نستـخلص أن هناك عـلاقة بين هذه الملاحظة الديموغـرافيـة والأحداث المقلقة التى نشاهدها هذه الأيام؟ وذهب جان بيير اللالى مسلحا بهذا السؤال إلى استجواب شـخصيات عديدة مع تساؤل يبدو على الشكل التـالى : "هل تعتقد أن باسكال بونيفاس كان مصيبا فى الدعوة إلى تفضيل الطائفة المسلمة على الطائفة اليهودية لأسباب انتـخابية؟ " وبطريقة ليس فيـها ما يدهش كثيراً أجـاب كل واحد منهم بالنفى على هذا السؤال (ص١٠٩-١١٨). بالطبع لم يتصل بى أبداً ليطلب منى تفسيراً. بدون شك خشية أن تأتى تفسيراتى على نقيض الفكرة المسبقة التى صنعوها.

٣- تاريخ شخصى للعداء للسامية، روبير لافون، (٢٠٠٣) ص١٣٤-١٣٩.

الوقت كـانت توجه لى، بـالإضافـة إلى ذلك، الإدانة فى منابر مـختلفـة بالصحافة العامة. وكان اتهـامى بإضفاء الطابع الطائفـــــى على السياسة الفرنسية يتـواكب مع اتهامى بالعداء للسامية. وكـان يعاب على، وهو أمر يستـحق الإدانة لو كان صحيـحـــــا، أننى قلت: "انتبــــــهوا هناك عـدد من المسلمين أكـثـر من اليـهـود، ولنتـرك اليهـود وننحـــــاز إلى المسلمين".

وسيــعود إيلى بارنافى، رغم أنه يعرف حـقيقـة هذه المســـألة، ثلاث مـرات حول هذه القـضـية فى كـتـابه[1]، وفى مـقابلتـه مع الفـيجـارو ماجازين[2].

لقد أدهشـنى هذا التغيـير فى الرؤية، وهذه الملاحـقه الجـماعـية وهذا الخطاب المنسق. كذلك أردت إثارة الانتباه حول مـخاطر نقص الشعبية التى قد تخيم على يهـود فرنسا، إذا كان ممثلوهم لم يحـذروا من الظهور بمظهر المحامين بلا شروط عن الحكومة الإسرائيلية.

أردت ببساطة إبداء ملاحظة، أنه إذا كانت الطـــــائفة اليهودية (والتى أشدد على أن العـديد من أفرادها قد رفضــــوا سياسة القـمع الإسرائيلى) تعـتـمـد على ثقلهـا الانتـخـــابى حـتى لا تسـمح بمســاءلة الحكومـة الإســــــرائيليــة، وهو تعبـير أقـر أنه كان سـيئ الحظ، فإنها قـد تكون الخاسرة فى النهاية، لأن الجالية العربية والمسلمة فى هذه الحالة ستسعى إلى الدخول بثقلها أيضا.

كانت إذن مـلاحظة وصرخـة تحذير، ولم تـكن دعوة إلى ذلك، كـما حاول الـبعض بسـوء نية أن يعـيب على. لقد قـمت على العكس، بإدانة

١- إيلى بارنافى، فرنسا وإسرائيل مرجع سبق ذكره ص٧٠, ٨٠, ١٥٠ .

٢- ٢٦ أكتوبر (٢٠٠٢).

مخاطرة إضفاء الطابع الطائفى على السياسة الخارجية الفرنسية. وقلت ذلك بشأن تصويت البرلمان على مسألة إبادة الأرمن[1].

لهذا كتبت فى مذكرتى للحزب الاشتراكى "سيكون إذن من الأفضل لكل جماعة احترام المبادئ العالمية، وليس الوزن الذى تتمتع به كل طائفة".

والواقع أننى وضعت إصبعى على شيئ عادى وهام فى آن واحد. لقد مارس الموالون لإسرائيل، ولفترة طويلة نوعاً من الردع من جانب واحد على الطبقة السياسية الفرنسية. وكان هناك دائما لوبى موال للعرب فى فرنسا إلا أنه لم يكن منظماً على الصعيد الأنتخابى ولم يكن مهتماً بالمسألة الفلسطينية.

لقد وضعت غلاة الموالين لإسرائيل فى تناقض لا يمكن تجاوزه بإطلاقى صرخة تحذير ضد إضفاء الطابع الطائفى على السياسة الفرنسية والتحذير من تنظيم صوت انتخابى عربي. فلم يعد فى إمكانهم متابعتى على صعيد المبادئ العالمية لأن سياسة شارون كانت نقيضا لها.

وبرغم ذلك، وفى الوقت ذاته، كان تهديدهم بتصويت عقابى، فى حالة ابتعاد المنتخبين عن مساندة شارون، يمكن أن ينقلب ضدهم. كانوا إذن فى مأزق. لقد أوضحت مذكرتى أن الملك سيكون عاريا عما قريب، وأن ورقة التصويت الطائفى يمكن أن تنتهى إلى غير صالحهم.

١- هل ينبغى أن يكون لفرنسا سياسة خارجية قومية أم سياسة للطوائف التى تقيم على أراضيها؟ هل ينبغى أن تعتمد سياستنا فى الشرق الأوسط على وزن الطائفة اليهودية والعربية، أم أن لفرنسا رسالة عالمية عليها أن تؤديها، وقيما جوهرية عليها أن تعززها؟ ألا توجد مخاطرة فى تحويل الصراع السياسى بالشرق الأوسط إلى صراع إثنى فى فرنسا وغيرها؟ إذا أرادت السياسة الخارجية الفرنسية أن تظل قوة يعتد بها فى العالم، فإن ذلك لا يمكن أن يحدث إذا كانت هذه السياسة مجموع حاصل مصالحها الخاصة" الفيجارو ٢٦ يناير (٢٠٠١) "دبلوماسية تحت التأثير".

وكنت فى المقابل قـد شددت على نوايا أولئك الذين يضعـون البواعث الانتخـابية فى المقدمة، حـتى لا يكون هناك تحرك، وأن الفارق الكبـير بين المبادئ وتصور الحزب الاشتـراكى على أنه موال لإسرائيل، يمكن أن يكلفه كـثيـراً، ليس فقط عـند أبناء المهاجـرين، وإنما لدى الشـباب بشكل عـام والطلاب على نحو خاص. لكن الذين اتهمونى لم يتوقفوا إلا عند إشارتى لأبناء المهاجرين متناسين الشبـاب والطلاب. وكان هذا يسمح باللجوء إلى وضعية الضحية، وأن مساندة إسرائيل يتم التخلى عنها لأن عدد اليهود أقل من العرب فى فرنسا، وليس لأن سياسة إسرائيل كانت غير محتملة.

وتوضح هذه الرؤية لطائفـة ضد أخـرى مـدى الانغلاق العـقلى للذين يعـبرون عنهـا. ونسيـان- أو إسدال سـتار من الصـمت عن عمـد - أن الفرنسيين فى غـالبيتهم يرون أن إسـرائيل لا تتصرف بصورة صحـيحة مع الفلسطينيين.

غـير أننى أعـرف أن الأذى قد حـدث، ولأننى أعـارض أولئك الذين يريدون مساندة إسرائيل، مهما فعلت، فقد تمت عملية أبلستى.

وكان عدد كبـير من أصدقائى اليهود ينقلون لى ما يسـمعونه عنى. لقد صرت شـاعر الصوت الإسـلامى، أنا الذى لست عربيا ولا مـسلما، ولم أشارك أبداً فى أى انتخابات من هذا القبيل. بالنسبة لغلاة الموالين لإسرائيل كان لهذا التفسير مزية أخرى. كان يسمح مرة أخرى بتغييب ما يحدث حقا فى الواقع. هل كان ينبغى أن أحدد أننى أخشى بالقـدر نفسه تنظيم قواعد طوائف عرب فرنـسا بغرض التأثير علـى السياسة الخارجـية لبلدنا؟ إن هذا الأمر قد يثير عواصف بالنسبة للجمـهورية ولوضعية فرنسا فى العالم، غير أن غلاة الموالين لإسرائيل كانوا قد فتحوا صندوق العجائب.

ونرى هنا دعامـة تقليدية للتشـوية الإعلامى. فتكرار الكذب باستـمرار

وبقناعة يحوله فى النهاية إلى حـقائق. والذين تصلهم أصداء ذلك ينشرونه بدورهم بدون أن يتحققوا. وفى الغـالب كان يقال لى : "لم أقرأ مذكرتك لكنى سـمعت عنها أحـاديث"، "إن سمـعتك تسبـقك". وهؤلاء الناس بشكل عام ذوو نوايا حسنة، وأحيانا تكون الرغبة فى التزوير مؤكدة.

هنا أو هناك يتحـدثون عن " تقرير بونيفاس" الذى يقـترح "التخلى" عن اليهود لأن العرب أكثر عدداً منهم.

ومع الأسف ألاحظ أن ما وصفـته وما خشيت منه وما شـخصته (ولم أدع إليه أبداً) هو فـى طريقه للتحـقق مع ظهور تشنج طائفى يشـكل حلقة مفرغة ومقوضة للجمهورية. صحيح ليست للأبواق المنذرة بالأهوال صورة حسنة، لكن ليس من الإنصاف أن نـحملها مسئوليـة الأحداث التى كانت تحذر منها.

وفى الفترة ما بين الجولة الأولى والثانية مـن انتخابات الرئاسة الفرنسية جاءنى صحـفى أمريكى أثناء مروره بباريس، كريستـوفر كالدويل، وطلب مقابلة معى عن العلاقة بين السياسة الخارجية وانتخابات الرئاسة، وكان يمثل "الويكلى إسـتاندار" وهى صـحيفـة كبـيرة تحـمل توجهات "المحـافظون الجدد". واستـقبلته ودارت المقـابلة بشكل رئيسى حول ما كـتبته فـى شهر أغسطس (٢٠٠١)، وجرت المقابلة بشكل ودى تماما حتى مع اندهاشى من أن قضـية العداء للسامـية كانت القـضية الوحيـدة التى طرحها طوال فـترة المقابلة، وكم كانت دهشتى مع اكتشاف المقابلة المعنية !

وماذا كان يريد كالدويل من إجراء المقابلة معى ؟ أن يرى ملصقات هتلر معلقـة على جدران مكتبى؟ أن أنطلق فـى سجال معـاد للساميـة؟ وكانت مقالته التى ظهـرت بعنوان "حرية، مساواة، كراهية اليهـود" تصور فرنسا وقد لحقهـا الخراب تحت تهور الشباب العربى المهاجـر. وتتحدث عن نفوذ

كبير لابن لادن فى الضواحى الباريسية. وكانت الفقرة المتعلقة بى فى مقالته معنونه ببساطة بـــ "بونى-فاشية" بدلاً من بونيفاس.

وفى اليوم التالى للجولة الأولى من الانتخابات الرئاسية نشرت افتتاحية على موقع المجمع الدينى المركزى[1] ، تقـــدم تفسـيراً لـهزيمة ليـونيل جوسبان وصـعود جان مارى لوبن فى الجوله الثانيـة من الانتخابات. كتب جان-فـرانسوا إسـتروف تحت عنوان "يوميـات كارثة غـير معلـن عنها":
"نحن لا نعفى المسئولية عن المسئولين غير الواعين الذين مهدوا الطريق أمام لوبن فى فـرنسا، وهم أكـثر مما نتـوقع. وكـمواطنين فـرنسيين، كـيهـود وكأصدقاء لإسـرائيل، نحن معينـــون بصورة ثلاثية الأبعـاد. عندما يدعو باسكال بونيـفاس الحـزب الاشـــتراكى إلى اتخـاذ مسـافة مع إسـرائيل، وتهميش الطائفة اليهودية بفرنسـا، حتى لا يخسر أصوات المهاجرين العرب فهـو يقول، فيمـا هو أساسى، أن طابع العالم الـثالث الكاريكاتورى الذى يسم وزارة الخارجـية، وأنصار البـيئة واليسـار المتطرف يصاحبـه بالضرورة انعدام التـعاطف مع ضحـايا الاعتداءات المعادية للـسامية فى فـرنسا. وفى المظاهرات المنظمة من قبل MRAP

(المـــراب) و FIDH (الفيدراليـة الدولية لحقوق الانسـان) كانت هناك نقابات وأحزاب من الـيسار واليسار المتطرف، منـذ أكتوبر (٢٠٠٠)، وهم يسخرون علنا من إسرائيل فى مقدمة الصفوف ويهتفون فى نهاية المسيرات، "الموت لليهود". وكـان يتبع هذه المظاهرات التحول إلى اعتـداءات معادية للساميـة ضد المعابد والمدارس والسيـارات اليهودية، وكذلك ضـد الشباب اليـهودى أثناء ممارسـة الرياضـة ومارة "يمكـن التحـــــقق منهم". وهنا نكتـشف أين ذهبت عدة مـئات الآلاف مـن الأصوات التى سـقطـت من

١- www.consistoire,org

ليونيل جوسبان، وحرمت فرنسا من جوله ثانية ديمقراطية، كان يتمناها الغالبية العظمى من الفرنسيين.»

ومن جانبه أرسل لوران أزولاى، وهو أحد المسئولين بالفيدرالية الاشتراكية، رسالة دورية [1] يلقى فيها الضوء على الهزيمة المفاجئة لليونيل جوسبان فى الجولة الاولى، ويحدد المسئول وكان أنا ! كنت مذنبا لأننى نشرت مقالات ليس فقط فى أجهزة الإعلام العامة، وانما أيضا، وهو قمة الإثارة، «فى صحف الطائفة اليهودية». وبدون شك ليست هناك جدوى من الاشارة إلى لوران أزولاى، بأننى لم أفعل سوى استخدام حق الرد الشرعى، عندما وضعت موضع تساؤل. وأضاف «فهناك مائة وتسعون ألفا من الأصوات التى لم تصوت لصالح ليونيل جوسبان حتى يصعد للجولة الثانية، والتى كان قسم كبير منها من أصوات الطائفة اليهودية، التى وجهت مساندتها بصورة جماعية إلى آلان مادلان... وهو أحد المرشحين النادرين الذين أخذوا موقفا صريحا وشجاعاً حول الصراع فى الشرق الأوسط.. إذن الصوت الانتخابى اليهودى غير موجود... إلا عندما نستثيره.»

وبالإضافة إلى واقع أن ذلك أعطانى أهمية كبيرة بعزو هزيمة ليونيل جوسبان لى، يمكن للمرء أن يندهش من التأكيدات التى تقول يوما إثر يوم، أنه لا يوجد صوت انتخابى يهودى يفسر هزيمة أحد المرشحين الرئيسيين من خلال صوت عقابى من قبل أبناء الطائفة، أنها بديهية طريفة عندما نقول: «مادة I، الصوت الانتخابى اليهودى غير موجود. مادة ٢ الصوت اليهودى جعل جوسبان يخسر.»

١- معنونة «لوبن ينبغى أن يشكر بونيفاس». ومع أننى لم أشعر بفرح بما حققه لوبن فى الجولة الأولى، على نقيض موقف رئيس الـ كريف والذى أشك أن يكون لوران أوزلاى قد وجه له أدنى نقد.

أنا لا أعتـقد بأن صـوتا يهوديا أيا كـان قد دفع إلى فـشل جوسـبان. بالمقابل فإن تصور الحزب الاشـتراكى على أنه موال لإسرائيل قد لعب دوره فى فقدان أصـوات ذهبت إلى جاك شيراك. وهناك صورتان مـذهلتان هما بالتـأكيد صـورة جاك شـيراك وهو يتـعارك مع العـساكر الإسـرائيليين فى القدس، وصورة جوسـبان وهو يتعرض للرمى بالحجارة فى ساحـة جامعة بيرزيت. فى العمق اعتقد أن الرجلين يشتركان فى التحليل ذاته، أى الأمن لإسرائيل وإنشاء دولة فـلسطينية قابلة للحيـاة. وقد اقترح ليونيل جـوسبان حتى إرسال قوة للوقوف بين المتنازعين، وذلك أثناء حملته الانتخابية. لكن الصور كانت أكثـر تأثيراً من المقترحات، فالتـصورات يمكن أن تتغلب على الواقع. وأنا أتمسك بأن كثيرا من الشباب وليس فقط من أبناء المهاجرين[1] لم يصوتوا لصالح جوسبان لأنهم يعتبرونه - سواء عن صواب أم عن خطأ - من حزب مـوال لإسرائيل فى لحظة تبدو فيـها سياسـة هذه الدولة بشأن الفلسطينيين غير مقبولة أكثر فأكثر.

كنت إذن الرجل الذى ينبغـى محاربته، واتسع نطاق الـقضية بعـد نشر مقابله معى فى صحيفـة سويسرية هى صحيفة الزمن Le Temps فـى ١١ سبتمبر.

وستفتح الصحفية السابقة الـيزابيث شملا الملاحقة فى موقعها "proche. orient. infO" مـتحـدثة عنى بوصفى الملهـم لليسـار الفرنسى، وبوصـفى

١- هكذا صرح برتران كونتا، وهو مغنى فرقة لها شعـبية كبيرة اسمها نوار ديزير، عشية الجولة الأولى: "لقد شعرت باشمئزاز من تصريحات شتراوس كاهن الذى قال إن جوزيه بوفيه (الذى تم طرده من رام الله من قبل العسـاكر الإسرائيليين منذ فترة قليلة، لم يعد يعرف ماذا عليه أن يفعل، حتى يجذب عـدسات الكاميرا نحوه، ولا شئ أكثر من ذلك يدفعنى إلى الامتناع عن المشاركة فى الجولة الثانية من الانتخابات" لوموند ٢٠ ابريل (٢٠٠٠) "فرقة نوار ديزير حملتها رياح الاضطرابات السياسية".

مستشـاراً لليونيل جوسبان والحزب الاشتـراكى (هكذا !). وجعلتنى أقول أننى أمـاثل بين إسرائيل والديكـتاتوريات الشـرق أوسطية، وأننى وضـعت إسرائيل ضمن "محور الشـر" الذى حدده جورج بوش الابن. وسرعان ما ستنطلق حـملة مكثفة، ولن يكـون الحديث عن مقابـلتى مع جريدة الزمن السويسرية، وإنما التقديم الذى قدمته اليزابيث شملا لذلك.

وكان كل هذا مناقضا لواقع الأمور. فمـحاولتى كانت إظهار عدم كفاءة مفهوم "محور الشر". وتساءلت إذا كان المعيار هو امتلاك الأسلحة النووية فإن جورج بوش حينئذ قد نسى دولة إسرائيل. لم أكن أريد وضع إسرائيل فى محور الشر حيث أننى كنت أفند صلاحية مثل هذا المفهوم.

وسيذهب بعض الاشـتراكيين إلى حد توقيع بيان ضـدى. ومرة أخرى ينبغى تقدير طبيعة هذا الأسلوب المتمثل فى ألا يكون هناك نقاش مباشر مع شخص نخـتلف معه، وإنما تمرير نشـرة دورية هجائية ضده. لقـد حذرنى صديق اشتراكى يهودى رفض التوقـيع على البيان ضدى. وانتهى الأمر لأن قصة التوقيع على بيان أخذت توجها طائفيا واضحا(١).

غـير أن أعـضاء مـجلس إدارة مـعهـد العـلاقات الدوليـة، هم الذين سيتعرضون لهجوم من الطلبات التى تريد أن يعلن المعهد رفضه لى.

وقام بعض المسئـولين الرسميين بالطائفة، بتقـديم طلبات لوزراء الدفاع والخارجية تطالب بإلغـاء عقود البحث الموقعة مع معهـد العلاقات الدولية. وفى أكتوبر (٢٠٠٢) سيشرعـون فى حملة لدى مجلس إدارة المعهد IRIS بغرض عزلى من منصبى. وفى ٧ نوفمبر عـقد مجلس الإدارة اجتماعاً مع

١- وهم أنفسهم الذين أخطروا مجلة الاكسبـريس حيث سيقوم إيريك كونان بنشر ذلك، وكـذلك اليـزابيث شمـلا التى، بعـد أن رفـضت لمدة طويلة إدخـال حق الرد، أعلمتنى أنها تنوى نشر الرد مع البيان الموقع ضدى، لكنها لم تفعل شيئاً.

جدول أعمال "إدارة المعهد" وتحت هذه التسمية المحايدة كان إقصائى متوقعاً حيث إن تصريحاتى، كما يرى البعض، قد تضع استمرار المعهد فى خطر.

وتلقيت قبل ذلك رسالة من باتريك كارى عضو مجلس إدارة المعهد يعبر لى عن اختلافه الكبير معى، وبالنسبة له فأنا قد أخطأت فى ادعائى أن العالم لم يتغير منذ ١١ سبتمبر. وكان يعيب على أيضاً، على نقيض موقفه، بأننى "لم أقبل نظرية محور الشر". وأخيراً أننى أخطأت، كما يقول، لأننى وضعت إسرائيل فى محور الشر. ويخلص إلى أنه سيستقيل من مجلس الإدارة إلا إذا تخليت عن وظائفى. فلنترك جانباً التناقضات المتمثلة فى انتقادى فى آن واحد لأننى لم أقبل نظرية محور الشر، ولأننى فى الوقت ذاته أضم إسرائيل إلى محور الشر. ولنترك جانبا أيضا الدهشة عندما نرى إنسانا ناضجاً وموهوبا عقليا، وكان مفتشا ماليا، ورئيسا لبنك ومديراً لإدارة وزارة الدفاع من (١٩٨٤) إلى (١٩٨٦)، يمكن أن يفكر بمثل هذه الطريقة البسيطة. المشكلة الأكثر خطورة والتى فرضت نفسها، هى مشكلة حرية التعبير لدى الباحثين، لأن القضية، أبعد من حالتى، أن أغلب الباحثين كانوا يستشعرون أنهم هم المستهدفون. فهل كان على الباحثين قبل أن يعبروا عن أنفسهم أن يتحققوا عما إذا كانوا على اختلاف مع هذا العضو أو ذاك من أعضاء مجلس الإدارة؟

وانطلاقا من أن هذا الأخير مكون وفق مبدأ التنوع فإن الإجابة على التساؤل تكون مستحيلة. البعض خضع للضغوط والبعض الآخر استاء من هذا النمط من التعامل مع الباحثين وجددوا ثقتهم بى. وجعلوا من قضيتى قضية مبدأ من أجل الدفاع عن حرية الباحثين فى التعبير طالما يحترمون قانون الجمهورية.

ويوضح هذا الأمر، على أية حال، أن خلف التأكيد النظرى على الحق فى نقد إسرائيل، فإن الممارسة العملية لهذا الحق تكشف عن مطالبة بحذف قروض لمركز البحث الذى تديره، بل وحتى المطالبة بإقالتك من منصبك كمدير للمركز. بالطبع إذا كنت انتقدت السلطة الفلسطينية لم يكن شئ من هذا ليحدث. وكذلك لو كان الأمر يتعلق بأى حكومة أخرى. لقد انتقدت فى (١٩٩٥) التجارب النووية الفرنسية بدون أن اتعرض لأى انتقام أو تهديد بالانتقام.

وإذا كان الأمر قد وصل فى فرنسا اليوم إلى المطالبة بفصل مدير مركز أبحاث، لأنه أصدر حكما سلبياً على السياسة الحالية لحكومة إسرائيل، فإن ذلك ينبغى أن يكون باعثا للتأمل لدى كل منا. لأنه بالمقابل لم يكن هناك حتى الادعاء الكاذب المستخدم بشأن مذكرتى لاتهامى بأننى استهدفت بالهجوم الشعب اليهودى فى فرنسا.

ينبغى بالتأكيد تجنب البارانويا، ولن أسقط فى فخ الاعتقاد، تبعا لذلك، أن مواقفى هى التى جعلت بعض مشروعاتى تفشل. ومع ذلك فإن البعض خوفا من الاتهام بالتأمين والموافقة على معاداتى للسامية المتخيلة قد فضلوا الامتناع عن المشاركة بمؤسساتهم أو بالمشاركة مع اسمى. آخرون قرروا، عن اقتناع، معاقبتى أو معاقبة المعهد الذى أديره باستخدام المسئوليات التى يحتلونها فى مؤسسات لا علاقة لها البتة مع هذه القضية المثارة. واستخدموا نفوذهم لأغراض طائفية.

أعرف أن هناك أشخاصاً يكرهوننى بدون أن يعرفونى. والأخطر أن البعض منهم من ذوى النوايا الحسنة، لأن ما يعرفونه عنى هو الأقوال المشوهة وليس مواقفى الحقيقية. وأمام هذا الهجوم المتواصل انتابتنى رغبة فى ألا أتحدث بعد اليوم عن هذا الموضوع، فضلا عن أن بعض أصدقائى

نصحونى بذلك بغرض حمايتى. لكن بعد تردد فترة طويلة قررت ألا أصمت، لأنه لا يوجد أى سبب يجعلنى لا أتناول هذه الموضوعات مع اختلافات لكن بحرية وجدية. ولا ينبغى أن يكون الحديث عن الشرق الأوسط مصاغاً صياغة درامية، عليه أن يخرج من نطاق الشتائم والتهديدات والأبلسة والعودة إلى إطار الحوار الديمقراطى. إنه من الهام جداً ألا نخضع أمام الابتزازت التى تهدف إلى خنق هذا الحوار الديمقراطى.

الخاتمة

فى المستقبل ستتعايش الدولتان: الإسرائيلية والفلسطينية فى سلام فى الشرق الأوسط. وسيرى النور عاجلاً أم آجلا ما كان يتم التفاوض عليه فى طابا فى الفترة ١٨ إلى ٢٨ يناير (٢٠٠١) قبل انتخاب شارون. ليس هناك حل عسكرى لهذا الصراع، فقط الحل السياسى هو الذى يمكن أن يضع حداً لهذا الصراع. والذين يحلمون بإلقاء اليهود فى البحر، أو يحلمون بطرد الفلسطينيين إلى الأردن أو سوريا أو لبنان أو أى مكان آخر، يسيرون فى الطريق الخاطئ. فى اللحظة الراهنة، ومع الأسف، لم يعمل المتنازعون على وضع الحل السلمى موضع التنفيذ، والجماعة الدولية عاجزة عن فرض تسوية كما فعلت أحيانا فى صراعات أخرى كانت قد دامت طويلاً.

فى نهاية المطاف السلام أمر حتمى. والمشكلة الوحيدة هى معرفة كم من القتلى سيقعون من الآن وحتى لحظة تحقيق السلام. اليوم نحن نعيش مأزقاً.

ينبغى على فرنسا بالتأكيد الاستمرار فى عمل ما فى وسعها على الصعيد الدولى لتعزيز فرص التسوية. يمكن أن يكون لكل فرنسى رأيه المختلف فيما يتعلق بالحلول التى ينبغى اتباعها فى الشرق الأوسط، لكن هناك تحدٍ آخر علينا أن ننهض به على الصعيد الداخلى، وهو منع هذه الحرب من أن تنتقل كل يوم أكثر إلى أراضينا.

ينبغى التأكيد أولاً على أن النقاشات مسموح بها للجميع ضمن نطاق الجمهورية، وأن أى عنف لا ينبغى التسامح معه. وأن الاعتداءات المعادية للسامية وغير المحتملة ينبغى أن يكون أمر إدانتها هو مسئولية الجميع. وأن العنف الذى يمارس ضد أولئك الذين ينتقدون الحكومة الإسرائيلية الحالية لم يعد مقبولاً كذلك.

وينبغى، على وجه التحديد، تجنب محاولات إضفاء الطابع الطائفى على الحياة السياسية الفرنسية. وأن يكون هناك وجود لطوائف وأنها قادرة على تنظيم نفسها، لهو واقع يغنى فرنسا باختلافاتها. غير أن فرنسا لا يمكن أن تحدد سياستها الخارجية انطلاقاً من ضغط طوائفها أو ثقل وزنها. والطريقة الوحيدة للخروج من هذا الفخ هى احترام المبادئ العالمية. ومع الأسف فإن علينا الاعتراف بأن الحكومة الإسرائيلية لا تطبق هذه المبادئ العالمية.

لا يمكن فى وقت واحد أن نشعر بالأسف نتيجة تصدير صراع الشرق الأوسط إلى أرضنا، وأن نجعل من التضامن مع الحكومة الإسرائيلية أولوية مطلقة. لا يمكن أن نقلق من صعوبات الحديث فى بعض المؤسسات التعليمية عن الإبادة النازية، وأن نصنع فى الوقت ذاته هذه الصعوبات فى كل مرة تتعرض فيها الحكومة الإسرائيلية إلى النقد. فغالبية الفرنسيين يرفضون العداء للسامية، لكن غالبية مماثلة منهم يدينون السياسة الحالية لحكومة شارون. وأمام واقع الطابع المثير لهذه السياسة لا ينبغى أن نندهش من جراء ذلك.

إن الحوار والنقاش بين مختلف الآراء أمر مشروع. ينبغى أن يتم فى وضح النهار، ولا يتوافق مع القدح وحملات التشهير ودعوات الحقد والتشوية المتعمد لأولئك الذين يتم الاختلاف معهم. إنه تراجع خطير

يؤمن عليه، مـع الأسف، بعض المثقفين الذى ينبـغى أن يكون دورهم مع ذلك هو تفضيل الحوار وليس القدح[1].

ولأن إسرائيل قد استنفـذت كثيراً من مخزون التـعاطف الذى تتمتع به فى فـرنسا، فإن أنـصارها بصـورة مطلقة، والواعين إلى أنه لم يعـد ممكنا اللعب على العـواطف أو القناعـات، يستـخدمـون منطق عـلاقات القـوة والترهيب، ويصدرون فتاوى ضد الذين يعـبرون عن اختلافهم مع الحكومة الإسرائيليـة. ولا يمكن لهذه الاستراتيـجية إلا أن تكون مكلفـة على الأمد القصير وكارثية على الأمد البـعيد. كارثية لأن الظهور بمظهر المدافع فى كل الظروف عن حكومة تنتهك حقوق الإنسـان، ليس الطريق الأفضل لتحقيق الشعبيـة. وأيضا كارثية لإسرائيل، لأنها تشجع على اتباع سـياسة الصمت السيـاسى وازاء حكومتهـا. والذين يقولون من حيث المبـدأ إنهم مع إنشاء دولة فلسطينيـة، ولا نجدهم أبداً مـنذ ثلاث سنوات يتجـرأون على توجيـه أدنى نقد لشارون، هم فى الواقع ليسوا فقط منافقين، وإنما لا يساعدون فى شيئ مـعسكر السـلام فى إسرائيل. وإذا كانت الحكومـة الإسرائيليـة لديها القناعة بأنها يمكنها أن تُخضع الفلسطينيين إلى أى شيئ، وبتكلفة محتملة، فإنه من واجب أصدقائها أن يحذروها من مخاطر مثل هذا الوهم.

وعندما يأتى السـلام أخيراً، فإن الذين كانوا يؤمـنون ويساندون شارون بصـورة مطلقة، لن يكون لهـم أى دور فى مجئ هذا السـلام، وانما يكون لهم على العكس تأخير استحقاقات السلام.

سيكون دورهم فى هذه الفترة تصدير هذا الصـراع إلى فرنسا، والقبول الضمنى بأن من يحدد أجندة هذه القضايا هم الأكثر راديكالية.

١- انظر ايريك حزان "مثـقفون مفسـدون" لوموند ٢٢ يناير (٢٠٠٣)، وفى ٢٦ يناير (٢٠٠٣) وردا على هذا المقال كـتب الان فينكلكروت متهمـاً ايريك حزان بالعداء للسـامية

إن التحدى واضح وهام، وهو تحدى حرية الحوار الديمقراطى فى بلدنا.

ومع إعادة قراءة المذكرة التى كتبتها قبل عامين، والتى سببت لى كثيراً من المرارات، الاحظ أن المخاوف التى عبرت عنها، قد تحققت بصورة مزعجة على نطاق كبير. كما أصبحت مواقف المسئولين الرسميين للطائفة اليهودية ومثقفيها العضويين أكثر تشددا مع ازدياد تدهور الأوضاع فى الشرق- الاوسط. وبصورة آلية صار الدعم الأكثر قوة لسياسة ينظر لها غالبية الفرنسيين بأنها غير مقبولة أكثر فأكثر، مصدرا لانعدام التعاطف والشعبية. ومرة أخرى أقول إن من حق أى شخص أن يساند شارون دون أن يتعرض لتهديد أو عقاب أو أعمال عنف. لكن لا يمكن أن يفعل المرء ذلك ويعتقد أنه سيكون مصدراً للتقدير والتعاطف. إن قادة اتحاد الطلاب اليهود بفرنسا مستاءون من أن : "لم يعد شيئا مريحا أن تكون يهوديا فى نانتير أو جيسيو أو فلتانوس[1]." لكن هل ذلك لأنهم يهود أم لأنهم باعتبارهم يهوداً كانوا قد اعتبروا أنه من الضرورى مساندة شارون؟ تبدو لى الفرضية الثانية هى الأكثر صحة. لقد كنت طالبا ثم معلما فى فلتانوس من (١٩٧٤) إلى (١٩٩٨). وفى هذه الكلية التى شهدت انطلاق جمعية sos لمكافحة العنصرية، كان لاتحاد الطلاب اليهود بفرنسا جذور راسخة وصلت حتى إلى حد تقديم قوائم انتخابية لمجلس الكلية تحت رمزهم الانتخابى- وكان مندمجا تماما ولم يشهد مشاكل كبيرة من الاعتداءات على مدار الخمسة والعشرين سنة السابقة التى أمضيتها فى فلتانوس، وكتبت مذكرتى الشهيرة وأنا أرى تغير صور الإدراك السياسى لدى الطلاب.

١- الفيجارو ٧ يناير (٢٠٠٣).

لقد أعلن اثنان من المسئولين القوميين لاتحاد طلاب يهود فرنسا رفضهم لانتفاضات الساحات الطلابية الجامعية[1]. ويشعران بالأسف لأن صراع الشرق الأوسط قد انتقل إلى جامعاتنا". ويندهش بول برنار وباتريك كلوجمان "لا نرى أحداً منزعجا من مذابح المسيحيين فى السودان ونيجيريا ولا من احتلال الصين للتبيت، أو احتلال سوريا للبنان أو احتلال روسيا للشيشان." [2] يرى المرء بوضوح نوعية الصراعات التى يقارنون بينها وبين وضع الأراضى المحتلة. وفى مواجهة الاستياء الانتقائى يمكن أن نجيبهم أن فلسطين ليست بالفعل الصراع الوحيد فى العالم حيث تنتهك حقوق الإنسان. ومع ذلك فهو الصراع الوحيد - من جهة - الذى يقع فى تناقض كامل مع القانون الدولى وقرارات مجلس الأمن بالأمم المتحدة، والصراعات الأخرى هى صراعات داخلية (الأمر الذى لا يقلل من خطورتها). ومن جهة أخرى وحيث إن إسرائيل تعتبر نفسها، وينظر إليها على أنها مثل الديمقراطيات الغربية، فلذلك يمكن للمرء أن يكون أكثر تشدداً معها. وأن يجعلها تدرك أنه إذا جاءت جمعية طلابية للدفاع عن سياسة بوتين فى الشيشان أو سياسة الصين فى التيبت أو مذابح المسيحيين فى السودان فإنها لن تستقبل بحفاوة.

وهذان المسئولان هما من أنصار الحوار وليسا من المتطرفين فى شيئ وأعرف أنهما مخلصان وقلقان من صعود التوترات. لكن ألا يتحمل اتحاد

١- بول برنار وباتريك كلوجمان "انتفاضة الساحات الطلابية الجامعية، لوموند ٢٢ يناير (٢٠٠٣).

٢- كذلك كتب برنار هنرى ليفى بشأن عريضة السوربون السادسة : لقد صوت الأساتذة على هذه العريضة وهم يعبرون عن استياء انتقائى، إذ لم نسمع صوتهم عندما سحق الروس جروزنى، ولا عندما غزا الصينيون التيبت" الفيجارو ٨ يناير (٢٠٠٣).

طلاب يهود فرنسا، بوصفه تنظيما جانبا من المسئولية فى تصدير صراع الشرق الأوسط إلى جامعاتنا؟ وباشتراكه فى المحاكمة المرفوعة ضد دانيل ميرميه[1] وبالاحتجاج كلما أدينت إسرائيل، وبالظهور كمدافع عن حكومتها فإن هذا الاتحاد قد عمل على إضعاف صورته.

وكان يكفى هذا الاتحاد أن يأخذ مسافة ابتعاد عن شارون حتى يعاد له الاعتبار على نطاق واسع، والأمر الهام هو معرفة ما إذا كان من السهولة بمكان تغيير رأى الطلاب الفرنسيين حول شارون، والسياسة التى يتبعها شارون ضد الفلسطينيين، أو حرية التعبير لدى الاتحاد حول هذه المسألة. لأن هناك، فى الحقيقة، عددا كبيرا من المناضلين فى هذا الاتحاد يرون جيدا الكارثة التى تفضى إليها سياسة إسرائيل الراهنة. غير أنهم لا يتجرأون على التعبير عنها خارج المناقشات الداخلية للاتحاد. ولا يبدو لى مؤكدا أن هذه هى الطريقة الأفضل لخدمة القضية التى يدافعون عنها.

لقد أعطى روجيه كوكيرمان توجها أكثر تشدداً للمجلس التمثيلى (كريف)، بحديثه عن قيم الجمهورية فى الوقت الذى كان ينمى فيه الانطواء الطائفى، وبتعبيره عن الابتهاج للنجاح الانتخابى الذى حققه لوبن فى الجولة الأولى من الانتخابات الفرنسية، فى الوقت الذى كان يدين فيه المحور المزعوم عن الخطر الاحمر والبنى والأخضر، ومحاولة التقليل من انحرافات الكتائب اليهودية لليمين المتطرف، والمبالغة فى تقدير حجم العداء للسامية فى فرنسا، وكذلك محاولته لإيجاد رابطة مطلقة بين أعضاء الجالية اليهودية بفرنسا، وتصنيف الأحزاب السياسية فى فرنسا وفقا لموقفها من حكومة إسرائيل، وإدانة توريد صراع الشرق-الأوسط إلى فرنسا، ورفض المناقشات العلنية المتعارضة، والميل نحو الوشايات العامة للذين يرون أنهم

١- لحسن الحظ قام اتحاد طلاب يهود فرنسا بالتخلى عن مشاركته فى هذه الدعوى.

خصـوم لهم، وإدانة انتشـار كراهية اليـهود لكن التشـهيـر الفورى بالذين ينتقدون شارون، وإعلان أن المثقفين مثل الان منك هم أكثر خطراً من ألوية الدفاع الذاتى اليـهودية التى تستـخدم طرقا عنيـفة، والهجوم على اليـهود الذين ينتقدون بشدة شارون والأسف على أن الطائفة اليهودية لم تعد تدرك فى تنوعها.

وفى العـشاء السنوى الذى نظمـه المجلس التمـثيلى (كـريف) فى يناير (٢٠٠٣) استعاد كـوكيرمان فى الحقيـقة منطق الكسندر ديل فال، وهاجم بشدة "التحالف البنى-الأخضر-الأحمر"، مستهدفا بذلك الرابطة الشيوعية الثورية والكفاح العمـالى، وأنصار البيئة وفيـدرالية الفلاحين. ورفع صوته ضد "تيار من اليسار المتطرف، المعادى للعولمة، المعادى للرأسمالية، المعادى لأمريكا، المعادى للصهيونية"، وحـيث تقدم لنا الرقابة الجديدة، فى طبخة على نار هادئة، فـانتـازمـات قديمـة مع حسـاء على الموضـة وهو العـداء للصهيونية[1].

وهو الأمر الذى أثار استـياءاً لدى رئيس المجلس التمثـيلى (كريف) فى منطقة Rhone-Alpes، وهو الان جاكو بوفيسك الذى أكد أن كوكيرمان كان مخطئا فى الـظهور كمدافع عن سياسة الحكومـة الإسرائيلية لأنه ليس من مهام المجلس التمثيلى (كـريف) أن يكون سفارة ثانية لدولة إسرائيل فى باريـس[2]. وبسلوكه على هذا النحو صحح لحسن الحظ الانطباع الكارثى الذى خلفه كوكيرمان وأعطى صـورة جديدة من الانفتاح والتسامح حظيت بترحيب خاص.

١- ليبراسيون ٢٧ يناير (٢٠٠٣)، تساءل كوكيرمان أثناء خطابه أيضا عن "إعادة كتابة تاريخ فرنسا بالبدء بموضوعات عن شارل مارتل أو عن الصليبيين".

٢- الان جاكو بوفيسك "ألا يوجد خلط" ليبراسيون ٥ فبراير (٢٠٠٣).

إن الرئيس الحالى للمجلس التمثيلى (كريف) هو رجل إطفاء يشعل النار، وواقع أنه لا يحظى بنقد كبير من قبل الصحافة الفرنسية يثبت أن هذه الأخيرة ليست معادية للموالين لإسرائيل.

لقد عرف تيوكلاين[1] كيف يكافح العداء للسامية فى فرنسا موضحا أنه يمكن أن يكون مسئولا سابقا من الطراز الرفيع للطائفة، وارتباطه بإسرائيل ليس موضع شك، وبدون أن يكون موافقا على عمل حكومتها. وساهم أكثر من أى شخص آخر فى تجنب تصدير صراع الشرق الأوسط إلى فرنسا عندما قام بتفضيل ما هو عالمى على ما هو طائفى.

وفى كتابها الرائع "قصة صفة"[2] أوضحت ميشيل مانسو بجلاء كم هو من الزائف الخلط بين يهود فرنسا ومساندة شارون.

ينبغى إعادة الحوار بسرعة أكبر، وحتى لا يصبح المعتدلون رهينة فى أيدى المتطرفين، وحتى يتغلب التسامح والحوار الديمقراطى على الوشاية والإقصاء. ومن أجل أن نكافح العداء للسامية نحن فى حاجة إلى أن نسمع ونقرأ كل الأصوات، مع تنوع تعبيراتها، التى توضح أن كون الإنسان يهوديا لا يعنى بصورة آلية مساندة شارون، أو الصمت على تجاوزاته. ينبغى أن يكون ممكنا من جديد نقد إسرائيل وحكومتها فى فرنسا، ودون أن يواجه المرء تهديدات وانتقامات.

١- فى مقاله التأسيسى المنشور فى لوموند ٦ سبتمبر (٢٠٠١) ثم فى تصريحات أخرى عديدة بعد ذلك.

٢- دار استوك (٢٠٠٣).

ملاحق الكتاب

الملحق الأول

مذكرة سياسية
مرسلة إلى فرانسوا هولاند
وهنرى ناليه
(أبريل/نيسان ٢٠٠١)

الشرق الأوسط. الاشتراكيون

الإنصاف الدولى والفعالية الانتخابية

فلنتخيل: قيام بلد باحتلال أراض، فى نهاية صراع، منتهكاً بذلك القوانين الدولية. ولا يزال هذا الاحتلال مستمراً، بعد مرور أربعة وثلاثين عاماً، رغم إدانات المجتمع الدولى. ويعيش سكان هذه الأراضى المحتلة فى ظل إكراهات فادحة، وقوانين استثنائية ونفى لحقهم فى تقرير المصير، وممارسات شائعة من تدمير المنازل، ومصادرة الأراضى، والسجن بدون أحكام والإذلال اليومى، وحتى تقنين التعذيب، مؤخراً، تحت مسمى "ضغوط جسدية معتدلة".

أمام هذا الوضع يثور هؤلاء السكان، ويطالبون بإنشاء دولة مستقلة فى الأراضى المحتلة، وهو أمر لا يتعدى تطبيق ميثاق الأمم المتحدة. وتحدث حينئذ دورة من العنف والقمع، حيث تطلق عناصر أمن قوات الاحتلال النار، وتقتل المتظاهرين بصورة منتظمة، وتحدث عمليات تؤدى إلى وقوع ضحايا بين سكان الدولة التى تمارس الاحتلال.

فى أى حالة من هذا القبيل فإن أى شخص إنسانى النزعة، ولاسيما إذا كان من أهل اليسار، لا يمكنه إلا أن يدين القوة المحتلة.

فلنتخيل بلداً رئيس وزرائه متورط بصورة مباشرة بمذابح لمدنيين، أغلبهم من النساء والأطفال، فى معسكر للاجئين العزل. ونجد فى هذا البلد زعيم ثالث حزب فى السلطة الحاكـمة يصف أفراد واحدة من الجماعـات القومية الرئيـسية لهـذا البلد بأنهم ثعـابين بل وحتى أفـاع، ويقتـرح إعدام هؤلاء الأشرار والمجرمين وقـذفهم بالصواريخ. ونجد أيضـا فى هذا البلد متطرفين مسلحين يـقومون بتنظيم مـذابح ضد المدنيين العـزل، ودون أن يتعـرضوا لأدنى مساءلة.

إن هذا الأمر لن يكون وضعاً مقـبولاً. ومع ذلك يتم التغاضى عنه فى الشـرق الأوسط. كيف يمكـن إذن فى هذه الحالة تفـسـير ليس فـقط هذا التشويه بل الخرق لأبسط مبادئ احترام الآخر؟

ثمة ثلاثة أمور لا جدال فيها:

١) تعرض الشعب اليهودى لأكثر المعاملات وحشية فى "الشوا". ومع أن الكلمة صارت تستخدم أكثر فأكثـر فى غير محلها فإن الشعب اليهودى هو الوحيـد الذى قاسى من إبادة فـعلية بقصـد الإبادة الشاملة له بوصـفه شعبا. فى مواجهة هذا التآزم (انتهى إلى سلوك معاد للسامية ذائع الانتشار) وحيث كـان الشعب اليـهودى وحيـداً فإن إسرائيل تمثل المـلاذ واليقين بأن الأسوأ لا يمكن أن يعود من جديد أبداً.

٢) دولة إسرائيل الديمقراطية (حتى إذا كـان السكان العرب لا يتمتعون بالحقوق ذاتها التى يتمتع بها السكان اليهود) محاطة بأنظمة تسلطية، إن لم تكن ديكتاتورية، وأن عليهـا أن تناضل حتى تجعل وجودها معـترفا به من قبل جيرانها.

٣) الدفاع عن إسرائيل فى هذه الظروف يسبق أى شيئ آخر، بما فى ذلك المبادئ التى قادت مؤسسيها.

لكن هذه الأمور التى لاجدال فيها لا تبرر أن المعاناة التى عاشها الشعب اليهودى تعطيه الحق فى ممارسة الاضطهاد بدوره. وهل ينبغى قبول انتهاكات حقوق شعب آخر حتى لا تحدث "الشوا" مرة ثانية؟

واستناداً إلى لحظة التأزم هذه، يتهم البعض كل من يعارض سياسة حكومة إسرائيل بأنه معاد للسامية عمليا ويشتبه فى أنه لا يدين ما حدث فى" الشوا".

والحال إنه حتى إذا لم يكن هناك ما يماثل رعب "الشوا"، فإن هذا الاتهام والاشتباه فى الذين يعارضون سياسة حكومة إسرائيل لم يعد من الآن فصاعداً مطابقا للواقع بل هو غير مقبول أيضا.

بالطبع هناك عناصر معادية للسامية فى صفوف المتعاطفين مع الفلسطينيين، غير أنهم أقلية ولا يسمح ذلك لأحد بالقول إن الذين يطالبون بتطبيق المبادئ الدولية فى الشرق الأوسط يفعلون ذلك حقداً على الشعب اليهودى.

اليوم نجد الضحايا الأساسيين هم من الفلسطينيين. وينبغى على المرء ألا يكون مبصراً للواقع حتى يقبل ما يحدث فيه. لكن هذا لا يعنى بالتأكيد أنه لا توجد أى أخطاء من جانب الفلسطينين أو أن الفساد لا يستشرى بينهم، أو أن عرفات لم يضيع فرصة تاريخية فى كامب دافيد، وأنه لا توجد عمليات عمياء... الخ لكن يظل أيضا أنه لا يمكن أن نضع بالقدر نفسه المحتل مع الواقع تحت الاحتلال. على أية حال، هذا هو ما يشعر به أغلب

الفرنسيين ولاسيمـا الشباب، وأنا مندهش، فى هذا الشأن، من تطور وعى الشباب خاصة الطلاب، الذين كانوا فيمـا مضى منذ عشرين سنة يقتسمون التعـاطف مناصفة مع الإسرائيليين والفلـسطينيين أما اليوم فالتـعاطف يميل بصورة كبيرة تجاه الفلسطينيين.

ولم يعد الربط بين مكافـحة العداء للسـامية والدفـاع عن إسرائيل بأى ثمن يجد مـصداقية كـبيرة، بل يكشف حـتى عن تأثير مضـاد. فلا يمكن مناهضة العـداء للساميـة مع السمـاح بالقمع الحالى للفلسطـينيين من قبل إسرائيل. بل بالعكس، ومع الأسف، فإن التصرف بهذه الطريقة يؤدى إلى انتشار العداء للسامية.

وهذا الإرهاب الفكرى المتمثل فى إلصاق تهمـة العداء للسامية لكل من لا يقبل سياسة حكومات إسـرائيل (وليس دولة إسرائيل) سيترك آثاره على المدى القصـير، وربما يكون كـارثيا على المدى الوسـيط. ولا يأتى هذا من تقليل معارضة الحكومة الإسـرائيلية، وإنما يـأتى سواء من تعديل الأسلوب الذى يتحـول إلى أسلوب أكثـر غموضـا وأكثر دهاء، أو يأتـى من تشديد وتطوير حساسية ما إزاء الطائفة اليهـودية (فى فرنسا) ويعزلها على الصعيد القومى.

وهناك، لحسن الحظ، بعض أصـوات ممثلى الطائفة اليهـودية مثل رونى برومان وبيير فـيدال ناكيه الذين أعلنوا رفضهم لسيـاسة القمع الإسرائيلى، ورفضهم لخلط الأوراق المخيف.

وهذا الربط بين مكافحة العداء للسامية ومساندة أو عدم إدانة شارون لا يخدم فى شيئ القضية الأولى، بل هو بعيد عن ذلك.

هناك حالات- ونحن عايشنا ما يماثلها فى فـرنسا - حيث السياسة التى تتبعـها الحكومة لا تخدم الأمـة التى تزعم هذه الحكومة خدمتـها. لن يتم مساعدة هذه الأمة إلا بالابتعاد عن هذه الحكومة المعنية.

وفى تقديرى أن الطائفة اليـهودية ستخسـر أيضا على المدى المتوسط إذا راهنت على ثقلهـا الانتخـابى من أجل ألا تتعـرض الحكومة الإسرائـيلية للنقد. فالطائفـة التى ينتمى أفرادها إلى أصل عربى أو مسلم تنظم نـفسها وتريد أن تشكل ثقلا مضاداً، على الأقل فى فرنسا، سيلقى تأثيره سريعاً، إذا لم يكن هذا قد حدث بالفعل.

من الأفـضل إذن لكل طائفة أن تحـترم المبـادئ العالميـة وليس ثقل كل طائفة.

وأمـام الرغـبة فى الإبـقاء على تـوازن متكـافئ بين قوات الاحـتـلال الإسرائـيلى والمتظاهرين الفلسطينيين، ووضع فى مـيزان واحـد العملـيات البائسة للفلسطنيين المستعدين للانتحار، لأنه لا يوجد أمامهم آفاق أخرى، والسـياسـة المخططة للقمع الـذى تنفذه الحكومـة الإسرائيليـة فإن الحـزب الاشتـراكى والحكومة ينظر لهم من عدد أكـبر فأكبـر من الرأى العام على أنهـمـا "غـيـر عـادلين". ولماذا مـا يصلـح لأهل كـوسـوفـا لا يصلح للفلسطينيين؟ ولماذا يضفى البعض طابع الشيطان على هيدر ويعامل شارون بصورة طبيعية، وهو الذى لم يقتصر على التهديدات اللفظية بل انتقل إلى الفعـل؟ هذه الملاحظات نستـمع اليها أكـثر فـأكثـر هذه الأيام. وما يثـير الاهتمام فى هذا الشأن هو عدد أبناء المهاجرين والفرنسيين المسلمين من كل الأعمار والذين يعلنون أنهم ينتمون لمعسكر اليسار، لكنهم يؤكدون أنهم لا يريدون التصويت لصـالح جوسبان فى الانتخـابات الرئاسية، نظراً لموقف الحزب من الوضع فى الشرق الأوسط.

موقف الحزب الاشتراكى ينظر له على أنه غير متوازن فى الشرق الأوسط- وبالتأكيد يعتقدون مرة أخرى أنه ليس لصالح العرب-ويأتى هذا التصور ليؤكد أن الطائفة العربية المسلمة لم تؤخذ فى الاعتبار، بل وحتى تم إهمالها من قبل الأسرة (الحزب) الاشتراكية.

وقد يؤدى الوضع فى الشرق الاوسط وتردد الاشتراكيين فى إزالة القمع الإسرائيلى إلى تدعيم انطواء المسلمين على أنفسهم فى فرنسا وهو أمر لا يمكن أن يسعد أحداً من اليهود أو المسلمين أو المسيحيين أو الوثنيين.

من الأفضل أن يخسر الإنسان الانتخابات على أن يخسر نفسه، لكن الذين يقولون ذلك، ويضعون بالقدر نفسه الحكومة الإسرائيلية مع الفلسطينيين يغامرون بخسارة الاثنين معا (أى الانتخابات والنفس). فهل مساندة شارون تستحق أن نخسر انتخابات (٢٠٠٢)؟!

لقد حان الوقت لكى يغير الحزب الاشتراكى موقفه الذى يريد توازناً بين الحكومة الإسرائيلية والفلسطينيين والذى صار غير طبيعى أكثر فأكثر بحكم واقع الوضع فى الميدان، وينظر له كذلك على هذا النحو، وفضلاً عن ذلك لا يخدم بل يضر مصالح الشعب الإسرائيلى والطائفة اليهودية الفرنسية على المدى الوسيط والبعيد.

الملحق الثانى

لقاء مع باسكال بونيفاس

الأسئلة الداخلية الصعبة لموقف فرنسا المناهض للتفرد الأمريكى الإسرائيلى

باسكال بونيفاس باحث فى مجال القضايا الجيواستراتيجية، يترأس معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية iris فى باريس، وأصدر أعمالاً أبرزها: "إرادة العجز" (١٩٩٥)، "من يجرؤ على نقد إسرائيل؟" (٢٠٠٣)، "فرنسا ضد الامبراطورية" (٢٠٠٣). والكتابان الأخيران صدرا هذا الصيف عن دار "روبير لافون" الفرنسية.

فى "من يجرؤ على نقد إسرائيل؟" يروى المؤلف قصة صراعه مع أقطاب الحزب الاشتراكى الفرنسى. إذ كان بونيفاس أرسل مذكرة سياسية الى قادة الحزب فى نيسان (إبريل) (٢٠٠١) يسأل فيها: لماذا لا نطبق فى الشرق الأوسط المعايير والمبادئ ذاتها كما نفعل فى الصراعات الأخرى؟ ولماذا نقبل الخرق الدائم للقانون الدولى واتفاقات جنيف وقرارات الأمم المتحدة، وحذر بونيفاس قادة الحزب من آثار السياسة التى ينتهجونها تجاه مواقف الحكومة الإسرائيلية، ومن الشعور المتعاظم بالظلم لدى أبناء المهاجرين القادمين من المغرب، مما سيؤدى الى فقدان أصوات أبناء هذه الجالية فى انتخابات الرئاسة الفرنسية (٢٠٠١). وهو ما تحقق بالفعل!

هوجم بونيفـاس واتهم بالعداء للسامـية، وانه جارودى اخر فى فـرنسا وتلقى تهديـدات، وتعرض لضغـوط. وكانت إجابتـه على الحملة كـتاب "من يجرؤ على نقـد إسرائيل؟" بعنوانه المثير، وفـيه يرصد مجـموعة من الوقائع والأحداث والتصريحات، بعضها يتـعلق بما عايشه شخصياً وبعضها الآخر ينتمى الى مجال التحليل السياسى لأزمة الشرق الأوسط وتداعياتها.

أما "فرنسـا ضد الأمبراطورية" فيتناول حـقيقة الحرب الأميـركية على العراق، وانعكاساتها الإقليمية والدولية، والتحول من عالم متعدد الأقطاب الى عالم الـقطب الواحد، وموقف فـرنسا الرافض للهـيمنة الأمـيركـية، وملامح الصـراع فى مرحلة ما بعـد حرب العراق. هـنا حوار مع باسكال بونيفاس حول القضايا التى تناولها(*).

*****

● ما معاييرك فى رؤية الأحداث والأزمات السياسية وتحليلها ؟!

- □ يشغلـنى دائما إيضاح طبـيعـة المواقف المعلنة، ما يصـمد منهـا أمام الاختبار النقدى وما لا يصـمد. ومنهجى هو ألا أسلم بالبيانات والأحداث بالصورة التى تعـلن بها هذه الأحداث وتفـسر، وأن أنظر إليهـا من خلال وجهات نظر أخرى غير رسمية، كوجهات نظر المنظمات غير الحكومية على سبيل المثال، وأرى واجبنا فى إظهـار ما هو خفى خلف ما هو مرئى، من أجل هذا لابد من توافر خبرة ما، ومسافـة ما، حتى لا نأخذ ما يقال على السطح الخارجى للأحداث كأنه الحقـيقة. إنه أمر سهل أن ينسخ المرء، فى تحليله، مـا يقال فى العلن لإعـطاء شرعـية لبـعض المواقف فى العلاقـات

(*) أدار اللقـاء مـترجم الـكتاب ونشـر بجـريدة "الحـيـاة" بتاريخ ٢١ أكـتـوبر (٢٠٠٣). ونعيد نشـره هنا كملحق لهذا الكتـاب، لأنه يلقى أضواءً على فكر المؤلف ومواقفه فى قضايا أخرى على درجة كبيرة من الأهمية

الدولية، فى حين أن المسـافة النقدية والدقـة، وهما متـلازمتان فى أحـيان كثيرة، تسمـحان بتأسيس موقف يؤدى الى فهم الأسباب الحقـيقية خلف ما يقال.

●تتحـدث فى كتبك عن ضـرورة الاستناد الى القـانون الدولى والمبادئ الدولية لكنك لا تستثنى منطق المصالح؟!

□ نعم، لأننى أعتقـد بان المبادئ والمصالح لا تتعارضـان بصورة دائمة، وإنما تلتـقـيـان فى بعض الأحـيان. وإذا أردنا أن ندافـع حقـاً عن المبـادئ والأخلاق فعلينا أن نضع فى حـسابنا مصالح الأفراد والجـماعات والدول، وألا ينبغى أن تطغى مصالح البعض على مصالح البعض الآخر. هذا الأفق هو الذى يسمح بالوصول الى حلول تحـقق ما هو أخلاقى. وفى تقديرى أن المجتـمع الدولى سيكون أكـثر سـلاماً وأكثـر عدلاً اذا اسـتندنا فى رؤيتنا، وحلولنا للمشكلات، الى المبادئ والمصـالح فى آن معاً. وأضيف: إذا أردنا أن نتحدث عن المبادئ والأخلاق فعلينا أن نحدد عن أى أخلاق وأى مبادئ نتحدث؟

● عمّ تتحدث بالتحديد ؟

□ نتحدث وأنا أنظر إلى الحرب فى العـراق حيث كانت هناك تصريحات تفصح عن مبادئ وأخلاق بينما السلوك العملى لأصحابها على النقيض من ذلك. لقد اكـتشف العالم سيـاسة الكيل بمكيالين، أى الاستناد الـى مبادئ وقـيم فى موقف والاسـتناد الى غـيـرها فى مواقف مماثلـة. وأنا كفـرنسى وكغربى وكمواطن عالمى أريد أن تكون هناك صدقية أمام الشعوب الأخرى، لا يمكن أن أقبل بمعايير مزدوجة فى التعامل مع أوضاع متماثلة.

●قبل أن نتحاور بصدد كتابيك الأخيرين أريد بعض الإيضاحات فى ما يتعلق ببعض التسميات والمصطلحات التى يكثر استخدامها فى الفترة الأخيرة، من قبيل الانتقال فى وصف أميركا من "قوة عظمى" (Super puissance) الى "القوة الأعظم" (Hyper puissance).

□ نهذا التعبير لا يعود لى وإنما إلى أوبير فيدرين، وزير خارجية فرنسا السابق. إذ وصف أميركا بأنها قوة عظمى فى فترة وجود قوة أخرى هى الاتحاد السوفياتى، وبانهياره لم يبق لها منافس، حينها رأى فيدرين أن كلمة القوة العظمى لم تعد كافية لوصف تفوق الولايات المتحدة.

● ألا تعتقد أن مثل هذا التمييز يتضمن نغمة تمجيدية لقوة أميركا؟!

□ نلا يتضمن ذلك، فقط هو يعبر عن ملاحظة ووصف لواقع هو أن أميركا لا يوجد لها منافس اليوم كما كان الأمر فى الماضى.

● هناك أيضا تعبير آخر محير بالنسبة إلى وهو استخدام وصف القوة الفظة (Hard Power) كمرادف لقوة أميركا، والقوة الهادئة (Soft Power) كمرادف لقوة فرنسا.

□ نلقوة الفظة هى التى تستند الى وسائل القوة التقليدية فى الإكراه والإرغام عبر الوسائل العسكرية والاقتصادية، بينما القوة الهادئة هى التى تمارس سلطتها عن طريق التفاهم والإقناع، والنموذج العملى لذلك ما حدث فى العراق حيث مارست أميركا القوة الفظة، وما نتج عن ذلك من فقدان أميركا شعبيتها بصورة لم تحدث من قبل بهذا الحجم، ولم تنجح هذه القوة الفظة فى إقناع العراقيين الذين قالت إنها جاءت لخدمتهم! بينما مارست فرنسا سياسة القوة الهادئة وحققت شعبية داخل فرنسا وخارجها لم تتحق لها بهذا الحجم الكبير منذ عقود.

● من التعليقات التى صدرت فى شأن كتابك الأخير هناك مقالة لفيليب ساغان (الرئيس السابق للجمعية الوطنية الفرنسية - البرلمان) فى جريدة "الفيغارو" ينتقد فيها المنطق الذى استخدمته فى الحديث عن رأى عام فرنسى مؤيد لموقف شيراك قبل الحرب وبعدها، ويرى أنه موقف تنقصه الدراسات التفصيلية لهذا الرأى العام الفرنسى، وأنه لم يكن موحداً ولا متناغماً الى الحد الذى تشير إليه أنت فى كتابك. ما دلالة هذا النقد فى رأيك؟

□ أعتقد أن فيليب ساغان يقف الى جانب المجموعة الرئاسية، حيث توجد شخصيات أخرى لم توافق على الموقف الفرنسى من حرب العراق مثل آلان مادلان وبيير لولوش. لكن ما يمكن ملاحظته فى هذا أن أكثر قطاعات المجتمع الفرنسى أيدت موقف الرئيس شيراك حتى أولئك الذين يختلفون معه فى سياسته الداخلية. كانت أكثرية الفرنسيين مع شيراك وأيدت موقفه.

● قلت فى كتابك "فرنسا ضد الأمبراطورية" أن أزمة المجتمع الدولى اليوم تنبع من أن أميركا، مع إدراكها لقوتها التى لا يناظرها شيئ، تعمل على تجاوز الأعراف والقوانين والمؤسسات الدولية، وأن أميركا صارت مخمورة/ مسطولة بقوتها؟

□ تماما. أميركا فى حال انبهار بقوتها الذاتية، وتعتقد بأنه طالما لا يوجد مثيل لقوتها اليوم، وأنها صارت الأمة الوحيدة الضرورية فى هذا العالم، وأن لها مصالح أساسية تتجاوز حدود الدول الأخرى، فإنه يمكنها القيام بأعمال خارج نطاق المؤسسات والقوانين الدولية، حتى لو كانت هذه الأعمال مرفوضة من البلاد والشعوب الأخرى. وأنها هى دائما على صواب، وهذه الرؤية منتشرة على نطاق واسع فى أميركا وليست قاصرة فقط على الجمهوريين.

● مع تقديرى لأهمية هذه النظرة ألا ترى أن أزمة المجتمع الدولى اليوم لا تكمن فقط فى هذا الجانب "أى أدراك أميركا الجديد لقوتها وتصرفها فى معزل عن القانون والمؤسسات الدولية، وإنما تمتد الى الخلل العالمى فى موازين القوى قبل الوعى الجديد لأميركا بقوتها وجبروتها؟!

□ هناك عاملان يلعبان دورهما الحاسم: الأول هو الفارق فى القوة بين أميركا والبلاد الأخرى والثانى هو النتائج التى تستخلصها أميركا من هذا الفارق. فأميركا خرجت من الحرب العالمية الثانية قوية جداً لكنها لم تستخلص نتائج الهيمنة على العالم بل استخلصت نتائج تفضى إلى مساعدة الدول والمؤسسات على خلق عالم متعدد الأطراف والأقطاب. أما اليوم فأميركا توصلت الى نتائج أخرى، وصلت الى حد العمل على القضاء على تلك المؤسسات والقوانين التى تمثل نظاماً متعدد الأطراف والأقطاب.

● قلت فى كتابك "فرنسا ضد الامبراطورية" أن إحدى التحديات الكبيرة التى تواجه المجتمع الدولى يكمن فى العثور على نقطة توازن بين "حق التدخل وحق السيادة". لمن توجه كلامك هنا؟ ومن الذى يمكنه العثور على نقطة التوازن التى تنشدها؟ ووفق أى معايير فى نظرك؟

□ أوجه حديثى إلى الذين فى بلادنا، فى فرنسا وأوروبا، يعتبرون أن الحدود القديمة للدول تتغير الآن، أو فى طريقها للتغير، وأن حق التدخل هو من الواجبات الأخلاقية اليوم، كما أنه حديث موجه للإعلان عن موقف لا يمكن فيه القبول بظهور "بينوشيه" من جديد، أو "خمير حمر" من جديد. التحدى الأكبر اليوم هو الجمع بين المبدأين بطريقة يكون من شأنها ألا يكون الحق فى السيادة مبرراً لاستمرار الطغاة والطغيان، وألا يكون حق التدخل فى الوقت ذاته مبرراً للاحتلال وتحقيق مصالح لا صلة

لها بالـواجب الأخلاقى. فالملاحظ الـيوم، مع تعدد أشكـال التدخل، إن التدخل يتم ليس لأن الدولة المعنية مدانة وإنما لأنها ضعيفة.

● **هل توضح بصورة أكثر تفصيلاً؟**

□ خذ نموذجى العراق وكوريا الشمالـية، ستجد أن العراق هوجم لأنه لم يعد يمثل تهديداً عسكرياً، وكل ما فى الأمـر أنه يمثل مخاطر محدودة. فجيشه الذى تم تقديمه، خطأ، على أنه رابع جيش فى العالم عام ١٩٩٠، تعرض لهزيمة ثقيلة، وأضعف من خلال اثنى عـشر عاما من الحصار بينما نجد أميركـا صبورة مع كوريا الشمالية، لأنها تعـرف أنها قادرة على إلحاق خسائر بخصمها.

● أميـركا تريد أن تعـاقب الأقوياء أيضا، وليس الضـعفـاء فقط، ألم نستمع إلى كوندوليـزا رايس تقول: إن أميركا ستتـغاضى عن موقف ألمانيا وموقف روسيا لكنها ستعاقب فرنسا؟

□ هى تصريحات تتم فى إطار دعـائى، ولا أعرف على أى شيئ تريد أن تعاقب فرنسـا! أرى أن فرنسا خرجت قـوية من هذا الصراع، وصارت مكانتهـا فى العالم أقوى بكثـير مما كانت عليـه قبل حرب العـراق، لأنها استطاعـت أثناء الأزمة أن تقف فى وجـه أميركـا، وأصبـحت صوت من يشاركونها الرأى ولا يملكون القوة على إعلانه.

● قلت إن الارهاب نابع من شعـور بالظلم، هل تقصد مسـألة شعور نفسى وهـمى، أم أن هناك فى الواقع من الظلم والخلل ما يدفع بـالبعض الى القيام بهذه الأعمال المدانة؟

□ هناك الظلم وهناك الوعـى بالظلم. هناك حالات يـوجد فـيهـا ظلم واضح، لكن الناس لا تتـحـرك ضد هذا الظـلم، وهناك حالات أخـرى يحتـدم فيـها الوعى بالظـلم، ولا يجد الناس أفـقا سيـاسيـا للحل الذى

ينتظرونه، فتكون النتيجة هي الاندفاع نحو الأعمال الإرهابية التي ندينها جميعاً.

● كتابك قبل الأخير. "من يجرؤ على نقد إسرائيل؟" أثار الاحتجاج والتأييد الصامت، بعد كل هذه الضجة هل ترى أن العنوان كان مبرراً؟

□ لطريقة التي قوبل بها كتابي تؤكد أن سؤالي كان مبرراً، لكثرة ما تعرض له من نقد، فانا أعرف أن فرنسا بلد ديمقراطي، وأنه يمكن نقد سياسات إسرائيل، وهو ما قمت به، لكن، عندما يحدث أن تمارس نقد سياسات هذا البلد فإنك تتعرض لعواقب وخيمة، وهو ما لا يحدث عندما تتعرض بالنقد لبلاد أخرى كمصر أو سورية أو أميركا أو حتى فرنسا.

● كتابك هذا رفضته دور نشر عدة قبل أن يصدر عن دار روبير لافون، ما الأسباب التي قدمتها هذه الدور في رفض كتابك؟

□ ناك سبعة دور نشر رفضت الكتاب، وكانت تبرر ذلك بدعاوى أنه لا يوجد جمهور لمثل هذا النمط من الكتب، أو أن المواضيع المطروقة في الكتاب قد تم تناولها من قبل مراراً، وهناك من كانوا يبررون رفضهم بأنهم يخشون العواقب في حال نشر الكتاب.

● في كتابك " من يجرؤ على نقد إسرائيل" ؟ تسأل: لماذا لا نطبق في الشرق الأوسط المبادئ والمعايير ذاتها كما نفعل في الصراعات الأخرى؟ طرحت السؤال، لكن أريد أن يعرف القارئ إجابتك عن هذا السؤال؟

□ لجملة من الأسباب أولها أن هناك عقدة ذنب تاريخية إزاء الشعب اليهودي وإنه ينظر الى إسرائيل على أنها حليفة للبلاد الغربية، وأنها البلد الوحيد الديمقراطي القريب من الغرب في هذه المنطقة من العالم، وثالثاً، وهو سبب قد يكون أقل نبلاً، العداء للمسلمين في بعض الحالات والأوقات، وحيث يكون عدو المسلمين صديقا لدى البعض هنا.

● قلت لا يوجد لوبى يهـودى فى فرنسا، وإنما لوبى مـوال لإسرائيل. ما دلالة ذلك؟

□ نعم، لأن يهود فرنسا ليس لديهم جـميعا الرأى ذاته إزاء المشكلات المطروحة فى الشـرق الأوسط، ويمكنك أن تجد فى المنظمات المتعـاطفة مع الفلسطينيين الكـثيـر من اليهـود. لكن المشكلة هى أن الممـثلين الرسمـيين للطائفة اليهودية هم فى معظمهم يدعمون سياسة إسرائيل فى بشكل مطلق ومهـما فـعلت، ويمارسـون ضغـوطا على الرأى العام الفـرنسى وأجـهزة الإعلام، حـتى لا تنتقد سيـاسة إسرائيل، بدعـوى أنه اذا انتقدنا سيـاسة إسرائيل فنحن معـادون للسامية. أنا انتقد حكومـة إسرائيل، وهذا حقى، ولا أنتقـد اليهود فى بشكل عـام، أو بصفتهم يـهوداً، كما لا أنتـقد دولة إسـرائيل بصفـتهـا دولة، ولم أضع وجـودها موضع سـؤال، وإنما انتقـد سياسـات حكومة إسرائيل. وأنا أفعـل ذلك مع سياسات اخرى. فـعندما أنتقد الحـكومة الفرنسيـة، وهو ما يحدث أحيـانا، فليس معنى ذلك أننى معاد لـفرنسا، وعندما أنتـقد سياسـات ياسر عرفات، فليس من المـعقول وصفى بأننى ضد العرب وهو ما لم يحدث.

● ذكرت مـجموعة من الأسـباب تفسر المعـاملة الخاصة والمتمـيزة التى تحظى بها إسرائيل لكن، هل تبرر هذه الأسباب مثل تلك المعاملة؟

□ نالتأكيـد لا، فاذا أعطينا الانطباع بأننا نطبق سيـاسة الكيل بمكيالين، وأن المبادئ والقـواعد الدوليـة ينتهى مفـعولهـا عند حدود منطقـة الشرق الأوسط سنجـد أنفسنا فى وضع خطر جـداً، ولن يكون مجديـا أن نعمل على تفنيد نظرية صدام الحضارات، فى الوقت الذى نتبع فيه سياسة تفضى الى مثل هذا الصدام.

● قلت إن نقد سياسة إسرائيل فى فرنسا مباح، لكن نتائجه وخيمة العواقب على من يمارس هذا النقد. هل تعرضت فعلاً لمثل هذه العواقب من جراء نقدك سياسة شارون؟

□ عم، تلقيت أولاً رسائل بريدية والكترونية تحمل إهانات وشتائم، ثم تلقيت تهديدات بالقتل، وتهديدات لأسرتى، وتهديدات لى فى عملى المهنى وحدثت ضغوط على المركز الذى أديره من أجل إقالتى من منصبى، وهناك من رفض التعاون والعمل معى. لقد عانيت كثيراً على المستوى الشخصى والوظيفى لأننى قلت ما أعتقد بأنه الحقيقة.

● إذا كان الأمر على هذا النحو فينبغى أن أخاف بدورى من اللقاء معك ومن نشر هذا الحوار؟!

□ ضحك) لكنى لم أسمع عن اهتمام كبير من جانب الصحافة العربية باستثناء مقالة فى جريدة "الحياة" . . . كيف تفسر أنت هذا؟

● على رغم أن كتاباتك من المفروض أنها تسير فى الاتجاه الذى يصحح الخلل ويدعم موقف الدول العربية والإسلامية. . .

□ أحرص دائما على أن يسير الخط الحاكم لكتبى وأفكارى فى إطار خدمة المبادئ والقيم الإنسانية أولا وقبل أى شيئ آخر،

● هل تعتقد أن هناك أسئلة لم أطرحها وتود الحديث عنها؟

□ لا، الحديث شمل رؤية عامة لما أردت التحدث عنه. وأتمنى أن يجد كتابى مترجما وناشراً باللغة العربية!!

المؤلف : باسكال بونيفاس

كـاتب وصحـافى وجـامـعى فرنسـى، يرأس معـهـد العلاقـات الدوليـة والاستراتيجـية، ويتولى التدريس بمعهد الدراسات السـياسية فى باريس، ويرأس تحرير مجلة فصلية هى مجلة العلاقات الدوليـة والاستراتيجية. وهو عضو اللجنة الإستشارية لدى السكرتير العام للأمم المتـحدة فى قضايا نزع التسليح، وهو من المعلقين البارزين علـى الأحداث السياسـية فى أجهـزة الاعلام الفرنسيـة. وكتب وأشرف على العديد من المؤلفات المـتعلقة بقضايا دولية واستـراتيجية، والتى بلغ عددها حوالى ثلاثين مؤلفاً، أهمها :

كتـاب حروب الغـد وكتـاب الأرض دائرية وكتـاب إرادة العجـز (عن دار سوى) وكتاب دروس ١١ سبتمبر (عن دار المطبوعات الجامعية الفرنسية)

وصـدر له، فى الصـيف الماضى، من يجـرؤ على نقـد إسـرائيل؟ ثم فـرنسـا والامبراطورية، عن دار روبيرلافون (٢٠٠٣)

المترجم : أحمد الشيخ

كـاتب وصحـافى ومـتـرجم مصـرى، عـمل فى مـجلة اليسـار العـربى (١٩٧٩-١٩٨١)، وجريدة الوطن الكويتية (١٩٨١ - ١٩٨٦)، ومجلة الفرسان (١٩٨٦ - ١٩٨٨)، كما شارك بالكتابة فى عديد من الصحف والمجلات العربية مثل : الحـياة (لندن)، الشـرق الأوسط (لندن) الأهرام العربى (القـاهرة) العربى (الكويت)، . . وغيرها، ويدير حاليا المركز العربى للدراسات الغربية (القاهرة).

ترجم كتاب : الشرق والغرب زمن الحـروب الصليبية - كلود كاهن - دار سينا - ١٩٩٥

ومـؤلف كـتاب : من نقـد الاسـتـشراق إلى نقـد الاسـتـغراب - حـوار الاستشراق (١٩٩٩)

وكتـاب : من نقد الاسـتشـراف إلى نقد الاستـغراب - المثـقفـون العرب والغرب (٢٠٠٠) عن المركز العربى للدراسات الغربية.

الكتاب : من يجرؤ على نقد إسرائيل؟

محتويات الكتاب

صدر عن المركز العربى للدراسات الغربية

- من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب — تأليف : أحمد الشيخ
الجزء الأول : حوار الاستشراق (١٩٩٩)
- من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب — تأليف : أحمد الشيخ
الجزء الثانى : المثقفون العرب والغرب (٢٠٠٠)
- نشأة وعليها الكلام (٢٠٠٢) — تأليف : عمر المزى
- الرحيل المبكر - على بن عاشور (٢٠٠٢) — تأليف : الطيب ولد العروسى (مع آخرين)

وصدر بالتعاون مع المنظمة الدولية للفرانكوفونية

- متياق الفرانكوفونية (الترجمة العربية)
- إعــــلان بامـــاكو (الترجمة العربية)
- إعــــلان كــوتونو (الترجمة العربية)
- إعلان لوكسمبورج (الترجمة العربية)

ويصدر عن المركز

- من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب — تأليف : أحمد الشيخ
الجزء الثالث : المستشرقون العرب : أزمة المناهج



القاهرة



العنـــوان : القاهرة - الألف مسكن مم ٤ فيلا ١٣٧ (ب)
ت وفاكس: ٤٩٣٣٤٧٦ - ٢٤١٦٤٧٦٩
E-mail:elsheikhahmed 11 @ Hotmail.com

